وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

حسن حميد

أنين القصب

رواية



أنين القصب

حسن حميـد

أنين القصب

رواية

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق ٢٠١٣م

أنين القصب : رواية / حسن حميد . - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٣ . - ٢٥٦ ص؛ ٢٤ سم.

(روايات فلسطينية؛ ٣)

١ - ٨١٣,٠٣ ح م ي أ ٢ - ٨١٣,٠٠٩٥٦٤ ح م ي أ

٣ - حميد ٥ - السلسلة

روايات فلسطينية

«٣»

الإهداء

إلى أستاذي الرائع

رشـاد أبـو شـــاور

• **حسن**

بمثابة تقديم مجزوء

د. فيصل درّاج

تبدو الرواية الفلسطينية، لدى البعض، مقيّدة إلى أسماء ثلاثة راحلة: جبرا إبراهيم جبرا، غسان كنفاني، إميل حبيبي. ومع أن في الانطباع الخادع ما يبرره، فالزمن لا يجود كثيراً بالمواهب المتميّزة، فإن اقتفاء آثار الكتابة الروائية الفلسطينية يبدّد ذاك الانطباع، أو يقلقه على الأقل، ذلك أن كتاباً فلسطينيين يتابعون صياغة رواياتهم، بأشكال مختلفة، ومن هؤلاء حسن حميد الذي يتسم بالدأب والمثابرة، ويتسم أكثر بالاجتهاد الكيفي، الذي يجعله يكتب رواية جديدة، وهو يستأنف كتابة رواية سابقة، محاذراً الوقوع في تراكمٍ كميّ لا جديد فيه.

وهذه الرواية «أنين القصب» آية على التجدد والمثابرة، تنطوي على حكاية فلسطينية جاءت في روايات سابقة، وتدفع بالحكاية إلى آفاق جديدة، كأن في هذه الرواية تتويجاً جميلاً لمسار حسن حميد كله. والروائي، في ما سعى إليه، ذاكرة جماعية، يتوسل حكايات مترادفة، تتناسل بيسر لطيف دون اصطناع أو تعمّل، والروائي، في ما اجتهد فيه، بانٍ للحكايات ومهندس لها، يراصفها ويربط بينها ويحوّل الأشكال الحكائية المجزوءة إلى شكل روائي، يتحدّث عن نفسه ويحدّث غيره في آن.

هذا نص جاء من الحكايات الشفهية المتناثرة وانتهى إلى حكاية كبيرة مكتوبة هي حكاية الفلسطينيين، بصيغة الجمع، الذي كان لهم مكان اختلس منهم وزمن دافئ «بدّده» الغزو الصهيوني. وإذا كان للشفهيّ جماليةٌ خاصةٌ تندثر برحيل الرواة، فإن للشفهي الذي درأت عنه الكتابة النسيان جمالية أكثر نفاذاً وعمقاً. ففي المكتوب تترافد الحكايات، ويصبح المفرد جمعاً، وتضيء كل حكاية غيرها وتستضيء بها، وفي المكتوب يتحرّر الزمن من مكانه موسّعاً الحاضر بأزمنة ماضية وقادمة. كأن حسن حميد الذي عالج الحاضر الضيّق بأزمنة منقضية يبني ذاكرة شعبه وهو يكتب رواية، ويواجه بالرواية نسياناً محتملاً، يعبث بالحكايات ويهيل التراب على أصحابها.

يبني حسن حميد في حكايات متناسلة ملامح من فلسطين التي كانت قبل أن يدمّر الغزاة الملامحَ ويطلقونها متناثرة على ألسنة الرواة. لا يذهب حسن حميد إلى أساطير الرماد والدموع و «الأجداد العظام»، وهي مقولات تلائم الصهيونية وما اقترب منها، بل يسلك دروباً مختلفةً، مطمئناً إلى: جمالية الإنسان البسيط الذي تتجلى الحياة فيه، ويجلو في سلوكه وأشواقه وأحلامه معنى الحياة الحميم. وما الحكايات المتوالية وهي التقنية التي أخذ بها الروائي، إلاّ وجوه الفلسطيني الذي يقدّس الحياة أو وجوه الحياة المزهرة التي تتجلى في الفلسطيني، الذي كان وسيكون. وبهذا المعنى يكتب حسن حميد نصاً مزدوجاً: نص الفلسطيني الذي كان في فلسطين راحلةٍ، ونص الإنسان المضطهد الذي يستبقي من المكان المفقود أجمل ما فيه، ويحتفظ من الزمن الذي كان بعطر لا يضيع. ولهذا تبدو فلسطين في رواية «أنين القصب» كما كانت، وتتلامح كما يجب أن تكون، ناصعةً بيضاء مبرأة من الدنس. وهذا البياض، الذي لا دنس فيه، أثرٌ لحكاياتٍ يلتبس فيها الواقع

بالخيـال، ويخـتلط فيهـا المعـيش بـالمرغوب، والواقـع بالمحتمـل، والعجـائبي بالأسطوري. إنه أثرٌ للحكايات المترادفة التي ذابت في حكاية واحدة تـسرد جمـال الإنسان الشاسع وأوجاعـه الواسـعة في آن. وفي هـذا كلـه يؤنـسن حـسن حميـد المقدس، مكتفياً بالإنـسان العـادي، ومـصطحباً معـه إنـساناً محـتملاً بعيـداً عـن الغامض والمعجز والمغلق الذي لا تفكّ أسراره، كما لو كـان الإنـسان الفلـسطيني البسيط هو السرّ المشرق الوحيد الذي لا أسرار فيه.

ولعل الركون إلى جمالية الإنـسان البـسيط هـو الـذي يـضع في الروايـة ـ الذاكرة فرحاً لا حدود له بدلاً من أن تكون فضاءً مؤسسياً ومناسبة للتأسي. ففـي الذكريات، جميلة كانت أم محزنة، ما يستدعي القبور، ذلك أن ما كان انـدثر ولـن يعود. بيد أن رواية «أنين القصب»، التي شاءت أن تكون ذاكرة جماعية، تـستقدم الفرح وتحجب القبور لأكثر من سبب: فهي تُشتق أولاً مـن العواطـف الإنـسانية المتباينة، الموّزعة عـلى شخـصيات مختلفـة، عواطـف جوهريـة، إن صـحّ القـول، منتهية إلى الحبّ في ذاته، وإلى الـصداقة الخالـصة والنبـل المكتمـل، كـما لـو كـان الروائي يتّكئ على شخصيات تعيش القيم الجميلة، ويستولِد منها لاحقاً القـيم في ذاتها. وهي، ثانياً، تحتقب الماضي وتنفـتح عـلى الأمـل، لأن في منطـق الحكايـات المتوالدة ما يعِدُ بمستقبل قادم، وما يربط بـين حكايـة جـاءت وتحققـت وأخـرى ثاوية في طيّات الغيب. وتُعلن الرواية، ثالثاُ، عن الفرح، حين توحّـد بـين كاتبهـا ورواةٍ رحلوا مؤكدة الحاضر لحظة من الماضي والأخير لحظة متجددة عـصيّة عـلى الزوال، طالما أن للرواة، الذين كانوا، صوتاً صادقاً متجدداً، لا يتخلى فيه الأحيـاء عن الأموات، ولا ينفصل فيه المفرد عن المجموع.

تنبني رواية «أنين القصب» على توالد حكائيّ ينتقل، لزوماً، من حكاية إلى أخرى، ومن زمن إلى آخر يليه، مفضياً إلى زمن حكائيّ شاسع، هو زمن الحكاية الفلسطينية المفتوحة على المستقبل، كأن في كل حكاية ملامح من الروح الجمعية، وكأن في حكاية الحكايات ما يجلو الروح الفلسطينية صافية، مدثرة بالفرح والتعب والأمل. ولعل سعيَ الرواية إلى رسم الروح التي تتجلى في وجوهٍ على صورتها، هو ما دفع الراوي أن يبني، على مستوى المعنى، الحكايات على حوار متصاعد بين الحب والمقدس والموت. فالعشّاق يكثفون، في إيقاع منسجم، دلالة المكان الذي يتقدّس برموزه، وينشر معناه في عشق يتاخم الكلف. ينسج الحب والمقدس حواراً متصلاً دون أن يسقط في هوة الأسرار العميقة، ذلك أن حسن حميد «يؤنسن الأساطير»، ويرى المقدس في الإنسان العفوي المبرّأ من المكر والمخادعة. ومع أن حكايات العاشقين كلها تنتهي إلى الموت، فإن الروائي، وهو يرّحل العشق من جيل إلى آخر، يرى الموت في الأشخاص لا في القيم النبيلة التي يجسدونها.. ولهذا يسير التوالد الحكائيّ إلى الأمام، ويظلّ في الأزمنة جميعاً يسير إلى الأمام منتقلاً من جيل إلى جيل، ويتوزع على الأمكنة وهو يوزع القيم على الأجيال التي كانت، وعلى الأجيال التي ستكون. وإذا كان في التوالد الحكائي ما يواجه الموت والاندفاع، فإن في القيم المتوالدة ما يبني ذاكرة جماعية، تدرك أن حاضرها قائم في الأمس، وأن مستقبلها مصاهرة سعيدة بين الحاضر وأمسه معاً. وما صورة العاشق الريفي الفاتن الذي ارتحل إلى أمكنة بعيدة لجمع مهر عروسه، إلاّ صورة عن الروح الفلسطينية التي تمزج بينه العشق والمقاومة، وترى الزمن فضاءً واسعاً دافئاً، يضع في وجه العاشق تجاعيد كثيرة ولا يثلم روحه. وبهذا

المعنى، يكون شتيوي مجاز المغامرة الفلسطينية التي تنطوي على البراءة والشجاعة والإصرار والوفاء، وذلك التحالف السعيد بين الأمس والمستقبل، الذي يجعل الأحفاد يحتفون بأجدادهم، ويخلق أجداداً جديرين بالاحتفاء.

تنبني الرواية «أنين القصب».. هذه على حوار العشق والمقدس والموت، تدور في مكان منسوج من الإشارات الجميلة، وترد إلى زمن موجع لا طمأنينة فيه، يتهيأ فيه العدو الصهيوني لاجتياح المكان وتبديد الزمان، اتكاءً على هذا، تسرد الرواية دلالة الصهيوني بشكل مزدوج: تسرده نقيضاً لثلاثية الفلسطيني القائمة على العشق والمقدس والموت، كي يأتي إعلاناً عن الكراهية والدنس والقتل، وتسرده عدواً للحكاية الفلسطينية، يؤرقها ويهاجمها ويجبرها على الرحيل. لهذا تبدأ الحكاية الفلسطينية غنائية متدفقة، لا انقطاع فيها ولا شروخ، لاحقاً، في تصاعد زمني، ما يمنع عنها التدفق والاستمرار، تظهر حكاية نقيضة تحاصر الأولى وتطاردها، مسلّحة بالكراهية والدنس والقتل. تأتي الحكاية الفلسطينية بالموت الجميل، إن صحّ القول، وتأتي الحكاية النقيض بالقتل المعمّم، الذي يجتث العاشقين من أمكنتهم المقدسة.

يقدم حسن حميد في «أنين القصب» عملاً روائياً متميّزاً، يبني الذاكرة الفلسطينية من حكايات قديمة ـ حاضرة متوالدة، ويشتق الهوية الفلسطينية من الحب والذاكرة المقاومة والزمن المفتوح، مؤكداً ذاته كاتباً مفرداً، يجمع الحكايات ويعلق عليها، وصوتاً جماعياً يكتب ما رواه غيره، وفي هذا كله تميّز رواية «أنين القصب» ذاتها في أكثر من اتجاه: تعيد كتابة الموروث الحكائي الفلسطيني وتحفظه ذاكرة جماعية، تقاوم تداعي الذاكرة بقوة المكتوب، وتواجه سطوة النسيان بقوة الذاكرة. وتستولد الفلسطيني، الذي يكره العدوان والانتقام، من عوالم العشق

الفاتنة والمقدس الذي تأنْسَن، بعيداً عن منظور صهيوني يقدّس الرماد والرميم. وتمزج المفرد بالجماعي، بمعنى القيم والمُثل والأغراض السامية، لا بمعنى جغرافي مريض مجزوء. ولعل تقنية الحاشية، التي تعقبها حاشية أخرى، تعبير عن تكافل الحكاية المفردة والحكاية الجماعية الكبيرة، ذلك أن الراوي يسرد ما رواه غيره، ويكتب حواشيه المتلاحقة من حكايات متعددة، كما لو كان شخصية جميلة من بين الشخصيات الكثيرة التي روى أقدارها.

في «أنين القصب» يصل حسن حميد إلى أفضل رواياته، ويبرهن أن لدى الرواية الفلسطينية دائماً ما تقوله، وأن لديها ما يبني القول الروائي بشكل جميل.

* * *

استهـلال ..

هذا كتابٌ من كتب،

لا فضل لي فيه، ولا يد.

كتب أشبه بالسير الذاتية لأُناس عاشوا الأحداث، وعاينوها، ووقفوا على معانيها ومغازيها؛ سير ذاتية لشخصيات أتعبتها الحياة، وهزّتها الظروف، وظلمتها المصائر!

فيها اعترافات، وتجاوزات، وأغلاط، ودفء، وحنين، وخوف، وحب جارف، ونزوات، وتشوفات، وعزلة، وأحزان لا ضفاف لها، ومكائد، وألطاف، وهزائم، وخيبات، وحرائق...

كتب أشبه بالسير الذاتية لقرى، ومدن، وأزمان، ورواة، ورهبان، وراهبات، ورجال دين، وعصاة، وغرباء، ونساء حالمات، وثكالى،.. يتحدثون عن أزمنة اصطبغت بالهجر، والأذى، والخوف، والعماء.. وعن أمكنة صارت عناوين للفجائع والأحزان العميمة!

كتب، وصلت إلى يدي بعد بحث طويل، وتعب أزلي، وخوف أبدي من أن تكون قد تفرقت أيدي سبأ، طاردتُ أصحابها، وبحثتُ عنهم، فجعتُ بموت الكثيرين، واغتراب الكثيرين.. أيضاً، واحتراق ما دوّنوه، أو خراب ذواكرهم، ولم أنجح إلا قليلاً، لكن القليل.. كان كثيراً.

سير ذاتية، استغرقتني، وأنا أرى الألم يصير بحيرات من الدمع فحاولتُ أن أصطفي منها ما يؤيد الأزمنة، والأمكنة، والناس، والصبر،

والأحلام.. فأخفقتُ. كنتُ، وكلما ظننت أنني وصلت إلى قراري الأخير بإظهارها للناس، أعيد النظر فيها فأحسّ أنني ظلمت الرواة الرهبان حيناً، أو الراهبات حيناً آخر، أو شيوخ المساجد حيناً ثالثاً، أو الفلاحين الذين اكتووا بفواجع القتل، والتدمير، والانطفاء.. حيناً رابعاً. أفسدتني القراءات المتتالية للسير الذاتية، وعذّبتني أخبار الرواة، ذلك لأنني كنتُ آخذ كل ما رووه.. إلى صدري احتفاءً، وحنيناً. كنت أتخوّف من الاقتطاع، والتجزئة، والإقصاء، والتنحية، والإبعاد، والتجاهل، والغمط، والتورية.. كي لا أغدو وحيداً في ساحة النص، عارياً من أحزان الرواة، وتشوفاتهم، والدروب التي مشوها، والأودية التي ناموا فيها بعيداً عن بيوتهم وأولادهم، والمُغر التي آخوا فيها الوحوش..، ولكن ليس بالإمكان نشر السير الذاتية كلها، على الرغم من أهميتها، وغنى تفاصيلها، كي لا تُعمّق الجراح أكثر. لهذا.. جعلتُ من تلك السير الذاتية كتاباً، لا فضل لي فيه سوى أنني أدفعه إلى الضوء، ليكون شهادةً لأولئك الذين دافعوا عن مكانهم، وحياتهم،وتاريخهم.. دفاع الغابات وقد جفّت الأنهار، وزالت الظلال، وغابت الطيور، وانطفأت الحياة!

أعترفُ أنني انحزت إلى المضمر، والمسكوت عنه، والمستبطن، وإلى عالم الميثولوجيا، والأسطورة أكثر من انحيازي للظاهر العياني.. ومع ذلك لم أقدِّم سوى همهمات الرواة.. التي لم أقو على جعلها كلاماً.. وذلك لقناعتي بأن الأشجار هي الامتداد الطبيعي لجذورها البعيدة الغور،.. والاختفاء!

* * *

في سوق الخالصة..!!

يا إلهي،

أهذه.. هي السوق؟!

أم أن ما أراه هو مكان للخرافة والسحر!!

هي ذي أول مرة أذهبُ فيها إلى السوق من أجل أن أجلب زيت الدير. كنتُ قد سمعت الكثير عن السوق، عن اتساعها، وكثرة الخلق فيها، وشدة الازدحام، وكثرة البضائع. وكنتُ قد نُبهت ألا أغوص في التفاصيل كي لا أضيع أو أغوى، كي لا أُخدر بالكلام والرؤى.. فأندم! عليَّ أن أجلب الزيت للدير من عند رجل اسمه القاسمي، والجوز والزبيب من عند امرأة اسمها فرحة.. وأعود في الحال.. لكن السوق كانت دنيا من الخيال والغرابة، فما إن أوقفت العربة في مدخل السوق وربطت البغلة حتى أُصبت بدوار من الدهشة! إذ من أين لهذه السوق كل هؤلاء البشر! ومن أين لهؤلاء البشر كل هذه الأرزاق، والبضائع، والحيوانات؟! لقد خلفت ورائي مساحات كبيرة واسعة من الطبيعة الهادئة، ودخلت إلى هذه السوق الصخابة!

يا إلهي، أرشدني إلى القاسمي وسط هذا الحشد من الخلق، ثم أرشدني إلى دكان فرحة، وسط هذا العدد الهائل من الدكاكين، قبل أن تفتن روحي.. أو تذوب!

هنا، ساحات متسعة أشبه بالدوائر، تتداخل فيما بينها لتصير شارعاً طويلاً شديد الاتساع، شديد الغموض، شديد الغرابة، شارعاً يحتشد

بالبضائع، والناس، والحيوانات، والأصوات، والروائح، والأسئلة، والنداءات؛ شارعاً يميل نحو البحر، يميل، يميل، يميل.. حتى ليكاد ينقلب فيه في أية لحظة؛ شارعاً تحاذيه أبنية خشبية، وحجرية، وتنكية.. مجاورة لأشجار الخروب الكبيرة العالية التي تماشيه حتى يغيب في البعيد البعيد!

هنا، قرب هذه البيوت التنكية.. تقف أبقار كبيرة عالية ذات شقرة لامعة، وثيران عديدة تفوقها حجماً وعلواً.. جميعها مشدودة إلى حبال، والناس يمرون بقربها، ومن بينها، وهم يجيلون النظر فيها، بعضهم يربتون على ظهورها العالية، وبعضهم يهزون رؤوسهم إعجاباً بها، وبعضهم يسألون! وبعضهم الآخر يشكلون حلقة وسيعة حول ثور أسود هائل الحجم، وبقرة عالية شقراء اللون.. ثمة رجل أدخل البقرة إلى حاجز خشبي مستطيل الشكل، جعل إحدى خشباته تحتجز البقرة الشقراء من ناحية صدرها، وتشدها إليها تثبيتاً، ورجل آخر يمسح على ظهر الثور الأسود مسحاً رقيقاً ناعماً، ويدنيه من البقرة الشقراء ثم يدفعه نحوها بتحريض شديد، فيقفز الثور نحو البقرة، بقائمتيه الأماميتين وسط همهمات الخلق المحتشدين المعجبين بقدرة الثور، واستجابته لتحريض صاحبه! والبقرة مستسلمة لاندفاعات الثور المتتالية إلى أن تخور قواه! بعدئذٍ، يخرج الرجل البقرة من الصندوق الخشبي، ويسلمها لصاحبها، بعد أن يأخذ منه كمية من القمح أو الشعير أو الذرة الصفراء! ثم يقود الرجل بقرة أخرى إلى صندوقه الخشبي، ويأتي رجل آخر بثور آخر، ويُعاد الطقس مرة أخرى.. وسط أحاديث الناس المتعالية، والصاخبة.. أيضاً!

وفي البعيد، وتحت إحدى أشجار الخروب الكبيرة، تجلس مجموعة من النساء، وقد تحلّقن حول واحدة منهن، تمدّ يديها باستسلام حقيقي، فتقوم امرأة سمينة، شامرة عن ذراعيها.. بوضع الحناء في كفيها، تمسح الحناء المعجونة بالماء برفق.. حتى تغطي الكفين، ثم تطوي الأصابع داخل الكفين

وتقلبهما، فتبدو الكفان بتكورهما الصغيرين.. لحظتئذٍ تشرع المرأة السمينة بتخطيط الأصابع، وظاهر الكفين بالرسوم، ترسم نباتات وأزهاراً وطيوراً محوّمة، وبعض النجوم، ومن حولهما النساء يهزجن:

حنّيت إيديا ولا حنّيت أصابيعي

يا محلا النومة بحضين المرابيعي

شعرك قصايص ذهب بعليبة الصايغ

ربحان يا المشتري خسران يا البايع

يا هلي يا هلي يا محلا لياليكم

يا محلا النومة بفيّة علاليكم

والله لأبْكي وأبَكّي الصقر على طنابو

على غزالٍ شَرَدْ ما ودّع شبابو

يا يما يا يما شدّيلي على الفاطر

والليلة أنا عندك وبكرة من الصبح خاطر

وحين تنتهي المرأة السمينة من الرسوم على كفيّ الفتاة تمدد ذراعي الفتاة فوق ركبتيها، وتبدأ بالرسم على قدميّ الفتاة وساقيها، وما إن تنتهي حتى تعطي الإذن بالرقص، فتقوم واحدة من النساء وتسحب أم الفتاة من وسط الحشد إلى منتصف الدائرة لتبدأ بالرقصة الأولى مباركة لابنتها التي تستعد للزواج في الأسبوع القادم، تنهض الأم وترقص طويلاً حتى تتهالك راكعة أمام ابنتها، عندئذٍ.. تنحني الابنة على جبين أمها وتقبّلها وسط غناء عذب، وصيحات فرح تعلن عن اختتام طقس الحنّاء.. فتنهض الفتاة، وتنهض أمها أيضاً.. مصحوبتين بعدد من النساء، فينتحين جانباً، ويشرعن بالرقص والغناء، بينما تشرع المرأة السمينة بغسل كفيّ وقدمي فتاة جديدة من أجل مباشرة طقس الحناء مرة أخرى!

وهناك.. قرب مستنقع مائي ضحل مليء بالطحالب والأعشاب، احتشد بعض الرجال مع عجولهم؛ جاؤوا إلى رجل كهل، قوي البنية.. ليسلموه عجولهم من أجل إخصائها.. بدت العجول مستنفرة وقد استشعرت الخطر الداهم الذي ينتظرها.. فما إن يبدأ الرجل فعل الإخصاء مع أول عجل حتى تثور العجول، وتملأ المكان بالحركة، والدوران، والخوار المرّ على الرغم من أنها مشدودة بالأرسنة! حالة الإخصاء الأولى تثير الرعب، والخوف، والهيجان لدى العجول، وهي ترى واحداً منها ارتمى على الأرض وثبّت بالحبال والعصي الطويلة على الرغم من مقاومته العنيفة، وحفره الأرض بقوائمه التي يودّ لو أنها تتحول إلى أجنحة فتفرٌّ به إلى خارج حلقة الإخصاء. لكن ما إن يثبّت العِجل حتى يباعد رجلان ما بين قائمتيه الخلفيتين بقوة شديدة.. عندئذٍ يتقدم الرجل الكهل القوي نحو العجل، وبين يديه عصوان قصيران يجمعهما حبل رفيع. ينحني على العجل ويباشر عمله، وما هي إلا لحظات فقط وينتهي من إخصائه، والعجل يقاوم ويمانع ويرغي زبداً.. فلا تكون النتيجة سوى إخصاء، وألم، وسحب للعجل نحو المستنقع المائي.. فيُرمى فيه، ويُرش بالماء لكي يهدأ ويستكين! عندئذٍ ما من أحد يبتهج أكثر من القطط الجسورة التي تمر من بين الأقدام المحتشدة لالتقاط ما أفرزته عملية الإخصاء. لا، بل تبدو القطط السمينة وكأنها من جنود الرجل الكهل القوي الذي يقوم بفعل الإخصاء، فهي التي تعلن من خلال مطاردة بعضها بعضاً انتهاء طقس الإخصاء!

وهنا.. بمحاذاة البحر تماماً يمتد شريط بشري، هو خليط من نساء ورجال وأطفال، بعضهم يقومون بغسل جزّات الصوف، وبعضهم الآخر يقومون بنشرها فوق الصخور، وبعضهم يقومون بصبغها بألوان عديدة، وآخرون يجمعونها ويرتبونها في أكياس الخيش الكبيرة التي تبدو من بعيد وكأنها صف من البيوت، كما تبدو جزّات الصوف البيض المنشورة فوق الصخور أشبه بحقل من الغيوم.

.. وإلى الجوار أروقة من الكتان، وأخرى من الخيش جميعها مشرّعة، ومفتوحة، يلعب بأطرافها الهواء النشط، تحتشد في داخلها مجموعة كبيرة من النساء، والفتيات الصغيرات، وبعض الأطفال الذكور، وثمة نيران موقدة، ترمى عليها الأخشاب والعيدان بين حين وآخر لتستمر في اتقادها. عجائز يتصدرن الأروقة، وأمامهن صناديق خشبية صغيرة ملأى بالزجاجات الملأى بالألوان، وبقربها الإبر، وحجارة الشبّة، وقطع الفضة والنحاس، والكحل، واللبان، والخيطان الرفيعة، والشمع،.. عجائز يواجهن فتيات صغيرات مشدودات إلى صدور أمهاتهن، فيقمن بوشمهن على اليدين، والوجه بوساطة الإبر التي تُشوى في النار من أجل تطهيرها بين وقت وآخر. تطلي العجوز الجزء المراد وشمه من وجه الفتاة باللبان المطاطي الذي مددته بحرارة النار، ثم تطبع عليه الوشم الخاص بالمنطقة التي جاءت منها الفتاة، هذا الوشم هو الذي سيكون هوية الفتاة فيشير إلى أيّة منطقة تتبع، وإلى أيّة جماعة تنتسب؛ وشم خاص بالفقراء والبسطاء، وآخر خاص بالأغنياء والملاكين، وشم يرصد الفتاة ويبعد عنها الأذى، ويحميها من الشرور، ويحفظ عفتها في إناء الزمن. وشم يستدعي البكاء، والممانعة، والدموع، والخوف، والتردد، والحذر، والإحجام، والرعب من قبل الفتيات الصغيرات وقد رأين النار الملتهبة، والإبر الحادة اللامعة، وقد تعددت أطوالها وحجومها، كما يستدعي حنان الأمهات وصبرهن وهن يحتضن بناتهن مهدئات مقلّلات من المخاطر والخوف، إذ لا مفر من الوشم، لأن الوشم هو الرصد ضد الميلان، والعطب، والغياب. ومن عجب أن الخوف من العجوز، والنار، والإبر.. يزول تماماً مع أول نقر بالإبرة للوجه الذي طلي باللبان الطري، لا بل إن بعض الفتيات يشرعن بالصياح أنهن لا يخفن من الإبرة الناقرة، وأن عملية الوشم سهلة جداً، وغير موجعة. وما إن تنتهي العملية، حتى تقوم العجوز بشي إبرها في النار مرة أخرى وترتيبها في الصندوق، ثم تمسح وجه الفتاة التي وشمتها

بماء تدلقه من زجاجاتها فوق قطعة قماش بيضاء نظيفة، فيزول اللبان المطاطي الطري، ويبدو الجزء الموشوم على شكل خطوط من نقاط حمر لاتخلو من ورم بسيط. ثم تدفع إلى يد الفتاة كمية من نباتات خضر، وتُوصي أمها بأن تعجن جزءاً من هذه النباتات وتغطي بها مكان الوشم مدة ثلاث ليال إلى أن تصير النقاط الحمر، رويداً رويداً، نقاطاً زرقاً.

ومن خلف الأروقة، وفوق منفسح طويل من الرمال المحاذية للبحر.. ثمة خيول وفرسان يتسابقون في أدوار مصحوبةٍ بالصياح، والزغاريد، والحماسة، وآهات الإعجاب، وبالقرب منهم تحوّم طيور النوارس، تهبط وتعلو، بهدوء ودعة، وكأن ما يحدث حولها هو جزء أساسي من طقوس البحر وعاداته.

وقبل منحدر السوق، رأيت عريشة من القصب ملأى بحزم أعواد القنب الفضية اللون، وبعض أكياس الطحين، وامرأة عجوزاً تجلس وراء صاجها، وإلى يمينها طبق من القش الملوّن اصطفت عليه أقراص مثلثية الشكل ذات شقرة بادية، وإلى يسارها أوان نحاسية فيها جبنة القريش، والزعتر الأخضر المغمور بالزيت، والسبانخ المدقوقة بفتائل البصل، وبمحاذاتها صبية كأنها ابنتها تساعدها على رق العجين والمناولة؛ وفوق الصاج تناثرت الأقراص المثلثية التي بدت وكأنها رغيف واحد، وتحت الصاج ألسنة اللهب بين مد وانحسار، وطفل في العاشرة من عمره تقريباً، يدفع إليها بعض أعواد القنب بين حين وآخر، وصوت المرأة ينادي فيما يشبه الغناء:

- «القريش، الزعتر، السبانخ»!

في أول الأمر حسبت أن المرأة جنّدت أسرتها في العمل من أجل بيع الأقراص في يوم السوق، لكنني حين راقبتها عرفت أنها تخبز الأقراص لتوزعها على الناس من دون مقابل.. فقد رأيت في المقدمة صبية صغيرةً ترفع بين يديها طبقاً من القش رتّبت عليه الأقراص المثلثية، وراحت توزعها

على المارة وهي تبتسم ابتسامة تشبه طيور الحجل وهـي تحط علـى الأرض. اقتربت من الفتاة الصغيرة وأخذت منها قرصة واحدة، وسألتها لماذا توزع الأقراص، فقالت:

- «إنها خبز المزار»!

واستدارتْ عني إلى آخرين، ومضيتُ من أمامها، وقد تبعني عشرات المارة، وفي أيديهم الأقراص المثلثية الشبيهة بالنجوم!

وعلى مبعدة من المرأة رأيتُ ساحة خشبية يحيط بها رجال ونساء وأطفال مثل السياج، وثمة هرج، وصياح، وكلمات تشجيع تصدر عنها، دنوت من الساحة الخشبية، ونفذت إليها مباشرة، فرأيت عدداً من الديوك العجيبة الأشكال، بعضها بين يدي بعض الرجال والنساء، وبعضها الآخر يدور بلا معنى داخل أقفاص من الشبك المعدني. كانت الساحة الخشبية خالية مما يشغلها، وفي طرفيها المتقابلين، الشمالي والجنوبي، فريقان، كل منهما مؤلف من رجل وامرأة وديك. في البداية لم أعرف لماذا يحتشد الناس، وقد رأيت الساحة الخشبية فارغة، كما لم أعرف سبب وجود الديوك الطليقة بين أيدي الرجال والنساء، والديوك الحائرة داخل الأقفاص. لذلك سألت من هم حولي عن الساحة، والديوك، فقالوا لي:

- «إنها ساحة صراع الديكة»!

اجتذبتني الساحة، تماماً مثلما اجتذبتني الديوك. فقد رأيت النساء يدهن ريش الديوك بالزبدة، فيلمع ريشها ويزهو، كما رأيتهن يفتحن مناقير الديوك ويدفعن فيها بعض قطع اللوز المدقوق والمغموس بالعسل، وبعض حبيبات البهار، وما إن يتركن الديوك، حتى تتحرك بخيلاء عجيبة، ويقرع جرس نحاسي، فيبادر الرجل إلى أخذ الديك إلى حضنه، ويفتح منقاره، فتدلق المرأة شراباً أحمر إلى داخل جوف الديك، فينتفض الديك، وكأن الشراب ماء نار ليس إلا، فيطلق الرجل الديك من يده ويدفعه إلى وسط

الساحة، ليقابل الديك الآخر الذي أطلقه صاحبه ودفعه إلى وسط الساحة أيضاً. في اللحظة الأولى بدا الديكان وكأنهما في حالة غيبوبة، يتقافز كل منهما في مكانه دون أن يعي ما حوله، لكأنه مشغول بجسده وما طرأ عليه. أنتهز الفرصة فأتقدم من المرأة التي دلقت الشراب الأحمر إلى جوف الديك، لأسألها عن الشراب، فتقول لي، إنه شراب الفليفلة الحادة المنقوع منذ أسبوع! فأردد مثلها «شراب الفليفلة الحادة»! وأنا أنظر إلى الديكين اللذين ما إن يتلامسا.. حتى يعود إليهما انتباههما.. فيتشابكان في نقر، وطيران، وتحويم، وجولان، وتربص، وحذر، ومناورة.. إلى أن ترجح كفة أحدهما على الآخر..

فيقرع الجرس النحاسي مرة أخرى استجابة لطلب أحد الرجلين الذي أراد وقف الاشتباك بين الديكين لكي يعيد تأهيل ديكه مرة أخرى. يأخذ الرجل الديك ويثبته بين يديه، ويدنيه من المرأة التي تقوم بتدليك جسد الديك بمنقوع الفليفلة الحادة، ثم تدلق شيئاً من الشراب في منقار الديك الذي يهيج.. فيتنافش ريشه بين يدي صاحبه.. الذي يعيده إلى الساحة الخشبية فيشتبك مع الديك الآخر في صراع عجيب.. يسيل خلاله الدم، ويتطاير الريش، وتتعدد مرات السقوط والظفر.. ولا ينتهي الصراع بين الديكين إلاّ عندما يستسلم أحد الرجلين فيعلن انسحابه، وخسارته للمباراة والرهان!

طقس عجيب، رأيت فيه الرجال يستبدلون الديوك القوية بالديوك الضعيفة، ويدللونها بالأطعمة الغالية والنادرة، والأشربة الحادة المهيجة!

وإلى غير بعيد من هذه الساحة رأيت رجلاً بديناً يجلس وراء طبق نحاسي واسع تستدير حوله قناة مائية على شكل دائرة، وفي وسط الطبق.. ديك لا يقف على حال؛ ديك يقفز، ويمشي، ويدور، كأنه يؤدي رقصات تعلمها وأجادها بالمران والغريزة، والرجل البدين يدور حول الطبق والساقية المائية المستديرة والديك.. أراه يرقص رقصة الحجلة على قدم واحدة وهو يصفق ويهزج.

والناس يرمون بعض النقود المعدنية فوق الطبق النحاسي..!! عجبت من الرجل، ومن الديك معاً، فالرجل، لابدّ من أنه درّب الديك تدريباً قاسياً حتى صار على هذه البراعة من الرقص المدهش، والديك لابدّ من أنه يملك طاقات هائلة من الغريزة المطواعة.. التي جعلته على هذا النحو من الاستجابة الفطرية! لكن يا للغرابة فقد سمعت وأنا أغادر حلقة الناس الملتفة حول الطبق النحاسي أن الرجل أوقد ناراً تحت الطبق النحاسي حتى أصبح ساخناً جداً، لذلك فإن الديك ما إن يدفع إلى وسط الطبق حتى يشرع بالقفز، والدوران، والركض.. هذه الحركات التي تبدو وكأنها رقص مدروس.. اتفق عليه الاثنان: الرجل والديك. ومع ذلك فإن الديك يأتي دائماً بحركات راقصة مختلفة عن حركاته الراقصة السابقة.. وهذا ما يجعل الناس منتظرين لمفاجآته الجديدة.

في منحدر السوق تصبح أشجار الخروب أكثر كثافة وحجماً وعلواً؛ أشجار ملأى بقرون الخروب السود، والطيور الكبيرة والصغيرة، والزقزقات المتداخلة كعرائش العنب، أشجار لها ظلالها الواسعة التي يفترشها الحلاقون، والحجامون، والأطباء الشعبيون، والدراويش، والعابرون، والمجانين، وبائعو الأشربة، والغرباء، وإلى البعيد تقف قطعان من الأغنام والماعز، والحمير، والبغال، والخيول، والأبقار، والجواميس، والجمال. كما تصطف بمحاذاة الجدران صناديق مملوءة بالأرانب، والطيور، والدجاج، والبط، والأوز، وديوك الحبش، وأكوام من الصوف الأبيض، والمصبوغ، وبالجوار بيادر من الزيتون، والثوم، والبصل، وجرار صغيرة وكبيرة تتآخى وتتعانق مثل عيدان القصب، وأباريق، وطاسات، وأوان فخارية تعلو مساحة كبيرة مغطاة بالحصر، والبسط، وقطع الكتّان، واللباد، والخيش. وقرب العتبات الحجرية تمتد مصاطب خشبية واسعة ملأى بأنواع لا حصر لها من الأسماك الكبيرة والصغيرة المتعددة الألوان. وعلى اليمين والشمال تتوازع

المكـان براميـل وعلـب صـفيح وجـرار مـلأى بالأجبـان، والألبـان، والـسمن، والقـشدة، والزبـدة، والعـسل، والزيـت، والـدبس، والقـريش، وأمـام الـدكاكين الواطئة السقوف تبدو الأكياس الملأى بالحبوب، والقهوة، والشاي، والنباتات المجففـة، والكلـس، والملـح، والزعفـران، والبهـار، والفليفلـة اليابسة، والقرفـة، وعيـدان البخـور، والزنجبيـل، والـسكر، والتمـر، والـتين المجفـف.. وقـد تـدلت فوقها حزم الحبال، والفؤوس، والمذاري، والشواعيب، وخراطيم المياه، وقطع الجلد، والقفف الكاوتشوكية، والدلاء التنكيـة، والأحذيـة المطاطيـة،.. وأمامهـا تتجـاور صـناديق خـشبية مـلأى بالبرتقـال، والرمـان، والكريفـون، والتفـاح، والخـضار، والعنـب، والبـيض. وحولهـا تتـأرجح قـرطبيلات المـوز وتهتـز. ثمـة رجال ونساء يكنسون عتبات الدكاكين ويرشونها برذاذ الماء بين حين وآخر، وهم يجيلون النظر في العابرين حيناً، وفي رجلين، أحدهما: يعزف على ناي، فيراقص أفاعيه التي راحت تخرج واحدة واحدة من سلاله العديدة، ورجل آخر يلاعب قروده الكثيرة المشدودة إلى سلاسله المعدنية الرفيعة المجموعة إلى ذراعه.. حيناً آخر، أنفر من المشهد لقناعتي بأن الأفاعي والقرود أسرى لرجلين ظالمين. أمشي فتمشي معي الدكاكين الخشبية، والتنكية، والحجرية كما تمشي الأشجار أيضاً وتحاذيني، ولم أفطن لوجودي في السوق إلا عندما وجدت نفسي في مواجهة العربة التي أوقفتها قبل ساعات، والبغلة التي ربطتها إلى جذع شجرة الخروب. لعلّ الغريزة وحدها هي التي قادتني إلى العربة والبغلة مرة ثانية، أو لعلّ دعوة سيدي في الدير هي التي أعادتني إلى هنا، فأعادت ذاكرتي إليَّ، وجعلتني أتخلص من فتنة السوق العجيبة، فسألت عن القاسمي فأرشدوني إليه. رجل عجوز، محني الظهر، له عينان تشعّان كأنهما سراجان. أخذت جرار الزيت من عنده، ثم أرسل معي صبياً من صبيانه أرشدني إلى دكان فرحة، التي وجدتها تبكي بعدما خمّنت أنني جئت إلى السوق وأخذت الجوز والزبيب للدير من عند غيرها.. تبكي لأنها ظنّت

أن ما وهبته من جوز وزبيب للدير في هذا العام لم يلتفت إليه، وصارحتني أنها أحسّت بأن النهار ليس لها.. بعدما تأخرتُ في المجيء إليها. كانت تبكي لظنها أن فرصتها في خدمة الدير ونيل بركته.. قد ولّت. لذلك ما إن رأتني حتى نفرت إليَّ مثل طير جافل، راحت تمسح على ردائي، وتسألني إن كنت قد جئت إليها من أجل الزبيب والجوز، فأخبرتها أنني جئت لهذا الغرض تماماً، ففرحت بجنون، وازداد بكاؤها.. وأنا أسمعها تردد:

- «نهاري يعود إليَّ، نهاري يعود»!

أخذت من عندها الجوز والزبيب، وعدت إلى الدير مخلفاً ورائي السوق العجيبة، والصخب العميم، واختلاط الرغبات، والأهواء، والأسئلة والأجوبة، والنظرات الحائرة.

حين وصلتُ إلى الدير، اكتشفت أنني سببت القلق والخوف للإخوة في الدير، فقد رأيتهم مجتمعين أمام بوابة الدير يترقبون وصولي. بلى، لقد تأخرت كثيراً، أعرف ذلك، فها هي الشمس تغيب أو تكاد، ومن حقهم أن يقلقوا عليَّ لذلك هممت بالاعتذار لهم قبل أن يسألوني. لكن يا للعجب لم تكن لديهم أسئلة، ولم تكن لديَّ أجوبة، فقط ربّت سيد الدير على كتفي.. فهززت رأسي مرات عدة، وحين تمتم بهمس:

- «السوق»!

قلت بهمس:

- «السوق»!

ودخلنا مصحوبين بضجة الوصول. وأمام مستودع الدير، أوقفت البغلة، فتوقفت العربة، وشرعت بإنزال حمولتها..، حين انتهيتُ كانت العتمة مطبقة.. لا شيء ينيرها هنا سوى الشموع، والأيقونات، والصلوات الهامسة، ودموع فرحة التي تشع كالوميض!

هامش أول:

لم يذهب غطاس، وكيل الدير الجديد، إلى قرية الخالصة من قبل. كان قد جاء إلى الدير المطلّ على قرية الشماصنة بديلاً عن الوكيل حنا الذي فرَّ من الدير ليلاً مخافة أن يقع في الغواية بعد أن اكتشف أن الرهبان في الدير راهبات، على الرغم من حرصه الشديد على عزلته، وعدم المخالطة المباشرة. أحسّ أن مواجهة الغواية خاسرة، وأن مقارعتها لا جدوى من ورائها قط، وأن الفرار هو الغنيمة.. وحسب!

مضى حنا ليلاً تاركاً كلمتين مكتوبتين في صدر صفحة بيضاء، تقولان: (خفت الغواية)!

قرأتها الراهبات.. فبكين بكاءً مراً، وقد أحسسن أن سرهن انكشف!

جاء غطاس إلى الدير، وهو لا يعرف أن الرهبان راهبات، تماماً مثلما كان حنا لا يعرف أيضاً. شاب متوسط الطول، في العشرينات من عمره، بشرة بيضاء، وشعر طويل، ولحية خفيفة ناعمة، تُبدي عروق الوجه ونعومته، له عينان صغيرتان أشبه بالخرز.. عرف واجباته داخل الدير، فراح يقضي نهاره في العمل.. ينظف الغرف، ويرتب المؤن في المستودع، ويحطب في الغابة، وينتشل المياه، ويعتني ببغلة الدير، ويعد الزيت والطعام.. وحين يجيء الليل يوقد المشاعل، والشموع، ويعد الجوز والزبيب، ويغلق الأبواب، ويتفقد طعام البغلة وشرابها، ثم يصلي.. وينام!

كان قد عاش منذ صغره في أديرة عديدة، تربّى يتيماً، فأحسّ مبكراً أن الرهبان هم أهله، وأن الدير هو خلاصه، وأن مسرته الأزلية كامنة في خدمة الآخرين.. ومحبتهم!

الحاشية الأولى

في السوق واقفت رجلاً بيطرياً يحذي الخيول، ورحتُ أراقب عمله. كان يلبس صدرية جلدية طويلة، تخفي بطنه الكبيرة جداً، حين رآني أواقفه.. صرخ بي لماذا تقف هكذا من دون عمل؟! قلت: إنني أنظر إليك! قال: أهذا عمل؟! اقترب وساعدني! فاقتربت منه، ورحت أشد قوائم الخيول إلى صدري فيباشر هو حذيها. يقصُّ شيئاً من حوافرها، ويلصق الحذوات عليها، ثم يثبتها بالمسامير. لا أدري كم مضى عليَّ من وقت وأنا أساعد الرجل الذي لم يقل لي حرفاً واحداً. بدوت للآخرين وكأنني المساعد الدائم للرجل، وما إن انتهى الرجل من حذي الخيول.. حتى قال لي وهو يشير إلى ركن في دكانه:

- «الآن، اصنع لنا شاياً»!

فصنعت. ولكأن الشاي أعجبه، فسألني عن اسمي، وعن مكان سكني. وناولني بعض القطع النقدية لقاء تعبي، وقال بثقة:

- «في الأسبوع القادم، في مثل هذا اليوم، تعال إليَّ..»!

فأبعدتُ يده الملأى بقطع النقود نحوه بلطف شديد، ونهضتُ مبتعداً، تاركاً الرجل في حالة استغراب ودهشة!

الحاشية الثانية

قرب نبعة السوق، جلستُ وغسلت يدي ووجهي وقدميّ، ومسحت على شعري، واسترحت قليلاً. كان في مرمى نظري رجل يقف وراء صناديق خشبية يصفر وينظر إليها فتخرج منها أسراب هائلة من النحل الذهبي اللون، تطير في الهواء محوّمة على شكل دوائر فوق رأسه تماماً، بينما هو يشرع بفتح الصناديق واحداً واحداً، ويري الناس الذين تجاسروا على الاقتراب منه.. أقراص العسل الشمعية، وحين يشير بعض الناس إلى الأقراص يقتطع بعضها ويعطيها لهم، وأسراب النحل تحوّم فوق رأس الرجل في دوائر ذهبية مدهشة، وما إن ينفض الناس من حوله، وقد أخذ بعضهم بعضَ الأقراص، يعود الرجل

فيصفر مرة ثانية، فتدخل أسراب النحل إلى الصناديق من فتحات صغيرة تباعاً وكأنها شرارات ضوء.. إلى أن تنتهي، عندئذٍ يغطي الرجل الصناديق واحداً واحداً، ويشرع في لعق أصابع يديه، ويمضي!

الحاشية الثالثة

لفت انتباهي رجل ناحل، ممصوص الوجه، ذو شعر طويل، ولحية كثة. يشدٌّ إلى ظهره صندوقاً خشبياً كبيراً، يمشي في السوق أشبه بالدائخ الذي يوشك على السقوط وهو يهمهم ويتمتم بكلمات أشبه بالأنين، والناس يقتربون منه، يرمون في صندوقه قطع النقود، والأطعمة، وقطع القماش، والفواكه، والزبيب، والجوز، والأوراق، وعيدان البخور، والشموع، والصابون، والأواني، والملاعق، والسكاكين، والكتب، وأقراص العسل، والخبز، وصرر القرفة، والنعناع، والزنجبيل، والملح، والسكر،..

كان الناس يتسابقون نحو صندوق الرجل قبل أن يمتلئ، وقبل أن تفوتهم فرصة العطاء، والرجل يمشي الهوينا غير عابئ بأحد. بدا مثل قارب صغير يمخر عباب السوق ببطء شديد!! ولم تمر سوى لحظات فقط حتى امتلأ صندوق الرجل، فشرع الناس يشكّون عطاياهم شكاً في أطراف الصندوق الذي راحت حوافه تمتدّ وتستطيل لتكوّن له ذيلاً غريباً أشبه بذيول ديوك الحبش حين تهيج!

ولم أسأل عن الرجل لأن كلمة (المبروك) التي سمعتها تخرج همساً من الأفواه كانت وافية التعريف!

تذييل أول

رأيت فرحة منفوخة الوجه. عيناها حمراوان. كانت تبكي قبل أن أصل إليها بلا شك. بدت حزينة جداً، مهدودة تماماً. رأيتها تلتقط دموعها خفية عني، وهي تنحني فوق أكياس الزبيب والجوز، كي لا أراها، وحين ترفع ظهرها لا تواجهني، سمعتها تقول لي:

- «قل لسيدنا أن يدعو لي.

التهمتني الحياة، ويحيى لم يعد!

قل له، فرحة تسألك، كم هو عمر الانتظار»؟!

وأهزُّ لها رأسي، فتناولني ملء كفيّ زبيباً، ثم تملأهما أيضاً جوزاً، وتهمس:

- «أعرف أنك لن تفتح كيساً لتذوق الزبيب أو الجوز، هذه لك، زوادتك في الطريق»!

فأبتسم لها، وعيناي تترامشان باضطراب من دون وعي مني!

تذييل ثانٍ

لم أدر، بالضبط، من رمى الحشائش أمام البغلة لتأكل، ومن نظّف خشب العربة ودواليبها، ومن فرشها بالتبن الناعم، ومن غسل البغلة وغطّاها بقطعة القماش السميكة هذه، ومن حذا قوائمها، ومن جدد رسنها، ومن ملأ مقدمة العربة بالخبز، والبخور، والشموع!

كما لم أدر، بالضبط، من علق هذه الأغطية، والحصر، والمفارش المطوية، وشدّها إلى جوانب العربة، ومن علّق هذه الأباريق والأواني النحاسية، والمجارف، والفؤوس، والعصي.. حتى كادت العربة لا تبين!

بل لا أدري من أين جاءت هذه البراميل، ومن ملأها بالطحين، والسمسم، وحبة البركة السوداء، والذرة، والفول، والحُلبة، والكرسنة، والجلبانة، والكتان!! يا إلهي.. ماذا أرى؟!

تذييل ثالث

بكى القاسمي، وقد رأى العربة مملوءة بجرار الزيت، بكى وانتحب، وهو يهمهم ويقلّب كفيه:

«إنه قليل»!

* * *

ربيحــة ..!!

لم يعرف غطاس أبداً إلى أي أسرة ينتمي سوى أسرة الميتم أولاً، ثم أسرة الدير ثانياً. لقد تربّى وعاش في الميتم وسط أشجار الصفصاف، والتوت، والسرو، والزيتون. تفتحت عيناه فوجد العديد من الأخوة الصغار يحيطون به. تبادل وإياهم أول النظرات الغريبة السائلة، ثم تبادل وإياهم أول الكلمات، وأول المقاطع، وأول حلقات اللعب، والدراسة، وأول المشاجرات، وأول أشكال التملك والحيازة.

كانت الراهبات أمهات للجميع، لذلك لم تكن ترنُّ في الميتم كلمة أكثر من كلمة.. أمي! لا بل إن الراهبات أنفسهن لا يعرفن الكثير عن أبنائهن في الميتم. كانت المعلومات نادرة، ومتفرقة، وعائمة، وغير ضرورية. كانت مهمتهن مقسومة إلى قسمين: رعاية الأطفال، ومحبتهم من دون أسئلة أو بحث عن الجذور والأسباب التي أوصلتهم إلى الميتم!

من تلك المعلومات القليلة جداً، قول إحدى الراهبات المتقدمات في السن إن امرأة جميلة، اسمها ربيحة، ذات طول فارع، ووجه صاف أبيض مشرّب بحمرة الرمان، وشعر أسود كالكحل، يميل جسدها إلى النحولة، لها غمازة في خدها، وشامة قرب حاجبها الأيمن.. هي التي جاءت إلى الميتم فجراً، ومعها طفل صغير، ملفوف بقماطه الأبيض؛ طفل عمره أيام فقط، دفعته إلى الميتم، بعد أن قالت إنها وجدته عند عتبة بيتها ليلاً، وقد نبهها إليه بكاؤه الشديد، وأنها أنقذته من البرد، والقطط، والكلاب الضالة. ولم تأت به ليلاً إلى الميتم

دفعاً للشبهة، وقد انتظرت الصباح، فجاءت به مبكرة إلى الميتم. بدت المرأة الطويلة.. قوية، واضحة النبرة، شديدة الثقة بنفسها، دفعت الطفل إلى حضن إحدى الراهبات، كما دفعت مبلغاً كبيراً من المال، وقالت:

- «أرجو أن تقبلوني أمّاً له.

سآتي إليه كلما سمحت ظروفي.. لأراه»!

فجأة، وقبل أن تستدير، خارت قوة المرأة دفعةً واحدة، وقد رأت الطفل يتحرك وينتفض ويبكي، وقد صار بين يدي إحدى الراهبات، فتهاوت على المقعد الخشبي كجدار يسقط بغتةً. واستغرقها بكاء مر طويل، لم تنته منه إلا عندما أحستّ بأنه من غير المناسب أن تتكشف أمام الراهبات تماماً، ومن المرة الأولى! وحين تمالكت نفسها، وقفت، وقالت للراهبات:

- «أرجو المعذرة، لقد بكيت نيابة عن أمه»!

واستدارت بحذر، ثم التفتت إلى الراهبات، وقالت:

- «أنا اسمي ربيحة، إذا كان من حقي أن أسميه،

فليكن اسمه غطاس»!

فهزّت الراهباتُ رؤوسهن بالموافقة، وخرجت المرأة تجرُّ خطوها جراً.. لكأنها تسحب وراءها غابةً من الأشجار المقطوعة!

استدراك

لم تدرِ ربيحة، كيف قويت على الخروج من الميتم، وقد تركت غطاس فيه. كيف لم تبقها الراهبات إلى جوار غطاس، وقد فضحتها دموعها، كيف لم يصرخ بها غطاس، ويناديها: أمي. أمي! وكيف لم يحتجزها الميتم، كيف لم تأخذها حيطانه إليه، ولماذا استسلمت عتباته لخطواتها العاثرة.. فجعلتها تغادر الميتم دون أن تشدها إلى بوابة الميتم لتكون حارسةً لها، أو خادمة.. فقط لكي تبقى قريبة من غطاس، كيف لم تتحول إلى حجر يضاف إلى حجارة الميتم..؟!

إنهـا، الآن، تتـذكر جيـداً، وهـي تمـشي في دربهـا الطويـل الـوعر، بـين أشـجار الـدلب، والـسنديان، والبلـوط، عائـدة إلـى قريتهـا (المـرج).. القـصةَ كاملةً، والحزنَ كاملاً، والخوفَ كاملاً.. أيضاً!

لم تدر كيف طاوعت أمها فذهبت معها إلى زيارة خالتها المتزوجة في قريـة أخـرى اسـمها (العفيلـة). كانـت مثـل طيـر القطـا بيضاء، رشـيقة، لهـا عينـان تـشعان سـحراً، وغمـازة تأخـذ مـن القلـب غـصة، وطـول أشـبه بنباتـات الحلفا، تميس مثل عيدان القصب، وجهها دنيـا مـن حبيبـات النـدى، والجسد حفنة من نـداءات آسـرة. كانت خالتها (رئيفة) وحيدة، ومريضة، لا أولاد لهـا ولا سـند سـوى زوجهـا العجـوز. لـذلك حـين عـادت أمهـا إلـى (المـرج) عـادت وحيـدة تاركـة إياهـا عنـد خالتهـا لتخـدمها في أيـام شـدتها، لعـل فـورة جـسد الشباب وحيويته تشيعان روحاً جديدة في جسد الخالة المتعبة!

هنـاك في قريـة (العفيلـة)، وبعـد شـهور قليلـة مـن وجودهـا إلـى جـوار الخالـة رئيفـة، تعرفـت إلـى العديـد مـن بنـات القريـة، لكنهـا لـم تـنشد إلا إلـى واحدة منهن اسـمها (رشـيدة)، كانـت وحيـدة والـديها، تعارفتـا سـريعاً، فأحبـت كل منهمـا الأخـرى، وانـشدّت إليهـا، حتـى باتـت الواحـدة منهمـا تخـاف علـى الثانية أكثر مما تخاف على نفسها، ولم يكن أي شـيء تخافـه الفتاتـان سـوى لحظة الفراق التي جاءت فعلاً حين شفيت الخالة رئيفة، فأقامت حفلة بهذه المناسـبة، دعـت إليهـا أختهـا التـي أقامـت عنـدها يـومين أو ثلاثـة، ثم عـادت ومعها ابنتها ربيحة.. على الرغم من تمسك الخالـة رئيفـة بهـا لأنهـا اعتبرتهـا هـي الـسبب المباشـر في اسـتعادتها لعافيتهـا، فقـد كانـت مثـل ابنتهـا طاعـة، وحنانـاً، وقبـولاً، ولهفـةً. ترجّـت أختهـا طـويلاً أن تبقـي ربيحـة عنـدها أيامـاً أخرى، إلا أن أختها تذرعت بمخاوف زوجها على ابنتهـا، فاستسلمت الخالـة رئيفة لرأي أختها ورضيت مرغمـة برحيل ربيحـة وابتعادهـا عنهـا. تمامـاً كمـا رضيت رشيدة بذلك.. فاستسلمت لمشيئة القدر، ولوعة الفراق!

لكن لم تمض سوى شهور قليلة، حتى عادت ربيحة إلى بيت خالتها في (العفيلة) حين عاودها المرض مرة ثانية، وعلى نحو أشد من المرة الأولى. عادت مع أهلها لزيارة الخالة. بقيت هي عندها، وعاد أهلها إلى قرية (المرج) بعد أيام، وفي الطريق انقلبت بهم العربة الخشبية في أحد مزالق الطريق، وسقطت في (وادي الموت)، فقضوا جميعاً مع سائق العربة، وبذلك صارت ربيحة وحيدة. لا أحد لها سوى خالتها رئيفة التي ساءت حالتها كثيراً وهي ترى ربيحة باكية دامعة طوال الوقت. كانت ربيحة قد عادت إلى بيت خالتها، وفي قلبها جمرة الحب التي اكتوت بها بعدما انشدت روحها وضجت ب - (دعموش) الذي فتن بها، فبصّرها بجمالها الأنثوي الساحر، دعموش الذي اكتشفت معه وبسببه جمال أصابعها، وطول عنقها، وسواد شعرها، وحلاوة ابتسامتها، وبحة صوتها، ورشاقة خطوها، ورجفة شفتيها، دعموش الذي أحسته كائناً مشتقاً من الغابة جمالاً، وعذوبة، ولطفاً؛ كائناً راح يمشي في دمها، يركض في الهواء الذي تتنفسه؛ كائناً أشبه بالنهر، يجري لكي تصير شجراً يظلله، ودفقاً يعطيها أبدية الحياة، وصفاءها!

عادت، وطيّ قلبها لوعة الحب والفراق، فقد ذهب دعموش أخيراً، بعد طول ممانعة وتردد، ذهب إلى عالم المناجم في الصحراء ليعمل هناك من أجل بناء الحياة القادمة، ومن أجل أن يعلو في نظر والديه.

ربيحة تتذكر الآن، الليلة الأخيرة من وجوده في القرية، قال لها:

- «من حقي أن أراك ساعةً أو أقل..

قبل أن أذهب»!

فاستجابت إليه، على الرغم من أنها تكره الوداع وتخافه، إذْ ما كان لها من خيار سوى أن توافقه، وأن تقابله، قبل أن تنشق روحها مثل كتاب.

واعدها قرب طاحونة هايل العبد حالما تغرب الشمس. وحلف لها الأيمان الغليظة بأنه لن يؤخر عودتها إلى البيت، فقط سيواقفها، ويحدثها، ويشمها، ويعاهدها على الحب الأبدي، فوافقت ربيحة. كانت مقتنعة أن دعموش بحاجة لمثل هذا اللقاء، وأنه لا يقوى على إيذائها، أو الإساءة إليها، فهو مخلوق علوق بالشجر، مخلوق نباتي، رهيف وحيي، مخلوق مصاب بفتنة العطش الأبدي، يرتوي من الكلام، والظلال، والأنفاس الدافئة. دعموش الذي يذوب فيها قبل أن تذوب فيه!

ربيحة، الآن، تدري أن تلك الليلة، كانت ليلة غيوم، وأمطار، وخدر، لقد تخدّر الاثنان، فأصابهما المطر، وتحولا إلى غيمة واحدة!

ربيحة، تدرك الآن، أن تلك الليلة صارت ندبة لا تمحى في روحها، ندبة تولّد الخوف، والحزن، والوجع، والألم. فقد غادر دعموش القرية إلى المناجم، ولم يعد.. تاركاً ربيحة تتدبر مخاوف ندبة تلك الليلة الموجعة.. بالتواري، والحذر، والعزلة المطلقة!

لقد توارت عند خالتها رئيفة شهوراً عدة؛ خالتها التي فقدت بصرها فجأة بعدما تضاعف مرضها، فلم تعرف سرها؛ الوحيدة التي عرفت سرها كانت رشيدة التي قاسمتها الانتظار المرّ، والخوف الوحشي، والحذر الشبيه بحذر الطيور؛ رشيدة التي عاشت محنتها فلازمتها حتى اللحظات الأخيرة؛ رشيدة التي رافقتها إلى الميتم، وانتظرتها في الخارج.. ريثما تُودع طفلها فيه.. وتعود!

ها هي الآن، تعود منكسرة، مهزومة، وقد صارت حياتها حزناً، وانتظاراً، وبكاءً، وخوفاً من سطوة الأيام!

الآن، لا دعموش، ولا غطاس، ولا أهل.. ما من أحد لها سوى رشيدة.. تلوذ بها قبل أن تسقط في الدرب، قبل أن تنطفئ أو تذوب..!!

الحاشية الأولى

جاءت ربيحة إلى الدير. لم تقصدني بالضبط. كانت تبحث بنظراتها عن أحد في الدير.. لتعترف له. بدت لي أشبه بالبطة، مشيتها لا تخلو من البطء والميلان، منكمشة.. لا شيء فيها مستنفرٌ سوى عينيها، وأصابعها التي راحت تطوي بعضها بعضاً. كنت أقرأُ عن حياة سيدي توما، عن صومه الطويل، وعزلته في القراءة، والشرح، والتأويل. وحين رأيتها تتعثر في مشيتها، أطبقت الكتاب على إصبعي، ونظرتُ إليها كي أنقذها من حيرتها البادية. فنظرتْ إليَّ، وانكمشت على نفسها مثل قنفذ استشعر الخطر. فنهضتُ، وتقدمتُ نحوها، وأنا أبتسم، فاندفعتْ نحوي، وقالت بحياء:

- «أبي..»!

فأخذتها من يدها، وقد كادت ترتمي في صدري.. ومشيتُ بها في الممر، وأنا أنظر إليها بحنو ومودة، فأحست بخوفي عليها، وقالت:

- «إنني لا أقوى على المشي،

دعني أجلس، أرجوك»!

فاقتدتها إلى مقعد طويل، جلستْ، وجلستُ. رأيت رأسها مدلّى على صدرها، مثقلاً بما يحمل، فربّتُ على كتفيها، وهززتها، فارتعشت مثل شجرة تغادرها عصافيرها فجأة. قالت:

- «دعني أعترف، يا سيدي»!

قلت:

- «ارتاحي قليلاً، الآن،

ثم تعالي إليَّ.. سأنتظرك هناك»!

وأشرت بيدي إلى المكان، واستدرتُ مبتعداً عنها، وقد رأيت دموعها تتساقط مثل حبات المطر. مشيت خطوات ثم التفتُ إليها، فرأيتها تنهض

وتتبعني، وما إن دخلت إلى حجرة الاعتراف حتى رأيتها تواجهني واقفة بطولها الفارع، فأومأت إليها أن تجلس على الكرسي، فهمهمتْ:

- «أنا.. لا أستحق الجلوس»!

بدت متعبة، مرهقة، مصفرة اللون، لا شيء في صوتها سوى رنّة الألم.. أومأت إليها ثانية أن تجلس، فجلست راكعة، وناولتها قطعة من خبز الدير، وأدنيت منها فخارة ملأى بالشراب، وطلبت منها أن تقضم لقمة من خبز الدير، وأن تذوبها بالشراب، ثم تشرع بالاعتراف، قالت:

- «إنني لا أقوى على البلع»!

قلتُ:

- «حاولي..»!

فحاولت. رأيت شفتيها المتيبستين، وزوغان عينيها، ورعشة أصابعها. بدت غير قادرة على فتح فمها، فقلت مشجعاً:

- «حاولي..»!

فحاولت. امتصّتْ شيئاً من شراب الفخارة. واقتطعت جزءاً من الخبز. وراحت تتلمظ. ودنوت منها، مسحتُ على شعرها، وربتُّ على كتفيها، وأطفأت دموعها، فمالت على يديَّ وقبّلتهما باندفاع وانفعال، وأحسستُ أنها تمرغ وجهها بيديَّ لا تقبلهما وحسب. وطلبت منها أن تتحدث، أن تريح جسدها بالكلام، أن تقلد أمنا السماء، أن تفرغ غيومها من المطر.. كي ترتاح. وأخبرتها أنها قامت بالخطوة الأولى؛ بالخطوة المهمة.. وما عليها الآن إلا أن تعترف؛ أن تقول ما تقدر عليه، وإن لم تستطع الآن فلتأتِ في مرة أخرى، وسأكون بانتظارها؛ فنهضتْ! وكأنها تنتظر مني مثل هذا الكلام.. لتعود، أو لتفلت نفسها من الاعتراف، فاستدرتُ مبتعداً عنها مفسحاً المجال لها كي تتحرر من ضغط الكلام، وسطوة المواجهة! عدتُ إلى كرسيي المقابل

لها، وقد ظننت أنها خرجت. لكنني ما إن جلست حتى رأيتها تنظر إليَّ، وتجلس راكعة ﻓﻲ مكانها وقد لفّت صدرها بذراعيها، وغطت رأسها بمنديلها الطويل، واستعدت للاعتراف!

الحاشية الثانية

ها هي تعود.. للمرة الثانية إلى الدير.

لم أكن موجوداً حين جاءت، فجلست تنتظرني. كنت ﻓﻲ قرية الشماصنة. مررت بالبيوت، وحادثت الناس، وتفقدت بعض الأسر، وبعض المرضى.. ثم عدتُ، وما إن دخلت حتى هبت لملاقاتي، فسررت برؤيتها. بدت أكثر شحوباً من المرة الأولى، وأكثر نحولة، وأكثر لجلجة وارتباكاً. فأخذتها إلى المقعد الخشبي الطويل، وجلسنا معاً مقابل إحدى الأيقونات، وسألتها عن حالها، فقالت:

- «أعرف أنك متعب، لكن لدي ما أقوله لك.. فاعذرني»!

فابتسمتُ لها، وشجعتها على الكلام. لكنها أشارت إلى مكان الاعتراف، وقالت:

- «هناك..»!

فهززت رأسي لها، ووافقتها! مشينا معاً نحو الباب والكرسي، أجلستها، وأعطيتها المناولة، وغبت عنها لحظات، ثم واجهتها، فقالت:

- «ذهبتُ إلى دعموش ﻓﻲ المناجم، فاجأته بحضوري، فطار جنوناً، فرح بي كثيراً، وأخذني إلى صدره، وغمرني بأنفاسه التي تخدرني، فأحسستُ أن الحياة تعود مرة أخرى. وأن دعموش هواؤها، وبيتها، وبوابتها. صارحته بآثار تلك الليلة، بالحزن الذي يذوبني. وأخبرته ب- غطاس، والميتم، ورشيدة، وقلت له: إنني أموت ﻓﻲ النهار ألف مرة. أموت حين أرى الأطفال، وأموت حين أسمعهم يبكون، وأموت حين أراهم يركضون أمام

البيوت، وفي الشوارع، وأموت حين أراهم نياماً في أحضان أمهاتهم! وأخبرته أنني ربما أموت على الطريق ما بين الميتم والبيت. برت الدروب قدميَّ، وأكلني الحزن والخوف. أذهبُ إلى الميتم وأعود منه حين يلتهمني الحنين، لكي أرى غطاس. أذهب في الليل دون أن أخاف الوحوش، ودون أن تخطر ببالي، وأذهب في النهار دون أن أخشى نظرات الناس، ودون أن أحسب حساباً لتخمينات الراهبات. بتُّ لا أجد نفسي إلا في الميتم، تصحو روحي هناك، وأنا أرى غطاس يصفق بذراعيه ويرتعش مثل أوزة كلما رآني. وددت أن أنقش صورتي في عينيه، فجئت إليه يومياً. كنت آخذه وأتوارى به. أعطيه صدري، فيرتعش ويذوب. أحس بجسده صار قطعة من جسدي. الحليب هو الذي كان يأخذني إليه كالمجنونة. ولا أدري إن كانت الراهبات يعرفن ذلك، أو لاحظنه.. كل ما أعرفه أن أيّاً منهن لم تضبطني وأنا أرضعه، لكن لابدّ أن صدري كان يفضحني في أول قدومي إلى الميتم. كنت أحس وأنا في الطريق أن الحليب اندفع من صدري وبلل ثيابي، فأجلس قليلاً من الوقت قرب الميتم معرضةً نفسي للهواء.. كي تنشف ثيابي. غير أن صدري يفور بالحليب مرة أخرى حين يلّفني وجه غطاس. لعل الراهبات كن يعرفن ذلك فلا يصارحنني. مرات ومرات جاءت معي رشيدة إلى الميتم. لم تتركني أخرج وحيدة في الليل إلا مرات قليلة. كانت تخاف علي وقد اقتنعت أن الحليب هو خلاصي من وحدتي وأوهامي ومخاوفي ودموعي. تجلس خارج الميتم منتظرة.. حتى أعود إليها! وتظل تواسيني طوال الطريق. أحكي لها عن غطاس، وأصف لها حركاته، ومحاولاتي المتكررة لأجعله ينام، لكن الطفل لا ينام، يشعرني بأنه سعيد برؤيتي وأنه لا يقوى على النوم في حضرتي، فأتركه للراهبات.. وأخرج، فلا تملأ سمعي وأنا أغادره سوى مناغاته، وفورة البكاء المفاجئة. قلت لدعموش كل هذا، فبكى. لم أسمع منه جواباً أو كلاماً. وغادرته.

كنت مقتنعة بأن إخباري له بما حدث.. يكفي. كما كنت مقتنعة بأن بكاءه يكفي أيضاً. مسحت على وجهه بأصابعي فبللتني دموعه، ومضيت، اكتفيت بدموعه. لم أسمع صوته، ولم أحس بحركته ورائي. عدت، فقصصت ما حدث على رشيدة فباركتني. قالت: هذا يكفي! وصمتتْ ربيحة. فقلت لها: أنت الآن بنصف حزن، وبنصف خوف، لقد قاسمك دعموش الحزن والخوف. إنه يعود إليك ليحمل معك نصف الألم. عودي إلى البيت، لقد قطعت نصف الدرب نحو المغفرة.

ورأيتها تنهض. تقبّل الخبز، وتمسح على آنية الشراب بأصابعها الطويلة الناحلة.. وتخرج!

الحاشية الثالثة

جاءتني ربيحة مرة أخرى بعد انقطاع طويل. كانت أشبه بطائر خُرب عشه. روح مألومة في جسد رق حتى أصبح كالورق. قالت لي: ماتت خالتي. لحقت بزوجها العجوز. فأورثتني الحياة، والبيت، والمال. وذهبت إلى دعموش. قلت له: تعال. اتسعت وحدتي. اهربْ من الصحراء قبل أن تأكلك. صار لديَّ المال، والبيت. تعال لنعيد غطاس إلينا، فتعود الحياة! ففرح. أشرق وجهه وأضاء مثل الصباح، واندفع في حديث طويل عن الحياة القادمة، حديث أفرحني كثيراً، وأنساني حزن الأيام، ثم وعدني أنه سيعود فور الانتهاء من ارتباطاته. فقلت له: دعك من الارتباطات. اقفز عنها. انس علاقتك بها. تعال قبل أن أفقدك، قبل أن أترمد! فرجاني أن أصبر قليلاً من الوقت فقط، وأنه سيعود إليَّ، وإلى غطاس.. لنعيش الحياة مرة أخرى، لنصنعها مرة أخرى. وآخر ما سمعته منه قوله: أنت تنقذينني من حزني يا ربيحة. فأهمس له: وأنت تنقذني من الفراغ، والأفكار الموجعة، والخجل العميم، تعال يا دعموش، وكن بابي الذي يحميني، وثوبي الذي يسترني،

ووجهي الذي يراني به الناس. كن خطوتي يا دعموش، كن حصتي من الحياة! فيأخذ يديَّ حشو يديه ويشدهما إليه ويقبّلهما، ويملأ وجهي بأنفاسه ودموعه، في تلك اللحظة ما من أحد منا يقوى على الكلام أو الهمهمة، وما من شيء ينقذنا من الذوبان سوى الافتراق. أسلُّ يديَّ من يديه، وألملم بصري، لكي أنجو بنفسي، أتركه.. وأعود دون أن التفت إليه مخافة ألا أراه خلفي. كنت أحس بخفقات نعاله تملأ سمعي، فأواصل المسير!

وتصمت ربيحة، وقد حنت رأسها على صدرها كالذبيحة، فأسألها:

- «ثم ماذا»؟!

فتهمهم:

- «لم يعد دعموش»!

فأقول:

- «اصبري عليه»!

فتقول:

- «انتهى صبري»!

فأسألها:

- «كيف..»؟!

فتقول:

- «مات..»!

وحين أهمهم:

- «ماذا..»!

تقول:

- «قتله.. الفرح»!

وتنهضُ، فأنهض!

تذييل أول

ودّت ربيحة لو كان بمقدورها الذهاب إلى الميتم مباشرة بعدما تركت الدير، لكي تخبر غطاس أنها صارت أمّه وأباه! فقد رحل دعموش دون أن يراه. رحل أبوه. ودّت لو تأخذ غطاس إلى صدرها وتمنحه كل ما تبقى لديها من حنين وحب. لكنها لم تقو على المشي، بالكاد استطاعت أن تصل إلى البيت. وفي البيت وجدت رشيدة بانتظارها، رشيدة التي غسلت وجهها مرات ومرات كي لا تضبطها ربيحة وهي تبكي. كانت تودّ أن تكون نصفها الآخر الخالي من الضعف والأحزان. لكن هيهات.. فثمة وجوه مثل المرايا.. لا تعكس ما تراه وحسب، بل تعكس الأعماق أيضاً! لقد غدت كل منهما تعرف دواخل الأخرى وكأنهما نهر بضفتين! كانت رشيدة قد أعدت الطعام وهيأته، لكن ربيحة لم تقترب منه، كانت مهدودة تماماً، وتحت إلحاح رشيدة، مدّت يدها إلى الطعام، لكنها لم تقو على بلع اللقيمات التي تناولتها من رشيدة. كانت تودّ لو أنها تقدر على أن تخبر رشيدة بنيتها في الذهاب إلى الميتم لرؤية غطاس.. إلا أنها لم تخبرها بشيء ليس مخافة أن تقول لها رشيدة: اهتمي بنفسك الآن، وإنما لأن النوم الثقيل طواها تماماً، فظلت رشيدة إلى جوارها تنتظر يقظتها التي طالت كثيراً. انتظرتها الليل بكامله، ولم تستيقظ، ولازمتها النهار بكامله ولم تستيقظ.. وجاء الليل ولم تستيقظ أيضاً.. فأيقنت رشيدة أن ربيحة ذهبت في غيبوبة الألم. لذلك ما كان بمقدورها أن تفعل لها شيئاً سوى تنقيط بعض نقاط الماء في فمها، ومسح كفيها ووجهها وذراعيها بالماء وزيت الزيتون، بدت ربيحة وكأنها كائن راح يضمر ويذوب داخل الفراش، ورشيدة تبكي ربيحة الطائر الذي يستعد للطيران.. لعل روح دعموش تناديها، أو لعل روحها هي التي تركض لملاقاته، أو الوصول إليه!

تذييل ثانٍ

لم تيأس رشيدة من عودة ربيحة إلى الحياة على الرغم من استمرار غيبوبتها. كانت تمسح جسدها وتنظفه وهي طيّ الفراش، وتبدل ثيابها يومياً، وتمشط شعرها وتضفره.. لعل طقساً من هذه الطقوس يطرد هذه الغيبوبة الثقيلة، ويعيد ربيحة إلى الحياة. كانت تجلس بجانبها ساعات طويلة، تدعك أصابعها وتمسحها، وتقبّل وجهها وتحتضنه، وتناديها لكي تعود.. من أجلها؛ من أجل غطاس؛ من أجل الحياة. إلا أن ربيحة تظل مفتونة بالغياب! ومع مرور الوقت اقتنعت رشيدة أن ربيحة تغيب عن الوعي لكي تريح نفسها من الأحزان، والألم وقسوة الأيام.. فرضيت بالعيش قربها، وكأنها نائمة، وعما قليل ستنهض مع نهوض النهار!

تذييل ثالث

مرت أيام، وربيحة في غيبوبتها الوردية. هكذا سمتها رشيدة التي لم تدر سر تورّد وجه ربيحة. فقد ظنت في بداية الأمر، وهي ترى وجه ربيحة متورداً، أنها ستنهض حالاً، فحركتها، وهزّتها، ونادتها.. غير أن ربيحة ظلت طيَّ الغياب. صارت الغيبوبة تتناوب عليها في أطوار وألوان.. مرات ترى وجهها وقد اصفرّ تماماً، ومرات تراه ابيضّ كملاءات اللحاف، ومرات يتورّد كالدم. ومرات يبرد جسدها مثل الرخام، ومرات يسخن كلفح النار. وحارت بها رشيدة، وعذّبها الانتظار، بكتها حتى ما عاد للبكاء معنى، ونادتها حتى صار النداء هباء! وخطرت ببال رشيدة فكرة، أن تذهب إلى الميتم، وتعود بغطاس، لعل في قدومه، ورؤية ربيحة له طاقة روحية تعيدها إلى الحياة! قلّبت الفكرة مرات عديدة إلى أن اقتنعت بها، لذلك، ومنذ الصباح، مسحت جسد ربيحة، ودهنته بزيت الزيتون، وقليلٍ من الماء، وأشعلت عوداً من البخور، ثم أخبرتها بأنها ذاهبة إلى الميتم، لتعود بغطاس، لعل رؤيتها له تفكّ

غيبوبتها! ومضت إلى الميتم، وما من شيء يطردها سوى أملها بعودة ربيحة إلى الحياة مرة أخرى. وما إن وصلت إلى الميتم حتى أقامت رشيدة مناحة للبكاء، والحزن، واللّطم، والندب.. فقد رأت الميتم مغلقاً.. فغصّ قلبها، وحين سألت عن الأطفال، قالوا لها: إنهم ضُموا إلى مياتم أخرى، فطار صوابها، وقد أحست أن غطاس يسقط في مربع الغياب أيضاً. ولم تدر كيف عادت إلى البيت؛ كيف وصلت.. وقد هدّها الحزن، دخلت على ربيحة فوجدتها على الهيئة التي تركتها عليها، جسد ممدد، وعينان مطبقتان، وظل ابتسامة يترسب في الشفتين. اندفعت إليها وارتمت إلى جوارها، وراحت تهزّها، وتناديها:

«انهضي يا ربيحة..

غطاس، غطاس»!

تذييل رابع

طوّفت رشيدة طويلاً في المياتم.. تسأل عن غطاس. تتذكر صفاته التي سمعتها من ربيحة.. فتوصفها للراهبات اللواتي سعين كثيراً في البحث عنه، غير أنهن لم يعثرن عليه! لقد رأت رشيدة عشرات الأطفال الذين يحملون اسم غطاس، لكن من، من بينهم، هو غطاس ربيحة؟! لم تتعرف رشيدة إلى غطاس.. كل ما عرفته هو أن غطاس التحق بقائمة الغياب!

* * *

الراهب عطايـا..!!

قبل سنتين، جئت إلى دير الشماصنة! دير بعيد عن القرية، يعلو هامة مرتفع اسمه (مجدلون)، دير مسيّج بالأشجار الكثيفة العالية؛ أشجار عتيقة كأنها أم المكان؛ أشجار طالعة من الوادي وبترادف عجيب حتى تصل إلى هامة المرتفع! لا ينفذ من بينها، نحو الدير سوى درب ترابي تضيق عليه الأشجار وتنحني حتى تتلاقى ذؤاباتها في الأعالي مثل عرائش الكلخ؛ درب يتلوى ويغيب كي لا يصطدم بجذوع الأشجار الخرافية، وكي لا يباعد بينها! دير تطل عليه السماء والأشجار والغيوم والطيور، ويطل هو على القرية، والبحيرة، والنهر، والجسر، والبساتين الوسيعة! الناظر إلى المكان لا يدري هل هو النهر الذي ينشر هذه الخضرة، والبساتين، والأشجار فيوزعها صعوداً نحو الجبل، أم أن الجبل هو الذي يدلقها هبوطاً نحو ضفتي النهر، وفي منفسح الوادي العميق. كيفما تلفت المرء، هنا، يرى الأشجار تحيط به، إذْ لا يبدو الدير وسط هذه الأشجار الكثيفة سوى شباك نطلٌّ منه على الدنيا. لا شيء هنا يشاغب على الصمت العميق سوى حفيف الأشجار واصطفاق أوراقها، وزقزقات الطيور.. وعصف الريح، وخرير ماء الساقية التي تلفّ الدير لفّاً ثم تنحدر نحو الوادي لتغيب في دغلة الأشجار!

جئت إلى هنا برفقة سيدنا عواض، كان طوال الطريق يشيد بصبري، وإخلاصي، وإيماني العميق، ففهمت أن مهمتي في الدير صعبة، وأن ما ينتظرني مهم، ولولا ذلك ما اختاروني لأكون قيّماً على هذا الدير من بين

عشرات الرهبان. وددت أن أسأل سيدنا عن الدير مباشرة، لكنني تريثت. لأنه قال لي إن طريقنا طويلة، والوصول إلى دير الشماصنة يحتاج إلى وقت النهار كله. لذلك أنصتُّ بعمق لكلام سيدنا. حدثني عن فضائل العزلة، والتأمل، والتفكير، ومراقبة الله، وحراسة نعمه، ومحبته أولاً وأخيراً. ثم عرّج بحديثه على الدير، فقال: دير الشماصنة من أشهر الأديرة في المنطقة. كان فيما سبق أشبه بالمغارة، توارى فيها أحد القسيسين الذين لم تذكر الذواكر أو الكتب اسمه، هرب من مطارديه إلى أعلى جبل (مجدلون) وهناك، اختبأ في المغارة، لكن فرق الفرسان التي طاردته لحقت به وقتلته داخل المغارة. وتركت جثته نهباً للطيور. في مكان هذه المغارة، أقيم الدير، نقلت الحجارة إليه من الوادي المجاور له.. وبُني خلال وقت قصير مكرمة لذلك القسيس، وجاء الرهبان إليه، كان عددهم قليلاً جداً وكان عدد سكان القرية قليلاً جداً أيضاً، جاؤوا ليخدموا الناس، ويسهروا على راحتهم. واليوم لا يزال عدد الرهبان فيه قليلاً جداً أيضاً.. لكنهم قادرون على خدمة الناس، وتأدية طقوس العبادة! أنت تأتي إلى الدير لكي تكون على اتصال مباشر مع الناس في القرية، تذهب إليهم.. فترى أحوالهم وتباركهم، ويأتون إليك من أجل الصلاة، والمغفرة، والمباركة! المكان مدهش، كأنه منارة! سترى، إن وقفت أمام الدير، البحيرةَ، والنهرَ، ومدينة صفد، ستحس، لو مددت ذراعيك، أنك قادر على أن تغسل يديك في ماء البحيرة، أو أنك تكاد تلامس أبنية صفد. ستشعر، وهذا رأيي، أنك تعيش في مركبة معلقة في الفضاء وليس في دير ثابت على الأرض! لكن هناك مشكلة! أعتقد أنك ستتجاوزها، لا شك أنك ستتجاوزها!

وصمت سيدي عواض، ونظر إليَّ، فرأى علامات الدهشة تسيج وجهي. لذلك لم يضف شيئاً. رأيته يتشاغل عني بالنظر إلى جانبي الطريق. وكي لا أظلّ وحيداً، طلب مني أن أشاركه النظر إلى الأشجار المتآخية، والطيور المحوّمة، والنباتات التي زاحمت الدرب والعربة.

وبغتةً قال:

- «لم تسألني عن المشكلة» ؟!

قلت:

- «لعلك ستشرحها لي..» !

فضحك، وقال:

- «أقول لك مشكلة، فتقول لي أشرحها» !

قلت:

- «ما الأمر إذاً يا سيدي» ؟!

قال:

- «توجد مشكلة.. هي امتحانك.. وأنا واثق من إيمانك» !

قلت برجاء:

- «سيدي عواض، ساعدني» !

صمت قليلاً، ثم هزَّ رأسه موافقاً، وقال:

- «سمعت عن شاب وشابة تحابا إلى أن ذاع صيتهما. كان تفكير أحدهما بالآخر مستمراً طوال الليل والنهار. كانا مؤهلين للزواج، لم يكن لدى أي منهما ما يمنع الزواج من الآخر.. إلا أنهما لم يتزوجا، ولم يستمرا في الحب أيضاً، كانت الفتاة تصارح الشاب بحبها، تماماً مثلما كان الشاب يصارحها بحبه. وقد اقتنع الاثنان بأنهما يمشيان نحو الزواج، وإن كانت خطواتهما قصيرة بطيئة. وأن لا حياة لهما خارج روحهما المشتركة. الفتيات، يا عطايا، عموماً، أشبه بإناث الطيور، فالعصفورة هي التي تؤثث للعش، وهي التي تحاور ذكرها، هي التي تطعمه، وهي التي تدور حوله. وهي التي تريه، بابتعادها وطيرانها، رشاقتها وجمال ريشها. وفتاة صاحبنا كانت كذلك، كثيراً ما تلاقيه.. فتحكي عنه، وتؤنس وحدته، وتؤثث بيتهما المشترك.. وتطلب منه أن يصلا إلى النهاية السعيدة. والشاب يتحايل عليها، يقول لها لن يعيد تجربة أمه في الحياة مع أيّ امرأة أبداً.

فتسأله الفتاة: ألا تحبني؟! فيقول: بجنون. لولاك الحياة لا تطاق. الحياة مرّة.. وأنت سكرها. وتقول له: أنت تحيرني. البيت موجود. والمحبة موجودة، أنت وحيد وأنا وحيدة، والمدينة الواسعة تجرّحنا في اليوم ألف مرة. دعنا نعُد من غربتنا. خذني إليك، أو تعال إليَّ. دعني أنهض في نظر والدي وأخواتي الثماني في القرية، دعني أشق لهن درب الحياة المغلق. فيقول الشاب: أبداً، لن أعيد تجربة أمي في الحياة مع أي امرأة.. وترجوه الفتاة. تقول له: روحي تتشقق عليك، وأنا أرى روحك تتشقق عليَّ. أنقذني من يأسي، أو دعني أنقذك من يأسك. فلا يستجيب لها. يظلُّ يردد على مسامعها بأنه لن يعيد تجربة أمه في الحياة مع امرأة أخرى أبداً. ولم تسأله الفتاة عن تجربة أمه احتراماً له، وكي لا تؤذي روحه أكثر. حاولت معه مرات ومرات إلا أنه ظلَّ مغلقاً باب حياتهما المنشودة. عندئذٍ، يئست الفتاة منه، فتمنت عليه أن ينقطع عن زيارتها، ومحادثتها، ألا يلاقيها أو يراها في البيت، أو العمل، عليه أن يدعها تمشي نحو باب آخر فتقرعه لكي يفتح لها. غير أن الشاب يقول لها معترفاً: أنه لا يقوى على هجرها، فهي بيته، وجرار عسله! فتثور الفتاة وتقول: نتزوج! فلا يستجيب إليها، ويذكرها بأمه التي لن يعيد تجربتها مع أي امرأة في الحياة أبداً. ولم يكن للفتاة من ملجأ سوى أن تقول له إنها ذاهبة للدير، ناذرة نفسها لله. إن غيّر رأيه، فالدير يعرفه وما عليه إلا أن يقرع بابه، ويأخذها في أي وقت شاء. وقالت له: لا تظن أنني أهرب من الحياة، وإنما أهرب منك. لأنني أحس بأنني غير قادرة على ضبط نفسي ومشاعري حين أكون معك، تأخذني الرجفة وأنا أنظر إليك.. حتى لتبدو لي في كثير من الأحيان أشبه بالبئر.. فما إن أنظر إليك حتى أحس بروحي ستسقط إلى آخر قاعك. سأهرب منك، ومن نفسي.. كي لا أسقط، كي لا أُهان!

وصمت سيدي عواض، ونظر إليَّ. وقال: أتظن أن الحكاية انتهت! قلت: أجل. قال: لا. دعنا نوقف العربة الآن، ونأكل هنا تحت هذه الأشجار، وحين نواصل السير، أكمل لك القصة. قلت: وفيها مشكلتي؟! قال: وفيها

مـشكلتك!! أوقفنـا العربـة. وهـبط الـسائق. وضـع علفـاً في عليقـة الدابـة، واسـتدار إلـى خلـف العربـة.. أخـرج طعامنـا وشـرابنا مـن صـندوق خـشبي، ووضعه أمامنـا، وقـد جلسنا إلـى جـوار شـجرة بطـم شـديدة الـضخامة، ذات جذع مهول، بداخلـه فتحـة أشبـه بالمغارة. أكلنـا، وشـربنا، ثم نهضنا لنواصل المسير. قلت لسيدي عواض: هل نحن في منتصف الدرب؟! قال: تماماً!

قلت: وهل نحن في منتصف الحكاية؟! قال: تماماً!

قلت: أكملها لي أرجوك! قال: ذهبت الفتاة إلى الدير، قصّت قصتها على الأخوات هناك، فرحبن بها، وقد اعتصر الحزن قلوبهن. وتخوفن عليها لاعتقادهن أن حبها سيكون هو الخيط الذي سيعيدها إلى الشاب مرة أخرى. ومع ذلك حاولن كثيراً أن يجعلنها تنخرط في حياة الدير، وأن تعمق إيمانها برسالتها الجديدة. كانت الفتاة متفانية في الأعمال، والقراءة، والصلاة. لكنها كانت كثيرة الشكوى. اعترفت للأخوات أن حبيبها يركض في دمها، وأن روحها تـركض خـارج الـدير. فنـصحنها بالعمـل والـصلاة. فاسـتغرقت فيهمـا. لكـن حبيبها لم يتركها. كانت تراه في النهار يماشيها في أروقة الدير، ويواقفها أمام الأيقونات، وفي الليل يشعل معها الشموع، ويعد الزيت،.. ترى طيفه في كل الأمكنة، بل تشعر بأنفاسه تحيط بها. وصارحت الأخوات مرة أخرى، فقررن أن تلازمها إحداهن، تنتشلها من عزلتها، وتفكيرها بما هو خارج الدير، وتكثر معها الصلاة، وتقص عليها قصص الندامة. غير أن الفتاة ظلت كما هي.. تفكر في حبيبها، وتتحدث عنه، بل باتت تكاد تقنع الأخت الملازمة لها أنه معها في الدير، يأكل، ويشرب، ويحكي، ويصلي، وأنها تراه وتلتقيه في الليل والنهار.. ففزعت الأخت وأخبرت أخواتها بحال الفتاة، فكان أن قررن أن تعيد الفتاة تجربة الحياة خارج الدير مرة أخرى. أي أن تعود إلى حبيبها لعل أمراً ما تغير في حياته.. حال دون مجيئه إلى الدير ليطلبها! فوافقت الفتاة، وخرجت مع إحدى الأخوات التي حملت إليه هدية الدير، سلة من الزبيب والجوز، ذهبت

الفتاة والراهبة معاً إلى بيته مباشرة، وقرعت الباب، الذي لم تقرعه منذ سنة أو أقل، فانفتح الباب، وانشق عن حبيبها، حبيبها بكامل هيئته، بكامل حزنه.. فضج قلبها بالحياة، إنه هو هو لم يتغير أبداً. عيناه تترامشان باضطراب كعادته، وشفتاه لا تخرجان الكلمات بيسر. وقف في الباب ينظر إليها حائراً، بدا كما لو أنه مثبّت بالمسامير، وبدت هي مرتبكة، مأخوذة بالمشهد، لا تدري ماذا تقول! نظرت إلى الراهبة ثم نظرت إليه.. ثم انطلقت إلى صدره وارتمت فيه.. إلا أن الشاب ظلَّ جامداً، لم يطوها بذراعيه، لم يضمها! ولم يلمس على شعرها الكثيف الطويل الذي أحبه! ولم يهمهم لها، ولم يناغ قرب أذنيها كطيور الحمام. ظلَّ كلوح من خشب. لم يحس بلدغ النار في صدر حبيبته التي عادت إليه بثياب الرهبنة. فحسبت الفتاة أن المفاجأة أذهلته فاحتار كيف يقابلها، فهزّته بارتعاشة واضحة. قالت له: لقد عدت إليك. لم أقوَ على الغياب. كنتَ في كل لحظة معي، أسمع صوتك، وأرى صورتك، وأحس بك. كنت لا أنام إلا ويدي تمسح وجهك وشعرك، ولا أصحو إلا وابتسامتي الأولى لك، وما من حروف تجتمع إلا على اسمك. ها قد عدت. خذني إليك. شدني. وأبقيني قربك.. مثل هذه النباتات، مثل هذا البيت..!! والشاب ثابت لايتحرك لكأنه يبس في وقفته. بغتة، أطلت من ورائه امرأة، أفزعها المشهد وأخافها، فلاذت بطرف الباب واستندت إليه. وحين رأتها الفتاة، هزّت حبيبها، وسألته بصوت مرتجف: من هذه؟! فما أجاب! وحين كررت السؤال، صرخت بها المرأة: أنا زوجته. أنت من؟!

عندئذٍ، سقطت الفتاة على الأرض. وسقطت سلة الدير من يد الراهبة.. فاندلق الزبيب والجوز وافترشا المكان» !

وصمت سيدنا عواض. ونظر إليَّ. فهززت له رأسي وظللت صامتاً أيضاً. لحظتئذٍ، كنا في أول الدرب الذي سيصعد بنا نحو جبل (مجدلون) نحو الدير.. تماماً!

الحاشية الأولى

كان سيدنا عواض قد جاء إلى الرهبنة مرات عدة، وانقطع عنها مرات عدة أيضاً. أحب الحياة فأنكرته، تماماً مثلما جئت إلى الرهبنة مرات عدة، وانقطعت عنها مرات عدة. كانت الحياة بالنسبة إلي فتنة، وزيفاً ليس إلا. وكان الدير ملاذي رغم وحدته الشاسعة، ورتابته الموجعة، وصمته الرهيب. موحش الدير من دون الناس، ممراته طويلة، وساحاته واسعة، وسقوفه عالية، وأدراجه متعبة، عقول أهله تركض بأجسادهم في الخارج.. لا يلجم ركضها سوى الصلوات، والخواتيم المرّة للشهوات! وأنيس هو الدير، بالناس، بضعفهم، بأرواحهم الحائرة التي يتركونها هنا.. في الهيكل؛ وفي حجرات الاعتراف، وقرب الأيقونات، أرواحهم الذائبة كالشموع، والطرية كحبات الزبيب!

لم أقترب كثيراً من سيدنا عواض لأعرف تفاصيل مجيئه إلى الدير مرات عديدة، ثم انقطاعه عنه مرات عديدة أيضاً. لكن كل ما عرفته أن مباهج الحياة كانت تدهمه وهو في عزّ صلواته، توقظه في الليل وتناديه.. وتلحّ في النداء إغواءً، إلى أن يفرّ، وما إن ينكسر خارج الدير.. حتى يعود إليه، هكذا ظلَّ طوال سنوات شبابه إلى أن قوّى إيمانه بما عرفه من نكد، وأذى، وكذب في الحياة. وكنت مثله، ضقت ذرعاً بحياة والديَّ، وعجبت من النفاق الكثير الذي يدلق صباح مساء في البيت. أبوان لا يعرفان الحب. جئت إلى الحياة فشددت الرباط بينهما.. رباط المعاشرة والمساكنة، لا رباط الحب. ثم جاءت أختي، فازداد الرباط شدة. عاشا من أجلنا لا من أجل حياتهما المشتركة. كانا يحبان، بلا شك، أبي يحب امرأة أخرى غير أمي. وأمي تحب رجلاً آخر غير أبي. كنت أعرف هذا.. ولكن لا أقف على التفاصيل. حين أقف في زاوية أبي وأنظر إلى أمي وما تفعله.. أوافقه على كل ما يقوم به، وأحس أن من حقه أن يبني حياة أخرى لأجله هو، كي لا يطق

فجأة.. ويموت. لابدّ له من مؤنس، ورفيق، وحبيب.. يخاف عليه، ويسأل عنه، ويشاركه ضعفه وأحزانه.. وأفراحه أيضاً. وحين أقف في زاوية أمي وأنظر إلى أبي وأعرف أفعاله أحس أنه وحش، مجرد وحش، لا عواطف لديه، ولا مشاعر.. قطعة صخر تتحرك ببطء، وتتكلم ببطء، تستجيب ببطء، وترفض ببطء، قطعة صخر لا روح لها، ولا دروب تفضي إليها قط. وأختي الصغيرة، جاءت إلى الحياة حين أصبحت شاباً، كانت صلة الوصل الضرورية للمعايشة المشتركة ما بين أبي وأمي. بلى إنني أستغرب الآن، وأتعجب، وقد رحل والداي، كيف أن المال الكثير، والرزق الكثير، ومظاهر الغنى، وبحبوحة العيش كلها لم تساعد على خلق حياة مشتركة بينهما. كنت ومنذ الصغر، أرى قطع النقود مرمية في كثير من أنحاء البيت، وأرى الأطعمة والأشربة، والثياب وهي تتراكم في البيت حتى لكأن البيت ليس سوى مخزن للأطعمة، والأشربة.. والثياب. كانت للبيت مستودعات، ملأى بالحبوب والتبن، وكانت له حظائر ملأى بالأغنام والأبقار والخيول والحمير. كان يعمل في حقول أبي العشرات من الناس، عدا سائس الخيل، ورعيان الماشية.. كنت أسمع من الآخرين أن غنى أبي وأمي نادر في المنطقة.. فهما من أكبر الملاكين في البلاد! أما الحفلات، والسهرات التي كانت تنعقد في البيت فكانت أشبه بطوق من الخرز.. طوق طويل.. حبّات خرزه كثيرة وملوّنة.. كنت خلال هذه الحفلات أرى ابتسامة أمي، وابتسامة أبي. لم تكن ابتسامة أي منهما للآخر.. كانت ابتسامة للآخرين؛ للآخرين فقط، ومع ذلك كنت أبتهج، فأحس بعالم سحري.. لأنهما، أخيراً، يبتسمان!

لم تؤثر في نفسي معرفتي بأن أبي يعشق امرأة أخرى، ذلك لأنني لم أره، ولم أرها. كنت سأكرهه بلا شك لو رأيته في المشهد الذي رأيت أمي فيه. كانت مع رجل آخر غير أبي. تقول له بصدق شديد: أنت حبيبي. أنت كل شيء في حياتي، وما عداك لا شيء! فيأخذها إلى صدره.. الذي تغمره

بشعرها الطويل. صحيح أنني كنت صغيراً، إلا أنني كنت أرى فأتألم.. وأهرب من المشهد لأبكي طويلاً. وحين يمضي الوقت، وتشعر بي أمي، وقد رأت احمرار عينيَّ.. تسألني ما بي: فأقول:

- «مات أبي» !

فتسألني:

- «ماذا تقول، وكيف عرفت» ؟!

فأجيب:

- «.. لأنه تأخر كثيراً» !

فتأخذني إلى صدرها، وتمسح دموعي، فيتسمّر نظري على شعرها الطويل الذي كان قبل قليل فقط يغمر صدر الرجل الغريب! فأفر من بين يديها.. مثل عصفور طريد! أذكر تماماً أن عاطفة أمي تجاهي كانت تكون طاغية في لطفها.. بعد أن ترى ذلك الرجل، لكأن ذلك الرجل الذي كرهته كثيراً، كان هو من يعيدها إليَّ، هو من يجعلها امرأة من لحم ودم وعاطفة. بسبب هذا.. ذهبت إلى الدير، بسبب خوفي على أمي، قلت للراهبة التي كانت تعلمني الحساب: أريد أن أبقى في الدير. لا أريد أن أعود إلى البيت، أنا لا أحب البيت! فتبتهج الراهبة وتخاف في آن معاً. تقول لي: بيتكم جميل. وأبوك غني. لديكم بساتين، وعربات جر، وخيول.. وأمك جميلة، شابة، تحبك كثيراً، فكيف تتركها؟! فلا أجيب. أكتفي بالبكاء. لا أقوى على مصارحة الراهبة. تمنيت لو أنني كنت قادراً على أن أقول لها: إنني أريد البقاء في الدير كي لا أرى أبي يقتل أمي.. حين يراها مع الرجل الغريب. لا أريد لأمي أن تموت بيدي أبي. لا أقوى على قول مثل هذا الكلام بهذا الوضوح، لكنني كنت أحسّ به. أحسّ بخوفي من أبي على أمي! في البداية لم تستجب الراهبة لرغبتي، فأخبرت راهبة ثانية، ثم ثالثة، ورابعة، وحين تأخرت إجابتهن، أخبرت أبي وأمي. قلت لهما: أريد أن أبقى في الدير. قلبي

تعلق بالدير. فلم يستجيبا إلي. كان صمتهما رفضاً، لكنني كنت معانداً فرحت أبيت في الدير بعض الليالي بناء على موافقة أبي وأمي. لقد ظنّا أنني سأهجر الدير حين ألمس الفرق بين حياة الدير وحياة البيت. لكنني، وهكذا يبدو، كنت قد محوت، كل ذلك البذخ الموجود في بيتنا من عقلي. محوته وأغلقت عليه بوابة الزمن. ورويداً رويداً صرت ابن الدير. ولم أفطن للحياة.. إلا عندما أصبحت في عمر الشباب. ففي لحظة واحدة غفرت لأمي، وعتبت على أبي الذي يتركها وحيدة.. كما عتبت على أمي التي تترك أبي يجول هنا وهناك مثل الرياح التي تسوق بعماء أوراق الشجر المتساقطة. قلت للراهبات.. أريد الحياة! فدهشن. لأنني أمضيت سنوات عديدة في الدير. دون أن أتذمر أو أطلب أو أخاف.. لقد اعتقدن أنني أصبحت ابن الدير المؤمن بحياة الدير؛ ابن الدير الذي عاهدهن على الإيمان، والإخلاص، والرهبنة الأبدية. حاولن كثيراً معي لثنيي، إلا أنني ظللت مصراً على رأيي.. فأطلقني الدير للمرة الأولى نحو الحياة، نحو بيتنا، نحو طفولتي. ربما شدتني أختي الصغيرة، ابنة الشهور القليلة إلى الحياة مرة أخرى. أو ربما هي روحي التي غفرت لأمي.. التي أعادتني للحياة. المهم أنني خرجت.. ذهبت إلى البيت فرأيت، أول ما رأيت، الرجل الغريب يدرّب أمي على ركوب الخيل.. في حديقتنا الواسعة. فوقفت بمحاذاة السياج أرقب ما يحدث، وقد آلمني المشهد كثيراً، كانت أمي كثيرة السقوط على الأعشاب، فيتقدم الرجل الغريب منها، وينهضها، يأخذها بكامل ذراعيه إلى صدره، وينهضها، وكثيراً ما كانت تشده هي نحوها ليرتمي قربها مجاورة.. فتتشابك الأصابع.. وتتلامس.. قبل أن ينهضا!! لذلك بدلاً من أن أدخل إلى البيت أستدير عائداً إلى الدير، وحين أصل إليه تقابلني الراهبات.. بالدهشة، والذهول! وحين تلفني الأسئلة.. لا تكون إجابتي الوحيدة سوى الدموع، ولا أسمع من الراهبات سوى قولهن: «إيمانه أعاده«!

فيزداد بكائي ليصير شرشفاً يغطي وحدتي الشاسعة!

الحاشية الثانية

مرة أخرى تركتُ الدير!

أقنعتني هيلانة، إحدى الراهبات، بجمال الحياة، وعذوبتها، وغناها. قالت لي: نخرج، فنبني حياتنا، سنتعذب قليلاً أو كثيراً، لكننا سنكون قادرين على بناء حياة سعيدة.. فوافقتها!

كانت هيلانة شديدة التأثير عليَّ. امرأة تشبه أمي بوجهها القمحي، وعينيها الضيقتين الراقصتين، وشفتيها المليئتين بالنداءات والأسئلة، وجبهتها العريضة المضيئة، وأنفها الدقيق الحاد، ووجنتيها البارزتين؛ امرأة تشبه أمي تماماً. كنتُ، وما أزال، لا أستطيع تقدير طولها أو نحولتها لأنها كانت تلبس أثواباً عريضة تخفي طولها وتفاصيل جسدها دوماً. منذ أن رأيتها أحسستُ بخفقة ما داخل صدري تخصّها هي من دون الراهبات العديدات الموجودات داخل الدير. كانت شابة تقريباً، لا تجاعيد في وجهها، ولا يباس في أصابعها، كما لم أر أيّ تغضنات في جبهتها، أو رقبتها. امرأة صافية دائماً مثل مرآة. وجهها لا يخلو من لمعة أبدية، لكأنها تمسحه بزيت الدير فيضيء.. لكي يغصّ قلبي! امرأة معدّة للرؤية في أي وقت. لا أدري لماذا حفظت وجهها الذي رافقني في الليل والنهار؛ ربما لكي يعذّبني!

في أول الأمر لم أنتبه إليها، بل لم أنتبه للراهبات جميعاً. كانت غباشة غير عادية تحول دون رؤيتي لهن. كنتُ أحس بأنهن مخلوقات أزليات مثلهن مثل جدران الدير، مثل الهيكل، والمقاعد، والأبواب، والأيقونات.. كائنات هي جزء من الدير وحسب. لم أشعر بأية علاقة تربطني بهن كنساء.. أبداً. كن مثلي، وكنت شبيهاً بهن! نتبادل أدوار العمل، والأوقات، والمواقع دون أي تمييز إطلاقاً، ولأنهن كثيرات لم أكن أختلط بهن جميعاً. بل إن بعضهن لا أراه إلا في المناسبات أو المصادفات. هيلانة هي الوحيدة التي كنت أتمنى

رؤيتها، فأسعى إليها. أبحث عنها في أروقة الدير وغرفه وأنا أزاول عملي. ألّوب عليها بنظري هنا وهناك، وإن شعرت بأن النهار سينطوي من دون أن أراها.. أسأل عنها، أتفقدها، وكأنها باتت جزءاً مني! كنتُ أحس أن رؤيتها تترك في نفسي معنى ما، لم أستطع في البداية تفسيره؛ معنى ربما كان تعويضاً عن رؤية أمي، أو معنى أستأنس به وقد صارت وحدتي مخيفة. كنت أفرح حين أتقاسم وإياها عملاً مشتركاً. مرات عديدة لم أبادلها الكلام. كنت أكتفي بالنظر إليها، فأشعر بالراحة وأنا أراقب حركات أصابعها الرفيعة، وعلامات وجهها المطمئنة، وخطواتها القصيرة الرشيقة. لم أسمعها تشكو أو تتذمر. كانت قبولةً على الأعمال وكأنها حياتها. رغبت، من المرة الأولى، أن أقول لها شيئاً يعبر عن راحتي النفسية تجاهها، لكنني لم أجرؤ. تريثت كثيراً في محادثتها. مرت شهور عديدة وأنا أراقبها، فأبادر لمساعدتها، أو التقرب إليها، لم أسمع منها سوى بعض الكلمات، كما لم أُسمعها سوى بعض الكلمات أيضاً. صارحتها مرة، ونحن نفك رباطات أصابع الشمع، ونخرجها من أكياسها الكتانية، قلت لها:

- «اعذريني إن قلت لك، إنني أفرح حين أراك»!

فقالت بهدوء، وصوت صاف:

- «فرحة المؤمن»!

وصمتت، ولم تنظر إليَّ. فصمتُّ. كانت قوية بما يكفي لإغلاق باب الحوار أو فتحه. لكنني لم أنفر منها، على الرغم من قسوتها تجاهي، ولم أتحاشاها. ظلّت روحي تتشوف إلى رؤيتها، وتهفو إلى لقياها. وكنت دائماً أقول لها حين أصادفها، إنني فرح برؤيتها! فتصمت، وهي تنظر إليَّ بين حين وآخر، نظرة ملأى بالعتب والغموض! ولم أكف عن الحديث إليها إلا عندما قالت لي ذات مرة، ونحن نملأ أباريق الزيت:

- «أراك تسيل إلى خارج الدير، مثلما هو الزيت يسيل داخل الأباريق»!

أرعبني قولها، وأعادني إلى الدير بقوة. لعلها رأتني أحوّم بروحي خارج الدير، لذلك أحسستُ أنني أقترف خطيئة. فذهبت إلى الراهب علايا، وطلبت منه المغفرة. ركعت، وأخبرته بخطيئتي، فناولني جسد الرب، قضمت منه قطعة صغيرة، ذوّبتها بلعابي، وخرجت، وأنا أسمع صوته يرنّ في أذني:

- «ما أصفى قلبك يا بني»!

وكففت عن التفكير بهيلانة. كنت وكلما لاح لي طيفها في مفرشي أعطبه بالصلاة، وأستعيد طيف أمي، وطيف ذلك الرجل الذي كرهته، فأمحوهما.. وأنام!

هيلانة، وبعد مرور وقت طويل، هي التي صارت تقول لي إن رؤيتها لي تفرحها، فلا أجيبها سوى بابتسامة بلهاء لا تكشف عن شيء، وأنفر منها. وهيلانة هي التي أكدت لي أن المرأة إذا ما نبت رجلٌ في رأسها فإنها تطارده حتى يقع في شباكها دون أن تعرف اليأس أو الاستسلام. ولعلي، بعد مضي سنوات من الرؤية، والمعايشة، والكلام، والعزلة.. نبتُّ في رأس هيلانة. صرت كائناً أعنيها. فسعت إليَّ. كانت جريئة، وحاسمة، كما كانت واضحة، وقوية. قالت لي ونحن ننتشل شراب الدير من الناقوعة، وقد كان الوقت ضحى:

- «عطايا، أما زلت تفرح لرؤيتي«!

فأجيبها دون مراوغة:

- «نعم، يا هيلانة..» !

فتقول بحزن:

- «لماذا..» ؟!

فأقول صراحةً:

- «لأنك تشبهين أمي»!

فتسألني:

- «أتريدني أماً لك»؟!

فأغمغم:

- «نعم»!

فعلاً، كنت أريدها يداً تمسح شعري، وقلباً يخفق لي خوفاً عليَّ، وروحاً تماشيني في دروبي، وملاكاً حارساً في الليل ينقذني من هواجسي، وملاكاً في النهار يحرسني كي لا أقع في الخطيئة، كنت أريدها ملاذاً.. وتسألني هيلانة:

- «وهل تراني عجوزاً»؟!

فأقول لها:

- «لا، أنت تشبهين أمي، صافية مثل أمي. وجميلة مثلها أيضاً»!

فتبتسم، وتغصّ. كنتُ أتابعها بنظري، وقد أرخت بصرها فوق دلوها الذي امتلأ بالشراب، وحين ترمي طاستها في الناقوعة، تسألني:

- «عطايا، هل تفكر بالزواج»؟!

فأصمتُ، ولا أجيب، لأن سؤالها أشبه بالدرب الذي تفضي إجابته إلى غابة من الأشواك الشيطانية. لذلك أهرب منها. أحمل دلوها، وأمضي به إلى داخل المستودعات، أفرغه في البرميل الخشبي الكبير، وأجلس مفكراً بالسؤال متلمساً جواباً له. أحار بماذا أجيب! فإن قلت (نعم)، كيف ستنظر إليَّ، وإن قلت لها (لا)، هل ستقتنع بأن إيماني عميق؟! وساءلت نفسي، لماذا

تعود هيلانة إليَّ، وهي التي كانت تنفر مني؟! ما الذي تغيّر فيها، أو ما الذي تغيّر في الدير؟! ما الذي حدث؟! ولا أنهض من جلوسي إلا عندما أرى هيلانة أمامي، قربي تماماً، تفرغ دلواً آخر في البرميل الخشبي، وحين تعود إلى الناقوعة، أشعر بأنها تسحبني وراءها دون وعي مني!

ولم يمض ذلك النهار، إلا وقد صارحتني هيلانة بمحبتها. قالت لي إنها، في الليالي الأخيرة، لا تنام، وإن صورتي لا تفارقها، وإنها تخاف الخطيئة داخل الدير. حاولتِ كثيراً أن تصدَّ عني، أن تهرب مني، أن تبعد صورتي عن خاطرها، لكنها لم تقو. كانت صورتي تجول بين عينيها. مرات عديدة جاءت إلى غرفتي ليلاً إلى مكان نومي، أرادت اقتحامي. لتقول لي إن روحها تتعذب بسببي، وإن الدير يضيق عليها! وإنها فاتحت العديد من الراهبات، صديقاتها، قالت لهن: طيف عطايا يرافقني في المأكل والمشرب.. والمنام. فقلن لها: خاطر ويزول! فأكثرت من الصلاة، والعزلة، والانقطاع عن رؤيتي، لكنها كانت دائماً تضبط نفسها وهي تحادثني أو ترامقني بنظراتها الطويلة.

.. وصارحتها بأن قلبي يخفق لها منذ رأيتها، وما الدير سوى ستارة شفيفة تبعدها عني، وأنني مثلها تماماً، ذهبت إليها مرات عديدة في الليل والنهار، حوّمت طويلاً حول غرفتها مثل طائر ضلّ عشه، كنت لا أريد منها سوى أن تعرف أنني أحبها، ولها أن تعذبني كيفما شاءت. قلت لبعض الرهبان، والراهبات أن قلبي موجوع بها، فلم أنل سوى التحذير، والتخويف، أي أن أنتبه إلى أنني في الدير، وأن الطاعة مع النزوات تصير معصية! حاولت أن أضع بيني وبينها جداراً، غير أنني لم أستطع! صارحتها بهذا كله.. بعدما صارحتني، لذلك لم يكن أمامنا إلا أن نصارح قيّم الدير لكي يبارك حياتنا الجديدة المشتركة، وهذا ما حدث بالفعل. خرجتُ من الدير لأجلها، وخرجت هي من الدير.. لأجلي. لكن الحياة المُرّة أعادتني إلى الدير.. تماماً كما أعادتها هي.. أيضاً!

هيلانـة هـي التـي كرّهتنـي بالحيـاة بعـدما أسـاءت إلـيَّ. كانـت أشـبه بالغيمة الحائرة التي تبحث عن مستقر لها، ولم أكن مستقرها. كانت تبحث عن رجل أحبته قبل دخولها إلى الدير، اسمه رباح، رجل تذوقت معه حلاوة الـدنيا ومباهجها، فمضت تبحث عنه. لم أكن في حياتها سوى تابع مـذل مهان، يسمع أحاديثها عن حبيبها الغائب، وحكايات الرغد والهناءة التي كانت، فيحسّ بمدى العطش الأبدي الذي تشعر به. كنت أبحث معها عنه، جبنا دروباً، وبيوتاً، وقرى.. عديدة حتى عثرنا عليه. كان رجلاً طويلاً، ممتلئاً، له وجه فيه جاذبية لا تقاوم. ما إن رأته هيلانة حتى ارتمت في صدره، فأخذها إليه بكل الحنان، والود، والاشتياق الحميم. كانت تقول لي، ونحن نبحث عنه، إنه لم يعد سوى صديق وحسب، مستودعٍ للذكريات، والماضي الجميل، وإنها ستخبره فقط بمغادرتها للدير نهائياً بعدما اختارتني لكي تعيش معي. لكن ما أراه لا يدل على أنه مجرد صديق، فقد نسيتني، واستغرقت في ضمه والارتخاء على صدره، فبدوت أمامهما غريباً؛ كائناً لا قيمة له أو دور، بل بدوت وكأنني غير موجود! وحين انتبها إلـيَّ. قالت هيلانة:

- «هذا هو رباح، يا عطايا، أتراه»؟!

فهززت رأسي لها، ثم التفتت إلى رباح، وقالت له:

- «وهذا عطايا، يا رباح، أحد رهبان الدير..

جاء لكي يوصلني إليك«!

سقط قلبي، والتهمت كفاي وجهي، ودارت بي الأرض. أغمضت عينـيَّ، وتمنيت لو أنني أذوب من أمامهما، أو لو أن أجنحة تنبت لي فأطيرُ بها بعيداً عنهما! ورأيتها تستدير نحوي وتشكرني، كما سمعت رباح، رجلها.. يشكرني أيضاً.. وبينما أنا طيّ دهشتي وحيرتي.. رأيتهما ينسلان من

أمامي.. ويغيبان! فاستدرتُ، وعدت إلى الدير، وهناك عاتبني قيّم الدير عتاباً مُرّاً، وهجاني. قال لي: أما آن الأوان يا عطايا أن ترتاح روحك وتطمئن! ما الذي وجدته خارج بوابة الدير؟! هل وجدت فرقاً بين هيلانة الدير وهيلانة البيت..؟!

كنتُ أعرف أنه لم يكن ينتظر إجابتي، لذلك ظللت صامتاً، فسمعته يوصيني أن أدع روحي ترتاح وتطمئن، أن أحبّ حياة الدير، أن أقتنع بها، أن أجعلها خلاصي، أن أنهي حيرتي فأكون مثالاً للآخرين. كما عاتبتني راهبات الدير بالكلام، والنظرات، والتحاشي، والنفور.. لقد خفن من غوايتي. أما الرهبان فجالسوني لكي يعرفوا ماذا حدث بالضبط!! الرهبان هم الذين لمسوا جرحي.. فساهروني.. لكي أبرأ!!

الحاشية الثالثة

مرت سنوات عديدة، فنسيت هيلانة التي ما عادت سوى حكّ بسيط في ظاهر يدي، هيلانة التي عرفت أنها عادت إلى أحد الأديرة تائبة، بعدما تركها رباح مرة أخرى!

تنقلتُ بين أديرة عديدة، وعرفت الكثير من الناس، والقصص، والأخبار، وها أنذا أجيء إلى دير الشماصنة. دير في قمة جبل (مجدلون) أجيء برفقة سيدي عواض الذي رعاني، وعايشني، وعلمني أصول الحكمة، ودروب المسرة. ها هو يجمع رهبان الدير الأربعة، ويخبرهم عني. يعدد صفاتي، ويشيد بإخلاصي وإيماني، وسعة علمي، ورحابة صدري، وقدرتي على المغفرة، فأنكس رأسي فوق صدري خجلاً. كان يحبني. ويا للحبيب من سطوة المحِب! كان الرهبان صامتين، لم أنظر إلى وجوههم إلا لمحاً.. كانت متشابهة.. لكأن أضواء الشموع وحّدتها!

ليلة واحدة قضاها سيدي عواض في الدير، ثم غادرنا في الصباح بعد أن جهزنا عربته بالطعام، والشراب، وبعد أن أعطاه الرهبان هدايا الفخار، والخزف الملوّن، وبعض قطع البسط المزينة بالرسوم. والألوان.

في الصباح، سألت سيدي عواض، وهو يهمّ بالمغادرة، عن مشكلتي في الدير. فابتسم، ووضع كفه على كتفي، وربّت عليها، وقال:

- «الغواية في الدير،

انتبه يا عطايا»!

ومضى، تاركاً لي.. دفء كفه، وابتسامته الوسيعة!

تذييل أول

أخذت سجل الدير، ورحت أنظر فيه. قرأت أسماء الرهبان والراهبات الذين مروا به، والوكلاء الذين خدموا فيه. ولم أفاجأ بشيء إلا عندما وصلت إلى الصفحات الأخيرة.. حين قرأت أسماء الرهبان والراهبات الذين ماتوا. فوجئت باسم هيلانة التي جاءت إلى الدير منذ سنوات، وخدمت فيه، ثم توفيت قبل شهور قليلة فقط، ودفنت في مقبرة الدير. فاجأتني هيلانة، أنها هنا، ستكون معي في الدير أيضاً، لن يفصلها عني سوى رخام القبر، وجدران الدير. هززت رأسي بأسى، وقد أحسست بفقدها، فطويت السجل، وناديت الوكيل، وكان اسمه شنوان، الذي جاء لاهثاً، فسألته عن مكان مقبرة الدير، فأرشدني إليها، كان يودّ أن يماشيني ويرافقني في جولة الصباح المحزنة، غير أنني صرفته، فقد وددت أن أكتشف قبر هيلانة بنفسي. مشيت بين القبور والأشجار، قرأت أسماء المتوفين، ووقفت طويلاً، أمام قبر هيلانة! يا إلهي إنها هنا، فركعت، وصليت لأجلها، طلبت الراحة لروحها، ثم استدرت قبل أن يلتهمني.. ماضيها!

تذيل ثانٍ

في يومي الأول دعيت الجميع إلى طعام الإفطار في قاعة الدير. وددت أن أرى الرهبان، فطلبت من الوكيل شنوان أن يعد الطعام، ويُعلم الجميع دونما استثناء برغبتي. كنت أودّ رؤية الرهبان، والتحدث إليهم، كما كنت أودّ معرفة الدير والقرى المحيطة به من خلال خبرتهم، ومعايشتهم للمكان والناس معاً.

لم يمض سوى وقت قصير، حتى جاءني شنوان، وأعلمني أن الجميع بانتظاري في قاعة الدير! فذهبت إليهم. وما إن لمحوني أدخل من البوابة الخشبية العريضة، حتى هبوا وقوفاً، فأشرت إليهم بيدي أن يجلسوا، فجلسوا. وراحوا ينظرون إليَّ، وأنا أنظر إليهم. يا إلهي. أي رهبان هؤلاء؟! وجوه جميلة، ناعمة، وعيون لا تخلو من الطمأنينة والصفاء؛ كدت أفضح نفسي وأنا أنظر إليهم بذهول، لذلك ما كان لي إلا أن أطلب منهم أن يشرعوا بتناول الطعام.

بدوا لي وكأنهم جميعاً في حداثة سنهم. ولم أدر كيف خطر لي أن أتساءل: هل هؤلاء هم الغواية التي أشار إليها سيدي عواض؟! ربما! ورفعت نظري إليهم مرة أخرى، فلم أر أحداً منهم يأكل من طعامه، فدهشت، وسألتهم لماذا لا يأكلون، فقالوا إنهم أكلوا قبل ساعة من الآن! وإنهم جاؤوا إلى القاعة ليرحبوا بي، ويسمعوا حديثي.. فقط!

عندئذٍ، قلت لهم، لا حديث لدي لأنني أودّ أن أعرف منهم شيئاً عن الدير، والقرى المحيطة به، وعن الناس الذين يأتون إليه! فراحوا يتناوبون على الكلام.. وأنا شارد مع سؤالي الثقيل: هل هؤلاء هم الغواية في الدير؟!

تذييل ثالث

لم ينته النهار حتى عرفت أن هؤلاء الرهبان هم غواية الدير حقاً، فقد كانوا راهبات يلبسن زي الرهبان كي لا يطمع بهن طامع، وكي لا يتجرأ عليهن أحد! عرفت ذلك حين ذهبت إلى سوق الخالصة، واشتريتُ هدايا للرهبان جميعاً؛ هدايا متنوعة، ولكن تقصّدت أن يكون من بينها هدايا تخصّ النساء كالثياب، والحليّ، والأصبغة، والأمشاط، والخواتم، ومعاجين طراوة الوجه، وعدتُ بها إلى الدير، فنثرتها أمام الرهبان، ورحتُ أراقب الأيدي وما تلتقطه.. فرأيت الأيدي جميعاً تلتقط هدايا النساء، وتقلّبها بشوقٍ ولهفة.. فعرفتُ أن الرهبان.. راهبات! كما عرفت أن لا أخبار طالعة في قرية الشماصنة، كبرى القرى المحيطة بالدير، سوى قصة حب عنيفة تجمع بين اثنين، شاب وشابة، اسمهما: شتيوي ودندي!

*   *   *

شتيـوي ودنـدي..!!

عدتُ إلى الدير متعباً، مثقلاً بالأسـى والحـزن! ناديت غطاس، ورجوته أن يساعدني على خلع ثيابي. فاسـتجاب إلـيَّ، وهيّـأ لـي طعامي وشـرابي.. ورجاني أن أنام، فالرجفة ازدادت في أصابعي، ولوني مال إلـى السـواد قليلاً. وعيناي غارتا كثيراً طيّ أجفاني الطويلة!

كنت أعرف أنني أرهقت نفسي ودمرتها أيضاً، وأنا أحاول حل مشكلة شتيوي ودندي! مشكلة تزداد في كل يوم اتساعاً كأنها بقعة زيت لا تكف عن الامتداد أبداً. استمعت إلى شتيوي ودندي وأدركت أنهما عاشقان، لا حياة لهما خارج هذا العشق الجنوني. شتيوي مجنون يطاردها في كل مكان تكون فيه. مجنون يشم رائحتها.. فيذهب إليها، يقول إن رائحتها شائعة في الأمكنة كلها؛ رائحة أشبه برائحة أشجار الغار والطيون. ودندي لا تصد عنه، ولكنها تخاف كلام الناس؛ تخاف أهلها، تقول له اصبر، وكف عن ملاحقتي والسؤال عني. دع الناس ينامون ليلة واحدة دون أن يتكلموا عنا. لكن شتيوي لا يستجيب لها، يقول إن آخرين يأخذونه إليها، وإن آخرين يرشدونه إلى الأمكنة التي تكون فيها، وإن آخرين يسمعونها، فيعرف ما تقول، وإن آخرين يدركون مشاعرها فيحسّ بها! كثيراً ما وجدوه نائماً أمام باب بيت أهلها الوسيع المترامي الأطراف، وكثيراً ما وجده أبوها نائماً فوق أسطحة البيت أيضاً، وكثيراً ما وجده داخل (مراح) الماشية، وفي التبان، وقرب كواير القمح والذرة، وفي شون الجلة والحطب، وداخل معالف

الحيوانات. أحبها بجنون، فأحبته هي بجنون أيضاً! تقول إنها لا تدري كيف تجد نفسها بقربه. تحلف الأيمان الغليظة ألا تقابله، أو تحادثه، لكنها ودون وعي منها لا تجد نفسها إلا معه، يتبادلان الأخبار، وينسجان الأحلام معاً.. فلا يمضي أي منهما إلا عندما يشعران بأن الموت دنا منهما أكثر مما ينبغي! فيفران طالبين النجاة. مرات عديدة ضربه أبوها كما ضربها تماماً، ومرات عديدة أيضاً حرمها أبوها من الخروج، فحبسها في البيت، كي لا تخرج إلى الحقول، أو نبعة الماء، وكي لا تزور أحداً، أو يزورها أحد. ومع ذلك كان شتيوي يلاقيها، ويحادثها.. ويراودها من أجل أن تهرب معه، لكن دندي ترفض. تقول له لن أتزوج غيرك.. اطمئن، ولن أهرب معك.. اقنع، وسأتزوجك هنا، وبموافقة أبي.. صدق! فيطير عقل شتيوي، وهو الذي يدرك تماماً مدى كراهية أبيها له، رجل أشبه بالجدار، وجهه مغلق، وعيناه تقدحان ناراً، وفي صوته رعدة تطرح الحامل، له يدان أشبه بالصخر، لم يُر في حياته مبتسماً. لقد حلف ألف يمين بأنه على استعدادٍ لأن يزوجها لكلب ولا يزوجها له. وأن يرميها في بئر، ولا يرميها له. ومع ذلك تقول دندي له: اصبر! لقد طق، وذاب، وصار شريد الحقول، والدروب، والأشجار.. إن مشى في الدروب رآها مقبلة نحوه، وإن جلس تحت الأشجار رآها تجلس فوق الغصون حارسة له، وإن اختفى في الحقول بين النباتات والزروع.. أحس بخطوها يقترب منه! باتت دندي أنفاسه التي يتنفسها! لا وقت له ولا حياة ولا تفكير بعيداً عنها. ودندي تدرك ذلك. تراه من بعيد يرابط مقابل البيت مثل العسكر، لكي يراها وحسب. ثلاث سنوات مرت، وهو يحوّم حولها مثل طائر طريد، وأبوها يلاحقه، إن ظلت حبيسة البيت يرسل إليها إحدى صديقاتها لتسأل عنها، ليعرف أخبارها، كان لا يعرف النوم أو الراحة.. إلا عندما يعرف ماذا أكلت دندي، وماذا شربت، وبماذا تفكر! ومع ذلك لا يذهب إلى بيته، بل يظل يراوغ حتى يقترب منها المسافة التي تمكنه من

سماع صوتها، أو رؤيتها! لذلك كان كثيراً ما ينسى نفسه فوق سطوح بيتهم، أو قرب (بوايك) الحيوانات لا تهمه الرائحة، ولا يخشى البرد! دندي تقول إنه مجنون، وهي تحب جنونه. قبل أيام اشتاق إليها بعدما احتجبت عنه طويلاً. بدا مثل الوحش الجائع الذي يعرف مكان الأغنام كما يعرف مكان صاحبها، ومع ذلك يخاطر ويقتحم (مراح) الأغنام ليظفر بشيء يُسكت جوعه، أما الخوف من صاحبها فقد محاه الجوع. هكذا بدا شتيوي. الدنيا مطر غزير، ووحول، وسيول جارية، وضباب شديد، وكلاب تنبح، وقطط تموء، ورياح تعصف.. وشتيوي يحوّم حول البيت مثل الوحش الكاسر.. يريد رؤية دندي بعد أن غابت عنه أياماً. لم يرها أمام البيت، ولا في الدروب، ولم يتمكن من إرسال إحدى الصديقات إليها.. أحسّ أن الهواء ينفد، وأن الروح تتأهب للانطفاء الأخير لذلك جاءها ليلاً. جاءها في آخر الليل بعدما أيقن أن الجميع ناموا، وأن والدها نام أيضاً. دفع بوابة البيت الكبيرة.. فمانعته، كانت مغلقة تماماً، حاول مرة أخرى إلا أنها صرّت بقسوة بالغة.. أحسّ كأنها جرس ينبه النيام بأنه قادم. فتجاوز البوابة، مضى إلى السياج الشوكي، المحاط بنباتات الورد الشوكية، راح يعد مساحة السياج بخطواته، لكي ينفذ من مكان خلي يعرفه..، وفعلاً تحسس المكان الشاغر من السياج.. ودخل.. فهب في وجهه كلب الدار ونبحه، فرمى له قطعاً من الخبز كان قد وضعها في جيوبه تحسباً للحظة متوقعة. جعلته يسكت طوال الليل، واقترب من الأبواب، كان البيت مؤلفاً من ثلاث غرف، غرفتان للنيام، وغرفة ثالثة فارغة مخصصة كمضافة. لم يدر كيف أرتج عليه، فدفع الباب الذي ينام وراءه أبوها وأمها وأخوها الصغير، دفع الباب ونظر إلى الداخل، كان ضوء القمر نحيلاً ومع ذلك رأى أول ما رأى.. أمها.. كانت في طرف الغرفة القريب من الباب.. فنكص إلى الوراء، تراجع كأنما شلّه الخوف، أغلق الباب بهدوء شديد، ثم قام بربطه بالسلك المعدني المعلّق بطرف الباب، والذي

يستخدمونه لإغلاق الباب من الخارج. ربطاً محكماً.. بحيث إذا ما استيقظ أبوها.. لن يتمكن من الخروج قبل أن يخلع الباب، أو يقطع السلك المعدني.. أو قبل أن يفكه هو بنفسه. ثم مضى إلى الغرفة الثانية، دفع الباب، وأطلق بصره إلى الداخل، فرأى دندي وثلاثاً من أخواتها ينمن مجاورة في صف واحد، لم يتعرف بالضبط أيّاً منهن هي دندي.. وحين عرفها وجدها تغط في نوم عميق، شأنها شأن أخواتها من حولها، لذلك وضع يده على فمها بهدوء ولطف، وباليد الثانية قرص أنفها قرصة عنيفة، فضجت دندي في مرقدها، ثم خمدت، وكأنها في حلم، فعاود قرصها ثانية وبقوة أشد، فانتفضت دندي، مهمهمة من تحت يده.. لحظتئذٍ، همس شتيوي بحدة محذراً إياها من الصراخ، واكتفى بأن قال لها: أنا شتيوي. فهمدت دندي في مكانها، ورفع شتيوي يده عن فمها، وراحت هي تلتهم وجهها براحة يدها، غير مصدقة ما يحدث. كلمة واحدة قالتها له، وقد رأته يسحبها من فراشها، ويخرجها إلى خارج الغرفة..

«مجنون»! كررتها مرات عدة، وهو يمشي بها.. حافية لا تدري إلى أين يقودها هذا المجنون في آخر الليل. أخذها إلى (مراح) الحيوانات إلى حيث الزبل، والروائح، والتبن المبلل، والعفن، والوحل، والمطر الغزير.. وأدخلها إلى إحدى بوايك الأبقار غير حافل بحذرها، وهمسها، ودفعها له، ونهيها عما يفعل وفي داخل (الباكية).. وقرب الأبقار، وبين أرجلها، انطرح الاثنان مجاورة فوق كومة من التبن، وغابا في كلام، وعتاب، وهمس، ووشوشات، ولمس، وأحلام.. غير حافلين بحركة الأبقار، ولا بالروائح، ولا بأكوام الروث.. بل لم يشعرا بالبرد.. على الرغم من أن التبن تحتهما مبلول، وأن السطح (يدلف) فوقهما مباشرة. كانا في عالم آخر. عالم لا خوف فيه، ولا حسابات؛ عالم يخصّهما وحدهما، لا أصوات فيه سوى صوت المطر، واجترار الأبقار، واصطخاب الريح، وهمهماتهما المبحوحة!

ولم ينهضا إلا مع ضوء الفجر، وقد تبللت ثيابهما وتوسخت بالوحل والروث، تقاودا معاً إلى أمام غرفة دندي، وهنا حار أيٌّ منهما يفلت صاحبه أولاً، نسيت دندي أنها في البيت، ونسي شتيوي أنه يخاطر بروحه. وقفا أمام باب الغرفة طويلاً.. حتى ليحسب الناظر إليهما أنهما شجرة ليس غير، إذ ليس بمقدور كائن بشري، أيّاً كانت طاقته، أن يحتمل المطر، والبرد.. وقوفاً دونما حركة لوقت بدا أطول مما ينبغي، وأخيراً.. عاد شتيوي، لابدّ أن دندي أفلتت نفسها منه، أو لعل الخدر أصاب ذراعيه، أو أن قدميه خارتا فجأة، فانسلت دندي منه ودخلت إلى غرفتها، عاد شتيوي بعد أن فكّ رتاج باب غرفة والدها، ومضى بعيداً عن البيت، بعد أن اجتاز خلوة السياج، مشى ببطء شديد دون أن يحفل بالمطر، بدا وكأنه كائن مشتق من المطر..، وبدل أن يمضي إلى بيته، جلس بعيداً، يراقب الفجر وهو يجلو بيت دندي، وهو ينكشف عن بابها.. وعن قامتها، وعن ضجة الصباح الآسرة. وكأن كائناً ما أخبر دندي، بأن شتيوي على مبعدة منها، على مرمى نظرها، فنظرت نحوه، فهب واقفاً يلوّح لها بيده مثل المجنون، فما كان منها لكي تخفض يده إلا أن تلوّح له بيدها.. وتتوارى!

الحاشية الأولى

يا إلهي،

كلما أتذكر شتيوي تضج روحي بنشوة الحب. ويغص قلبي.. خوفاً من الأيام القادمة. كنت أخاف عليه من دندي، دندي التي ستكون بمثابة الطعم الذي يصطاده بفخ والدها! تخوفت أن يأتيها ليلاً.. وأبوها يترصده، وفي لحظة تهور.. وغفلة يقتله، ويعلن للناس جميعاً، في الشماصنة، وغير الشماصنة، أنه حمى عرضه، وصان شرفه، وأنه قتل المعتدي. وشتيوي ليس معتدياً، كان محباً وحسب. لم يؤذ دندي، ولم يسئ إليها. كان يكتفي منها بالكلام، والهمس، والمحبة الصافية تماماً، مثلما تكتفي هي منه بالكلام والهمس والمحبة الصافية

أيـضاً. اثنــان بريّــان نــشوتهما في تلاقــي أيــديهما، وفي مجاورتهمــا، وفي مخاطباتهما.. اثنان يعيشان على خبزهما ومائهما: الكلام والنظر!

جاءني شتيوي مرة، إلى هنا، قال لي: أنقذني يا سيدي. ليلاً رأيت الله يعاقبني! قلت: كيف؟! قال: ليلة الأمس ذهبت إلى دندي، كنت قد أرسلت إليها وعداً لرؤيتها ليلاً مع إحدى صديقاتها. قلت لصديقتها قولي لها لابدّ لي من رؤيتها هذه الليلة. روحي نشفت، وجسدي هدّه التعب والسهر. قولي لها أن تريحني، أن تلاقيني حالما ينام أهلها. فوافقت. جاءت صديقتها وأشارت إليَّ بأنها وافقت. رقص قلبي وابتهج، فأنا سأراها ليلاً، رحت إلى البيت وسخنت كمية من الماء، وغسلت وجهي ألف مرة ومرة كي يكون لائقاً بنظرها، وغسلت يديّ ودعكتهما بنباتات النعناع البري ألف مرة ومرة.. ونقعتهما طويلاً في الماء الساخن كي تطريان.. من أجل مصافحتها. وبخرت ثيابي بعود كامل من البخور. وما إن امتدّ الليل قليلاً حتى أتيتها. كانت أضواء البيت تتراقص في غرفه الثلاث، فانتظرت بعيداً وأنا طيَّ هواجسي، وأفكاري، وأحلامي. كنت أفكر بما سأقوله لها، وأهجس بما ستقوله لي.

لذلك لم أفطن إلى أن قدمي قادتاني إلى بيتها فأصبحت قرب السياج تماماً، ولولا العتمة الفضية.. لانكشف أمري، ومع ذلك، وحين هممتُ بالابتعاد سريعاً.. رأيت رجلاً يخرج من البيت. إنه أبوها بلا شك، فمشيت مبتعداً عنه فوق خطا سريعة جداً، وأوجدت بيني وبينه مسافة جيدة، كنت أتلفت ورائي فأراه يمشي خلفي. لابدّ أنه كشفني. لعله كان يترصد قدومي إلى البيت، وأنه كان ينتظرني حتى أنفذ من السياج أو أقفز عنه، لذلك لحق بي حين رآني أبتعد. مشيت بعيداً كثيراً عن البيت، وهو ورائي يلاحقني. كنت أمشي، وكان يمشي. وما من ستارة لنا سوى هذا الليل الفضي، والبرد الشديد. ابتعدنا كثيراً عن البيت حتى غاب، وأنا مازلت أمشي وأبوها ورائي تماماً. كنا نمشي بتوازن أدهشني. فلا هو يلح في الخطو لكي يدركني، ولا أنا أهرب على عجل

كي أغيب عنه. ولكن، حين مشيت مسافة بعيدة جداً.. وكدت أصل إلى أطراف القرى القريبة من الشماصنة.. شعرت بالتعب، ومع ذلك قاومت قليلاً وواصلت المسير في الدرب، غير أن التعب أثقل خطوي.. فالتفت إلى الوراء فإذا بالرجل يكاد يدركني.. لذلك تنحيت جانباً عن الدرب ولذت بصخرة.. مسلماً أمري لله لقناعتي بأن الليلة كانت كحلية من أولها، ومن عجب أن الرجل تخطاني دون أن يبحث عني، ودون أن يتلفت حوله، وحين نظرت إليه بتمعنٍ دهشت، لأنه لم يكن (أبوها)، كان رجلاً من إحدى القرى، جاء إليهم زائراً، وها هو، بعد سهره، يغادرهم إلى قريته. لحظتئذٍ ضربت رأسي بالصخرة، وناديت في الليل العميم: يا رب اغفر لي!! ولاتعاقبني!

وصمت شتيوي، ونظر إليَّ بعينين دامعتين، وقال:

- «أكان الرب، يا سيدي، يعاقبني في تلك الليلة»؟!

فلم أجب، لأنه انهار مع بداية شروعي بالكلام، وغرق في همهمات ودموع.. ولم يكن له من ملاذ لحظتئذٍ.. سوى صدري، فاحتضنته طويلاً حتى هدأ..!!

الحاشية الثانية

جاءني شتيوي إلى الدير مرة أخرى.

كان رجلاً من خيال. طال شعر رأسه، وضاق صدره وضمر، وتوارت عيناه في تجويفيهما، شفتاه ترجفان، وأنفه مندى، وأصابع يديه بادية العروق! قال لي:

- «أرجوك يا سيدي، استمع إليَّ، وقل لي هل كان الله، في ليلة الأمس، يعاقبني»؟!

قلت:

- «وماذا حدث أيضاً»!

قال: ذهبت إلى دندي ليلاً. لبست ثوباً نسائياً. وضفرت شعري في جديلتين، ها أنت تراه طويلاً. سلمت على أمها، فعرفتني، وكظمت. نادت دندي، وقالت لها خذيه إلى السطح. فأخذتني. أظن أن أخواتها عرفنني أيضاً، فقد رأيتهن يتغامزن عليَّ. كان أبوها يجالس نفراً من أبناء القرية، لم أهتم بهم، ولم أسع إلى معرفتهم. أخذتني دندي إلى السطح، فجلست وإياها أمام السماء، كانت العتمة مطبقة، والقمر غائباً. كنا ننتظر طلوع القمر. قلت لها: ساعة.. ويطلع القمر.. وعلينا أن ندعو اللّه مع أول ظهور له، أن نطلب.. من اللّه أن يجمعنا، وأن يفك محنتنا. فقالت: سندعو اللّه أن يرقق قلب أبي علينا. هو مظلتنا. قلت: سندعو اللّه أن يرقق قلبه وأن يرضى عنا أيضاً! فوافقتني! لم نجلس سوى لحظات فقط، ربما جلسنا طويلاً لكني أحسّ أنها لحظات فقط، أي أن كفّي لم تدفأ في كفها بعد ولم أقل لها جملة واحدة مما هيأته.. حتى جاءت أمها. بدا وجهها بلا دماء، أشعرتنا بخوفها الهائل، وقالت لدندي: أبوك سيصعد خلفي الآن! وقالت لي: اهربْ.. قبل أن تفضحنا. فنهضت، لم يكن أمامي من خيار سوى أن أتعلق بطرف جسر خشبي يوازي حافة السطح، تعلقت به فتدلى جسدي في الفراغ. أنا إن سقطت سأسقط على رجم من الحجارة المسننة، ستكون سقطتي موتي، وستكون الحجارة مقبرتي!

فعلاً، ما إن تعلّقت بطرف الجسر وتدليت..، حتى سمعت الأب يقول لهما:

- «أأنتما هنا في هذه العتمة..» !

فتقول الأم:

- «ننظر في السماء»!

فيقول الأب:

- «.. إنها بلا نجوم، بلا قمر»!

فتصمت الأم، وتظل دندي على خرسها.. لابدّ وأنها تفكر بي، وبما سيحدث إن اكتشف أبوها تعلقي بطرف الجسر! لاشك أن قلبها الآن يضرب كالطبل.. تماماً مثلما هو قلبي يكاد يخرج من صدري! أحسُّ بخطوات الأب تجول فوق السطوح، إنه يرمي بصره إلى البعيد، لعله يكتشف حركة، أو جسداً، أو سراً. يجول ويجول.. دون أن يراني وكأنني مغطّى بستارة العتمة الأزلية. كنتُ وكلما اقترب مني.. أحس بالرجفة تأخذني، وأظن أنه لن يلبث إلا لحظات ويدوس بقدمه الثقيلة يديَّ المعلقتين بطرف جسر البيت الخشبي. لابدّ أنه سيقطع أصابعي.. لكن الرجل يظل يمشي، فتبتعد خطواته عني، وأنجو من هذه الدورة الجديدة. كنت أناجي اللّه أن ينزل الرجل؛ أن يدوخ من الدوران فوق السطوح.. فيهبط، لكنه ظل يدور ويدور!! وكأن دندي لم تحتمل المشهد، لأنه بلا شك مشهد بالغ الألم والتعذيب.. فهبطت دون أن تستأذن أمها. هبطت مثل العاصفة. سمعت حفيف ثوبها.. وكأنه أجماتٌ من القصب تستسلم لاندفاعات الريح الشديدة، وحين يبتعد الرجل إلى الطرف البعيد من السطوح.. تهبط أمها أيضاً وهي تهمهم بكلمات لم أفهم منها شيئاً، لعلها تعتذر منه.. فتهبط، إنهما، دندي، وأمها، كانتا خلاصي في تلك الليلة، فما إن هبطتا، حتى هبط الرجل، ومع ذلك لم أطمئن فأعاود الصعود إلى السطح إلا عندما تأكدت من أن الرجل صار في الداخل، لأن سعاله المتعالي راح يصل إليَّ بوضوح شديد. عندئذٍ.. لا أدري كيف جاءتني القوة مرة ثانية، فدفعت جسدي إلى الأعلى، وتسلقت السطوح، فتمددت بكامل جسدي، وقد أحسست بأن الخدر يلفّ جسدي تماماً. وفي لحظة من اللاوعي خمّنت أن دندي ستعود إلى السطح حالما ينام أبوها وأمها. إنها بلا شك لن تنام قبل أن تتفقدني وتطمئن عليَّ. لذلك ظللت متمدداً طوال الليل فوق السطح، لم أشعر بالبرد، ولم أخف من عودة الأب، ظللت أنتظر دندي، وطلوع القمر!

ولا أدري، الآن، إن كانت دندي قد صعدت إليَّ، فاطمأنت إلى نجاتي، كما لا أدري إن كان القمر قد طلع في آخر الليل.. لأنني، وفي غبشة الفجر تماماً، تململت في مرقدي.. فوجدت نفسي مبللاً بالندى.. فنهضت مذعوراً ودون وعي مني.. هبطت بهدوء، ولم أقو على مغادرة البيت قبل أن أدفع باب غرفة دندي.. لأراها وهي في نومة الصباح الهانئة!

- «سيدي، قل لي، هل كان الله، في ليلة الأمس، يعاقبني«!!

الحاشية الثالثة

جاءني في الصباح والد شتيوي.

رجل عجوز ضامر بالكاد يدفع قدميه ليمشي.

قال لي:

- «ألحقني يا سيدي، الحق شتيوي.

لقد قتلوه، ورموه في البئر«!

طار صوابي. كنت أخاف على شتيوي، وأحبه. فهززت الرجل وسألته.. إن كان متأكداً مما يقول، فقال:

- «شتيوي لم ينم في الدار«!

قلت:

- «ليلة البارحة فقط«؟!

قال:

- «له ثلاث ليال.. يا سيدي«!

قلت:

- «وكيف عرفت أنهم رموه في البئر«؟!

قال:

- «سمعت أنينه، اقتربت من البئر وأنصتُّ، كان أنينه يصل إليَّ بوضوح«!

عندئذٍ، لم أسأل الرجل من هم الذين رموه في البئر! ولم أقو على تكذيبه أو الشك في روايته. لذلك طلبت من غطاس أن يجهز العربة لكي نهبط إلى القرية لنرى، بالضبط، ما حدث! لحظات، وانطلقنا في العربة، كان غطاس صامتاً، والرجل يبكي.. وأنا أصلي!

وحين وصلنا إلى البئر. هبطنا جميعاً. واندفعنا نحو الفتحة تماماً، كانت الفتحة مغطاة بأعمدة خشبية متشابكة فوق فوهة البئر، مشدود عليها حبل ثخين ينتهي بدلو من الكاوتشوك. أنصتنا معاً، غطاس، والرجل، وأنا.. لكن لم نسمع شيئاً. ولكي نجدد الإنصات مرة أخرى، طلبت منهما أن ينصتا أكثر.. ولكن دون جدوى أيضاً، لم نسمع أي شيء، لحظتئذٍ، وحالما تبادلنا النظرات شرع والد شتيوي يبكي ويلطم على وجهه، وهو يقول:

- «مات شتيوي يا سيدي. مات»!

فأخذته إلى صدري، وهدّأته، لكنه حين رأى زوجته قادمة نحونا تتعثر في مشيتها، يسبقها نفر من أولاد القرية، عاود البكاء واللطم، وراح يصرخ:

- «قتلوا شتيوي، يا سيدي، قتلوه»!

فسألته:

- «من»؟!

فقال:

- «دندي، وأبوها»!

كنت متوقعاً أن علاقة شتيوي بدندي ستكون هي السبب لذلك انطلقت بالعربة، يقودها غطاس، إلى بيت والد دندي.. وحين وصلت إلى

البيت لم أجد أحداً في البيت سوى دندي وأمها! فسألتهما عن شتيوي. فأظلم وجه دندي واعتكر. قالت دون وعي منها:

- «هل حصل له شيء.. يا سيدي»؟!

قلت مبتسماً:

- «إنه بخير..، لكن منذ متى لم تريه يا دندي»؟!

قالت بلجلجة وارتباك وهي تنظر إلى أمها متوجسة:

- «منذ ثلاثة أيام، يا سيدي»!!

فسألتها:

- «وهل أخبرك بغيابه..» ؟!

قالت، وقد خفضت رأسها:

- «أجل يا سيدي»!

قلت، وقد عادت الحياة إلى روحي:

- «وأين هو..» ؟!

قالت:

- «ذهب إلى بنت جبيل، في لبنان،

من أجل أن يشتري لي أساور فضة»!

وصمتت، ثم أضافت:

- «حاولت أن أقنعه بأنني لا أحب الذهب ولا الفضة، وأنني لا أريد منه شيئاً، إلا أنه أصرّ. قال لي: لقد رآني في الحلم، وأنا أغني، وأخشخش بأساور الفضة.. وحين سألني عن الأساور قلت له: إنها من بنت جبيل. لذلك حين استيقظ حلف ألف يمين أنه لن يبيت في القرية حتى يعود إليَّ بأساور الفضة من بنت جبيل»!

يا إلهي، ماذا أسمع؟! ومن أصدق دندي أم والد شتيوي الذي سمع أنين شتيوي في البئر؟! ومع أنني كنت أميل إلى تصديق رواية دندي، قلت لدندي وأمها.. بأسىً:

- «يبدو أن والد شتيوي جن، فقد جاءني قبل قليل، وأخبرني أنه سمع أنين شتيوي في البئر. قال لي لقد قتلوه ورموه في البئر»!

فانكمشت دندي على نفسها، وتهاوت على الأرض فجأة مثل شجرة اجتثت من جذورها، وسألتني أمها:

- «ومن قتله يا سيدي»؟!

قلت وأنا أبتعد:

- «يقول دندي.. وأبوها»!

وعدت بالعربة إلى البئر تاركاً المرأتين خلفي في حيرتهما الضافية. وهناك، عند البئر، جاء بعض الرجال بسلالم طويلة، وحبال، وراحوا يتناوبون على النزول إلى داخل البئر. كان الشيخ المصباحي يُشرف عليهم. بحثوا عن شتيوي ساعات طويلة.. إلا أنهم لم يعثروا عليه. أخرجوا من داخل البئر، قطعاً من الحديد، والتنك، والدلاء، والحبال، والكاوتشوك، والجلد، والعظام، والأواني.. والخيش.. لكنهم لم يعثروا على شتيوي! عندئذٍ.. هدأت روحي، وصدقت رواية دندي تماماً التي أعدتُها على مسامع الشيخ المصباحي، فصدّقها أيضاً. لابدّ أن المجنون ذهب إلى بنت جبيل بحثاً عن أساور الفضة!! أنا اقتنعت بهذه الرواية، لكن من يقدر على إقناع والد شتيوي وأمه بأن ابنهما مجنون، له ثلاث ليال في الغياب.. يبحث عن أساور فضة لزنود البنت دندي لكي تتزين بها، تماماً كما رآها في الحلم تخشخش بها.. وتغني!!

تذييل أول

شكوكنا بأن شتيوي مات تضاعفت كثيراً.. فقد مضت، شهور عديدة، ولم يعد!! المجنون دمّر والديه بالحزن وهجر الديار، كما دمّر دندي بالقلق، وبجمر الانتظار!!

تذييل ثانٍ

بعد شهور قاربت السنة، عاد شتيوي. صار النبأ الطالع في القرية. جاء ومعه أساور الفضة. قال: ما كان لي أن أعود من بنت جبيل من دون أساور الفضة التي وعدت بها دندي! جاء فمحا دموع والديه، تماماً مثلما محا لوعة قلب دندي.. وخوفها من لوثة الغياب!!

تذييل ثالث

فيما بعد، عرفت منه أنه ذهب إلى بنت جبيل ماشياً لأنه لم يكن يملك أجرة الركوب. قضى أربعة أيام في الطريق حتى وصل إلى بنت جبيل، ومرض أربعة أيام أخرى، وحين تعافى جال في القرية بحثاً عن الفضة فرأى الأساور التي تخطف الأبصار سأل عن ثمنها، فوجده غالياً جداً، بالطبع كان غالياً لأنه لا يملك منه بارة واحدة! لذلك انخرط في العمل، اشتغل في البيارات، ونام فيها. اشتغل موسماً كاملاً، حتى هدّه التعب، وحين أخذ أجرته وجد أنها لا تكفي لشراء أساور فضة تملأ زند دندي.. لذلك عمل عند حداد من آل بيضون.. اكتوى بالنار، والحديد، واستنشق الرماد، ونفخ بالكور حتى انقطعت أنفاسه.. ظلّ يشتغل عند الرجل حتى وفّى المبلغ المطلوب.. وبه اشترى أساور الفضة للبنت دندي.. وعاد مشياً من بنت جبيل إلى الشماصنة! عاد ليرى حلمه يتحقق.. وقد تراصفت الأساور في زند دندي، وليسمعها تخشخش ملء أذنيه.. كلما دنت منه!!

* * *

ليـالي القمر..!!

قرب قرية الشماصنة، يقع قصر عطرة الخرب! قصر قديم من أيام الأيوبيين لسيدة أيوبية اسمها عطرة! القصر مواجه لجسر بنات يعقوب.. ويطل عليه مباشرة، حجارته بازلتية ضخمة جداً، وبواباته من الخشب المصفّح بالحديد، والمسامير الكبيرة، له نوافذ علوية ضيقة، وحواف غير منتظمة تلف القصر من جهاته كافة.. تحيط به أشجار السرو، والكينا العالية جداً، والحدائق المعشوشبة، وبيارات البرتقال والكريفون. وتأتي إليه دروب وطرق عديدة. وبالقرب منه مزار ديني لأحد الأولياء الصالحين اسمه (أبو الريش)، مزار له قبة خضراء، وغرف طينية عديدة لها ساحة واسعة تتوسطها نبعة ماء شديدة الدفق في ساقية جارية تنحدر نحو النهر مباشرة. وتحت القبة تماماً يوجد قبر طويل عريض، مغطى بطنافس متعددة الألوان، منها الأبيض، والأخضر، والأسود، وحول القبر سياج حديدي يحيط به على ارتفاع أعلى من قامة الناقة. وقد عقدت أشرطة خضر وسود كثيرة على قضبان السياج.. وإلى الجوار تتوازع المكان جرار الزيت، وكميات من القمح، والعدس، والشعير، والحمص، والبرغل، والملح، والطحين، والسكر، والذرة الصفراء.. موضوعة في قفف وسلال، وفي أكياس صغيرة وكبيرة؛ أكياس من الخيش والكتان، كما توجد أوان مملوءة باللبن، والحليب، والزبدة، والدبس، والعسل، والتين اليابس، والزبيب.. والخلق يتناوبون على الدخول والخروج!

هنا في قصر عطرة لا يسمع المرء سوى صفير الرياح، وحفيف الأشجار.. الواقفة كأنها حراس للمكان! وهنا في مزار (أبو الريش) لا يسمع

المرء سوى الأدعية، والبكاء، والأحاديث الحزينة، وضجة الناس، والعربات، وصخب الأولاد، وأصوات الماشية، ونباح الكلاب، ومواء القطط التي راحت تجوب المكان وقد شمت رائحة الشواء.

ثمة قيّمان هنا في مزار (أبو الريش)، عجوزان يعيشان في إحدى الغرف الملحقة بالمزار، يقومان على خدمة المزار والناس معاً. يأخذون الهبات، والنذور، فيرتبونها داخل مستودع ملحق بالمزار، كما يقومان بمساعدة الأهالي، والنسوة بخاصة، على ذبح الخراف التي جئن بها كنذور للولي الصالح (أبو الريش)! فالأهالي يأتون إلى المزار في يومي الجمعة والاثنين، فيزدحم المكان، ويضيق على الناس بينما يقل عدد الحضور في أيام الأسبوع الأخرى.

في هذين اليومين، الاثنين والجمعة، يحتشد الناس.. أصحاب النذور، والحاجات، كما يحتشد المساكين، والمجانين، والغرباء، ومعهم تأتي الكلاب والقطط.. فهنا يأكل الجميع ويشربون ويأخذون جزءاً من الهبات التي يوزعها الناس عليهم. وفي هذين اليومين تمر قطعان الماشية بالمزار، والرعيان يماشونها وهم يعزفون على ناياتهم.. وكأنهم في عرض عسكري. يمرّون بالقطعان قرب المزار طالبين من الولي الصالح (أبو الريش) أن يحميها من الوحوش، والضياع، والغرق، والمرض الأصفر! أسبوعياً، تمر قطعان الماشية بالمزار يومي الاثنين والجمعة، طلباً لبركات (أبو الريش). وحين تموت دابة، أو تغرق، أو تضيع، يتناسل أهالي القرى الأحاديث والحكايات.. فيقولون بأن الدابة لم تمر بالمزار، أو أن الراعي لم يدعُ، أو أن الولي كان يقرأ في القرآن الكريم منصرفاً إلى عبادته، ومنقطعاً عن الدنيا وأشغالها!

وإلى الجوار من مزار الولي الصالح (أبو الريش) يوجد منفسح طويل عريض من العشب! منفسح أشبه بحقل وسيع يجاور النهر تماماً، ويحاذي مخاضة (أبو الريش) الشهيرة، هذه المخاضة الشبيهة بالمعبر، حيث يستطيع

الناس أن يعبروا النهر على أقدامهم، فمياه المخاضة قليلة، وأرضها صخرية عالية، كثيراً ما تكون زلقة وخطرة، وعادة لا تغمر المياهُ المرءَ إلا إلى منتصفه تقريباً، مهما اشتدت حدّة النهر أو عنفت اندفاعاته المتتالية!

هذا المنفسح العشبي، وفي أوقات الصيف، وحين يكون القمر بدراً، يمتلئ بالنساء، نساء يأتين إليه من القرى، والمدن القريبة والبعيدة في آن معاً، يأتين منذ الغروب.. وبين يدي كل واحدة منهن صرّة فيها ثوب أبيض ومشط، وملح، ونعناع بري، وطعام، ورمل! وما إن يصلن إلى المنفسح العشبي الذي لا يدخله الأطفال والذكور بتاتاً.. حتى تحلّ النساء جدائلهن، فتراهن جميعاً.. يتعاونَّ على تمشيط رؤوس بعضهن بعضاً، وسط غناء متواصل، يدور حول الأولاد، والخصب، والسعادة، والربيع، والماشية، والحروب، والبيوت، والبحور، والطيور، ومواسم الغلال. وما إن ينتهين من مشط شعرهن، حتى يرمين أثوابهن السود والملّونة، ويلبسن الأثواب البيض، فيصير المنفسح العشبي كحقل من القطن المندوف، أو كحقل من الغيوم البيض. ومن دون ترتيب تتنادى نساء كل قرية أو مدينة على حدة، فينهضن، ويتوجهن بهدوء نحو مخاضة (أبو الريش).. ويشرعن في رمي كميات الرمل التي أحضرنها في قاع المخاضة لكي تُغطى طبقتها الصخرية الزلقة، ثم ينزلن إلى الماء واحدة واحدة متشابكات الأيدي بعد أن تركن صرر الملح، وجرز النعناع البري على ضفة النهر.. وفي داخل المخاضة يشكلن حلقة واسعة.. ويبدأن بتناول صرر الملح وجرز النعناع من امرأتين ظلّتا قرب ضفة النهر. واحدة تناول واحدة.. حتى تنتهي صرر الملح وجرز النعناع البري، وهن في غناء منتظم، واحدة تغني.. والأخريات يرددن غناءها كلما أنهت مقطعاً منه. ثم يطبق الصمت فجأة.. فلا يسمع إلا صوت الماء المندفع، وحفيف القصب. عندئذٍ تشرع النساء بغسل صدورهن بالماء والملح، وبدعكها بأعواد النعناع البري.. وكل واحدة منهن تتمتم وتدعو الله أن يمنَّ عليها بالولد السعد! وحين تستيقظ المواجع والهموم والأحزان والمخاوف.. يبكين! فتُسمع النهنهات،

وتعلو همهمات الأنوف. ولا يطول الوقت عليهن. فيخرجن واحدة واحدة.. وينتشرن مترادفات وراء بعضهن بعضاً على ضفة النهر.. وكأنهن طيور من البط الأبيض، فيصرن سياجاً أبيض للنهر المندفع في العتمة الفضية. يمشين حافيات، بشعرهن المبلول، وأيديهن المرفوعة إلى السماء، وشفاههن اللاهجة بالدعاء! فقد جئن إلى هنا طلباً للخصب، كي لا يكن شجراً بلا ثمر!

وما إن يعدن من نشورهن.. حتى يخلعن أثوابهن البيض المبلولة، ويلبسن أثوابهن التي جئن بها، ويجلسن متجاورات فتقوم كل واحدة منهن بتمشيط شعر رفيقتها، وما إن ينتهين حتى تُفرد الأطعمة.. فيشرعن بالأكل، والحديث،.. والغناء.. ثم يعدن!

الحاشية الأولى

في ليالي الشتاء،، وحين يكون القمر بدراً، يقوم شبان القرى الذين لم يعرفوا الزواج بعد، بالتنكر، بعضهم يدهنون وجوههم بالأصبغة، وبعضهم يطلون وجوههم بالفحم، وبعضهم الآخر يلبسون أقنعة من الخيش، أو الكتان، ثم يخرجون وقد ارتدوا ملابس غير اعتيادية، ملابس عريضة وغريبة، وبين أيديهم صوان من النحاس يدقون عليها، فتصدر الأصوات العالية التي لا يقطعها سوى غنائهم المشترك، وفي مقدمتهم يسير اثنان منهم، وبين أيديهم أكياس من الخيش الفارغة، ومن ورائهم حشد من أطفال القرية يقرعون، ويضجون، ويغنون أيضاً. يمرّ الحشد بالبيوت بيتاً بيتاً، يقفون أمام الأبواب وهم يغنون:

أم الغيــــث غيثينـــــا   **حلِّــي الكــيس واعطينـــا**

عنيزتـــــي جوعانـــة   **وغنيمتــــــــي بردانـــــة**

وســقف البيــت واطــي   **والله مــــــع العـــــاطي**

*　*　*

أم الغيـــــث غيثينــــا حلّـــي الكـــيس واعطينـــا
اللــي تعطــي بالغربــال يـــــصبّح ابنـــــها خيّـــال
واللــي تعطــي بالمنخــلّ يـــــصبّح ابنـــــها يـــــدخل

فتخرج صاحبة البيت، وبين يديها كمية من القمح، أو الشعير، أو العدس، أو الجلبانة، أو الحمص، أو الذرة، أو الخبز.. فينفتح الكيس أمامها، فتُسقط ما وهبته في داخل الكيس، ويظل الشبان، والأطفال يغنون أمام البيت.. فلا يتحركون إلا بعد أن يُرشقوا بالماء من فوق السطوح.. تيمناً بقدوم المطر!

وما إن يدور الشبان على جميع البيوت، وهم يجمعون الأعطيات، حتى يعودوا إلى أمام أحد بيوت القرية الذي اختاروه.. وهناك تقوم صاحبة البيت، بإخراج قدرها النحاسي الكبير، وكمية كبيرة من الحطب، وتشرع بإشعال النار.. لطبخ ما وهبته بيوت القرية، والشبان من حولها يغنون، ويتحدثون، ويهرجون، ويصخبون.. وما إن ينضج الطعام العجيب.. حتى يكون أهالي القرية كلهم تقريباً.. قد وصلوا إلى ذلك البيت، وبأيديهم الصحون.. فيأخذ كل منهم نصيبه من الطعام.. الذي يعدونه طعاماً مباركاً.. فيأكلونه بشهية بالغة، وعادة ما ينتهي حضورهم برشق الماء مجدداً من فوق السطوح، من قبل صاحبة البيت وأولادها، فينفضون عائدين إلى بيوتهم وقد تبللت ثيابهم.. تماماً!

الحاشية الثانية

في ليالي الخريف التي يكون فيها القمر بدراً.. تخرج نساء القرية وصباياها،.. إلى النهر حالما ينام الصغار، يخرجن مخلفات رجال القرية وشبّانها في البيوت.. وبين أيديهن أصابع الشمع وأعواد البخور، وقطع الخشب المرققة.. وقرب ضفة النهر.. يشعلن أعواد البخور فتتعالى الروائح الزكية.. وتنتشر دوائر الدخان.. لتشكل طبقة متداخلة فوق صفحة النهر؛

طبقـة تتخللهـا أشـعة ضـوء القمـر، فتـشكل هـالات مـن النـور المـدهش، والتـي تزيـدها اتـساعاً تحويمـات الهـوام الكثيـرة. لحظتئـذٍ، لا تكـون دوائـر الـدخان سوى غباشة فوق مرآة النهر الصقيلة الواسعة!

بعد ذلك تشرع النسوة بإيقاد الشموع، وتثبيتها فوق مربعات الخشب الرقيقة، ثم يدفعنها بهدوء نحو صفحة الماء الراكدة، فتمشي الشموع متجاورة مع ماء النهر، بعضها يسند بعضاً، تتحدر حيث ينحدر النهر، وتعلو وتبين حيث يعلو ويبين، وهكذا تفعل بقية القرى المنتشرة على ضفة النهر، فيبدو النهر في تلك الليلة أشبه بمرآة طويلة جداً تتلألأ فوق صفحتها الشموع.. مثل النجوم!

وبينما الشموع تماشي النهر وترافقه، تجثو النساء قبالة النهر تماماً، ويشرعن بالدعاء الطويل، وهن على قناعة تامة أن الدعاء سيجاب مادامت الشموع سائرة على صفحة الماء، وموقدةً.. لم تنطفئ بعد!

الحاشية الثالثة

وفي الليالي التي يكون فيها القمر بدراً، تكون المرأة الحامل محظوظة، وصاحبة بركة وحظوة، إن هي ولدت في إحدى هذه الليالي، فجميع المواليد الذكور يسمّون بدراً، وجميع المواليد الإناث يسمّين بدرية! ويصبح هؤلاء المواليد أصحاب حظوة في القرية، فالذكور يُراقبون من قبل رجال القرية وشيوخها لقناعتهم بأن أحد المباركين الجدد سيكون من بين هؤلاء المواليد، وأنه سيكون الشفيع للقرية والحارس لها، والإناث يُراقبن من قبل النساء والعجائز في القرية فيتسابقن إلى اختيارهن زوجات لأبنائهن لقناعتهن بأن هؤلاء الإناث هنّ من سينجبن الأسياد والمباركين، ولكي تميّز هؤلاء الإناث، تبادر أمهاتهن إلى وضع خزام رفيع من الفضة في أنوفهن، وهن صغيرات. أما الذكور فيقوم الآباء بضرب وشم على شكل أسوارة على رسغ اليد اليسرى لكل منهم حين يصبحون في العاشرة من أعمارهم، إشارة منهم إلى أن هؤلاء

الأطفال هم حملة الأسرار، والخير، والعلم، وهم حماة الأخلاق أيضاً! غير أن الواقع كان كثيراً ما يجعل من هؤلاء أصحاب الأساور الموشومة على الأيدي اليسرى قطّاعاً للطرق، وفاسقين، وفاجرين، وعصاة، وعاقين لأهلهم.. كما يجعل من هؤلاء البنات المخزومات بنات لا حظ لهن، ولا مكانة، بنات يتهمن بالميلان، والحيدة عن الأخلاق، والقبول على نزوات النفس وشهواتها العاطبة!

تذييل أول وأخير

شتيوي كان يعرف جيداً أنه بحضوره قرب النهر يفسد خلوة النساء، ومع ذلك كان يحضر لعله يحظى برؤية دندي! دندي الغارقة في الدعاء إلى الله أن يجمعها به، وأن يجعل له حظوة في عيني والدها. يتوارى شتيوي بين أجمات القصب، ونباتات الحلفا الطويلة، وأعواد السعد المتشابكة، غير عابئ بوجود الزواحف، والحيوانات في داخلها.. يصير جزءاً منها فتخافه وتبتعد عنه. يراقب النساء، وهن يدخلن إلى النهر بلباسهن الأبيض، ويسمع الأدعية، ويبكي معهن حين يتعالى نحيبهن، يبكي وهو يرى دندي تبكي، وقد شخّصها من بين رفيقاتها، صوتها هو الذي يقوده إليها ليعرفها، ويراقبها.. يراها تدخل إلى النهر.. فتصير جزءاً منه، ويسمع بحة صوتها الذي يناجي الله، فيرن اسمه في أذنيه، فتهيج مشاعره، وينفر الدمع من عينيه. فيعي أن دندي تجيء إلى النهر، في الليلة المقمرة.. من أجله هو، لا من أجلها. يسمعها تدعو، فيفتح كفيه في مخبئه.. ويهمهم (يا رب)! ويباريها ماشياً حين تمشي مع رفيقاتها.. على طول ضفة النهر متمنياً لو أن الله يحجب بكفه الكبيرة.. هؤلاء النسوة كلهن بعيداً عنه.. ليلتقي دندي، فيصيران وحيدين على ضفة النهر، في الليلة المقمرة.. يعدوان، ويصخبان، ويستحمان.. كالأطفال! لو أن الله يقرّب إليه دندي أكثر فيأخذ كفها في كفه بعيداً عن عيون النساء.. فيماشيها طوال الليل يحكي لها، وتحكي له.. تأخذه إليها، ويأخذها إليه.. فلا يعود بها إلى البيت إلا وقد ابتل وإياها بندى الفجر.. العميم!

خطبـة دندي..!!

في ضحوة النهار،

جهّـز غطـاس العربـة، وجـاءني مـستأذناً لكـي يـذهب إلـى الـشماصنة. فخرجت إليه، وذهني مشغول بأخبار الإنكليـز واليهود وشتيوي ودنـدي. فقد كانت أخبـار الأمس كحليـة أو تكاد. ومـا إن أشـرفت علـى سـاحة الـدير حتـى رأيتهـا مـلأى (بمغمقانـات) الـورد! بـدت لـي في منظـر لا أبهـج منـه ولا أحلـى، مغمقانات من القش المصبوغ بـالألوان اصطفت بمحـاذاة بعضها بعضاً وهـي ملأى بألوان عديدة من الورد الجوري!

كنـتُ قـد رأيـت، منـذ الـصباح البـاكر، نفـراً مـن نـساء الـشماصنة وصـباياها يـأتين إلـى الـدير، يـصعدن الـدرب مترادفـات، وفـوق رؤوسـهن مغمقانات القش الملأى بالورد. جئن إلى الدير، ووصلن إلـى الساحة، فوهبن الـورد، والمغمقانـات، وكميـات مـن الـسكر.. للـدير، ثم مـضين عائـدات إلـى القرية. لقد جئن بالورد من أجل أن تصنع الراهبات منه مربى الـورد اللذيـذ. كانت واحدة من نساء القرية، قد جاءت إلـى الدير قبل سنوات، ومعها كمية من الورد والسكر. قالت: هـذا الـورد والـسكر للدير. أريد أن أعلّم الراهبـات صناعة مربـى الـورد. ففرحـت الراهبـات بهـا، وتحلقـن حولهـا بعـد أن أعـددن قدراً نحاسياً كبيـراً مـلأنـه بالمـاء، وأشـعلن النـار تحتـه. ومـا إن غلـى المـاء حتـى أضافت المرأة إليه كمية من السكر، وبعد وقت لم يكن قصيراً أسـقطت أوراق الورد في القدر، وراحت تحـركها، ثم انتظـرت وقتـاً آخـر.. حتـى تأكـدت مـن أن

أوراق الورد أخذت تنعقد على الماء المغلي المحلى بالسكر. بعدئذٍ.. انتشلت المربى، وصبته في صواني النحاس.. وقالت للراهبات، حين يبرد المربى، تماماً.. يوضع في الأواني، ويُغلق عليه، ويخزن في الداخل.

انحدرت بنا العربة نحو الشماصنة، عبر الدرب الترابي الضيق المحاط بالأشجار الكثيفة. رأيت الطيور، تحلق في السماء مشكلة حلقات بديعة. كما رأيت قطعان الماشية منتشرة في المنفسح الوسيع، فتبدو وكأنها جزء من جمال المكان. وحاذينا النهر، فرأينا النساء يغسلن الثياب، والصوف، والبسط، والأواني، وبالقرب منهن بعض الأطفال الذين بدوا، على غير عادتهم، هامدين لا ضجيج لهم ولا صخب، ولا أدوار للعب يتبادلونها! فأتذكر أخبار الأمس، وأهزّ رأسي، وأصلي! لكأن هؤلاء النساء لا يحفلن بما حدث في الأمس، أو لكأنهن يقابلن أخبار الموت بالقبول على الحياة!

لم أمض نحو بيوت القرية، وإنما مضيت نحو الكروم، فقد علمت أن أصحابها بدؤوا بفلاحتها. مضيت نحو كرم سمعان، والد دندي، لأتأكد فعلاً إن كان سمعان قد جنّ أم لا! فقد جاء إليَّ في وقت متأخر من ليلة الأمس، والد شتيوي باكياً، قال لي: سمعان أمسك بشتيوي قرب بيته. كان يحوّم كطير طريد، يريد أن يرى دندي. أمسك سمعان به فجأة، فاقتاده إلى داخل البيت، وهناك قام بتقييده من يديه، ورجليه وكأنه دابة! ربط يديه بحبل، وقيد قدميه بقيد حديدي هو قيد بغلته. وأخذه إلى إحدى بوايك دوابه ورماه فيها، وقد حلف ألف يمين بأنه سيقرنه في الصباح مع البغلة ويفلح عليه في كرم العنب!! وحين سألته كيف عرف ذلك، قال لي إن أهالي القرية كلها يعرفون ذلك، وقد جاء بعضهم إلى سمعان بعد أن شاع الخبر لكي يفك قيد شتيوي إلا أنه رفض بشدة، وأبدى شراسة لم يعتدها أحد منه. كان في حالة غضب عجيبة، يلعن، ويشتم، ويصول على الناس بشاعوب البيدر إلى أن انفضوا من أمام بيته! وقد علمت من والد شتيوي أنه قبّل رأس سمعان

مرات عديدة أمام الناس لكي يصفح عن ابنه إلا أنه رفض. وقال له إنه سينفذ يمينه ويفلح على شتيوي، أمام خلق الله جميعاً! وعلمتُ كذلك أن دندي لم تنجُ من أذى سمعان أيضاً، فما إن انفضّ الناس من حول بيته، حتى علا صياحها، وصراخها، وبكاؤها، كما علا صراخ أمها.. وأخواتها وبكاؤهن! تحلف دندي بأنها لم تواعد شتيوي، وأنها لم تره في النهار، وأبوها لا يصدقها، فيقسو عليها، ويضربها دونما رحمة أو شفقة، فتهبّ أمها وأخواتها بتخليصها من بين يدي سمعان الذي أعمى الغضب بصيرته وبصره، فيضرب الجميع دونما تفريق، ويلعن البيت، والبنات، والقرية، وساعة تفكيره بالزواج.. ويعلن بحرقة وأسى أن دندي جلبت له العار، والمذلة، وأنها قصّرت رقبته بين الخلق، وقد صارت سيرة على كل لسان! ويهمهم بأنه لولا مخافة الله، لذبحها على ركبته، أو لخنقها وهي نائمة، أو لرماها في النهر لتصير طعاماً للسمك! لكن مخافة الله تمنعه!

مررتُ بكروم عديدة، وعرائش من القصب، وخلق يعملون في حقولهم. كنت أقابلهم بالتحية، فيرفعون أيديهم ملوحين لي وقد عرفوا عربة الدير فأرفع يدي لهم وأحييهم. كنت أسمع غناء بعض النساء، وأصوات الرجال المتداخلة، كما أسمع خرير النهر، وهو يهوي بمائه الدافق نحو المخاضات، وتتناهى إلى مسمعي أصوات أجراس قطعان الماشية، وعزف الرعيان.. وضجيج المطاحن ومعاصر الزيت كانت جميعها تصل إليَّ لا رنّة فرح فيها، ولا انشراح، لعل روحي المألومة، بسبب ما يحدث، هي التي تولّد في نفسي مشاعر الحزن والأسى.

ومن بعيد، وقبل أن أصل إلى كرم سمعان، والد دندي، رأيت ما أذهلني حقّاً، فسمعان يفلح على شتيوي فعلاً. إنه يقرنه مع البغلة، يضع النير على كتفيه.. ويجلده بالسوط لكي يحاذي البغلة ويماشيها، بدا لي شتيوي.. في مشهد لا أقسى منه ولا أوجع للقلب! حثثت غطاس على الإسراع كي أصل إلى

سمعان، هذا الرجل قاسي القلب، الذي يهين شتيوي فيساويه بالبغلةّ. وصلت إليه، فوجدت ما يتمم المشهد أسى وقسوة، فقد رأيت دندي تمشي وراء أبيها، وقد ربط يديها إلى حبل طويل مشدود إلى طرف المحراث، كانت تمشي وراءه حافية، باكية، وقد أكل الشوك قدميها، وأمها في الطرف البعيد.. تبكي! لا حول لها ولا قوة. حين رآني سمعان، أوقف البغلة، فتوقف شتيوي، كما توقفت دندي، وعلا بكاؤها، ونهضت أمها وتقدمت نحونا مسرعة، وهي تشير إلى العربة متخوفة من أن أمضي بالعربة دون أن أتوقف عندهم. المسكينة ما كانت تدري أنني أجيء إلى الكروم من أجلهم تحديداً.

أوقف غطاس العربة، فنزلت مسرعاً، ومضيت نحو شتيوي لا نحو سمعان الذي اندفع لملاقاتي بوجهه الأصفر، وعينيه الزائغتين. وحين وصلت إلى شتيوي، شرعت بفك النير عن كتفيه ورقبته، ورفعت الحبال بعيداً عن ذراعيه وصدره، وجررته نحوي.. بينما تعالى صوت سمعان:

- «سامحني يا سيدي، شتيوي فضحني بين الناس، في النهار والليل يجول حول البيت يطارد دندي.. وكأنه لا يوجد في الدنيا بنات سواها»!

وأراه يركع أمامي، فأحار ماذا أقول له. أأنهضه وأسامحه، أو أوجعه بالكلام! وقبل أن أصل إلى قراري رأيت شتيوي ينحني عليه، وينهضه، ثم يأخذه إلى صدره غامراً إياه بكلتا ذراعيه، وبينما هما على هذه الحال، أتركهما وأمضي نحو دندي وأمها التي راحت تفك الحبل الذي يشدّ يديها إلى طرف المحراث، فأساعدها على فك عقد الحبل، وما إن ننتهي من الحبل حتى أراها ترتمي في صدري، وهي تهمهم على مسمع من أبيها:

- «شتيوي بريء، يا سيدي، لا يريد مني شيئاً سوى رؤيتي. أحبه ويحبني. أبي هو الذي يفضحنا»!

وتغرق دندي في بكائها الضاج، ونحيبها المتواصل. وأرى أمها تبكي أيضاً كأنهما فقدتا القدرة على الكلام. وأرى شتيوي يواقف سمعان، وينظر

إليه، وسمعان ينظر إليَّ كمن يودّ التكفير عن ذنبه! وبينما نحن كذلك رأيت والد شتيوي وأمه يندفعان نحونا، والدمع ملء عيونهما. اقتربت من سمعان ونظرت إليه نظرة عطف، وأخذت معي دندي وأمها، وشتيوي الذي هرع نحو والديه لملاقاتهما. صعدت دندي وأمها إلى العربة، وصعدت أيضاً، وقبل أن تمشي العربة قلت لسمعان.. حين تنتهي تعال إليَّ! فهزّ رأسه بالإيجاب،ثم استدار نحو المحراث.. والبغلة، ومضى إليهما، وبالقرب من شتيوي ووالديه أوقف غطاس العربة، فصعدوا إليها، ومضينا جميعاً نحو القرية!

الحاشية الأولى

في المساء،

جاءني سمعان، والد دندي، بدا حائراً أشبه بالمخنوق. سألني، ما العمل؟! وكيف يتصرف مع شتيوي وابنته؟! شتيوي الذي صار كابوساً موجعاً، يطارده في الليل والنهار! وحين يراني صامتاً، يضيف:

- «شتيوي يا سيدي دمرني بين الناس، ثلم شرفي. خان العشرة والجيرة. جعلني لا أدخل مجلساً للناس، صغّرني بين الخلق. لا حديث، ولا كلام في القرية إلا عن ابنتي! والله يا سيدي لولا معرفتي بأخلاق ابنتي، لرميتها في البئر منذ عرفت قصتها مع شتيوي، والله لولا محبتي لها ومعرفتي بها لرميتها من فوق السطوح، أو لأغرقتها في النهر. دندي أنظف من العين يا سيدي،.. بنتي وأعرفها! لا أدري من أين نبت لي شتيوي أفندي.. وراح يحكي للناس عن غرامه بابنتي، أرشدني يا سيدي. قل لي ماذا أفعل»؟!

قلت بهدوء شديد:

- «يا سمعان، شتيوي محب، وطالب قربك، وهو عفيف، وابن ناس، تماماً مثلما هي ابنتك، زوجهما يا سمعان، وادعُ لهما بالخير»!

فينتفض سمعان في مجلسه. يصرخ وكأنه فقد صوابه:

- «وماذا سيقول الناس عني يا سيدي؟! أداري على فضيحتي، أسترها، أأجعل الناس يصدقون بالدليل والبرهان أنني أستر فضيحة ابنتي.. مع فاضحها؟! لا يا سيدي، أرجوك. أقتُلُها، أو أتركها من دون زواج طوال حياتها، ولا أعطيها لشتيوي! إن أعطيتها له يا سيدي.. سيلحقني العار.. طوال حياتي، وسأورّثه لأولادي أيضاً.. أرجوك يا سيدي»!

قلت:

- «إذن، زوّجها من آخر وبموافقتها»

قال، وقد رقّ صوته ونحل:

- «ومن يقبل الزواج بها، يا سيدي، وقد صارت سيرتها حديث الناس»؟!

قلت:

- «دع الأمر لي سمعان. وإياك أن تعود إلى مثل ما فعلته مع شتيوي. أتفهم»؟!

قال:

- «أفهم»!

ثم نهض، ومضى عائداً إلى بيته!

الحاشية الثانية

أمس. قضيت النهار بطوله متنقلاً ما بين القرى مواسياً الناس.. الذين دفنوا ذويهم بعد حادثة (البوسطة) الشنيعة. كانت (البوسطة) عائدة من قرية الخالصة في الشمال، وقد امتلأت بالركاب والبضائع، متجهة نحو الجنوب. كان الناس قد قضوا شؤونهم في سوق الخالصة، وعادوا في الرحلة المسائية

الوحيدة (للبوسطة). وعند قرية (الدوارة)، وبالقرب من المقلع الحجري، نُسفت (البوسطة). طار بها لغم أرضي قسمها إلى نصفين، فاشتعلت النيران بها، مات من مات، واحترق من احترق، وجرح من جرح! قتل السائق، وثمانية أنفار، وجرح الباقون! وتوزع الحزن على القرى، والبيوت، والناس! وقد شاعت أخبار تقول إن الإنكليز فجروا (البوسطة) لاعتقادهم بأنها تحمل عدداً من الثوار والأسلحة، كما شاعت أخبار تقول إن أيدي اليهود كانت وراء العملية لكي تحدّ من حركة الناس في منطقة الجليل! وسمعت أن الإنكليز واليهود معاً نفوا علاقتهم بالحادثة، وكأن الشيطان هو من قام بهذه العملية البشعة!

ليلاً، دفن الأهالي ذويهم وودّعوهم! كنت والشيخ المصباحي ننتقل من قرية إلى أخرى، ومن بيت إلى آخر.. فأحسسنا معاً بحجم الألم والأسى اللذين قرَّا في النفوس، وخوف الناس وقلقهم من الأيام القادمة، وسمعنا أقوال الناس المُجمعة على أن الحال باتت لا تطاق، وأن لا سبيل أمامهم سوى المواجهة، وتهديد اليهود في (الكبانيات)، ومهاجمة الإنكليز في معسكراتهم، وترصد دورياتهم على الطرق. كان الحزن هو الوجه الذي قابلنا في القرى والبيوت التي دخلناها!

الحاشية الثالثة

جاءني شتيوي في الصباح!

رأيت بين يديه قنينة زيت. كان يشدها إلى صدره وكأنها كتاب. بدا منكمشاً على نفسه. يتحرك ككتلة واحدة. أطرافه لا تهتز، ووجهه مغلق. لا شيء يتحرك فيه سوى عينيه!

قال:

- «اعذرني، يا سيدي، إن بكرت في المجيء.. هذا الزيت من المعصرة، جئت به إليك. إنه أول زيت الموسم»!

وصمت شتيوي. وراح ينظر إلـيَّ، فمددت يدي نحـو كتفه القريبـة منـي وهـززته وأنا أبتسم له، وقلت:

- «ماذا وراءك يا شتيوي..» ؟!

قال:

- «دندي..» !

قلت:

- «دندي أيضاً»!

قال:

- «دندي.. يا سيدي»!

قلت:

- «ما بها..» ؟!

قال:

- «ساعدني.. لكي أتزوجها»!

قلت:

- «كيف»؟!

قال:

- «لا أدري»!

وحين رآني أحني رأسي على صدري، وأسبل عيني، أضاف:

- «أخاف من سـمعان عليها، يا سـيدي! لقـد رأيتـه ليلـة البارحـة في الحلم.. يقطّعها، ويضع لحمها قطعة قطعة في كيس خيش. رأيت الـدم يسيل من الكيس، ورأيت ثيابه مبللة بالـدم أيضاً، وحـين تابعتـه وهـو يحمل الكيس، رأيته يرميه في النهر.. قرب قصر عطرة، عند مخاضة (أبو الريش) تماماً»!

قلت ممازحاً:

- «لعله فعلها يا شتيوي! ما أدراك»؟!

قال مبتسماً:

- «لا يا سيدي، لقد رأيت دندي قبل أن آتي إليك؛ فقد أكملت القسم المتبقي من ليلة الأمس أمام بيتهم، وقد ظننت أن ما رأيته.. حقيقة وليس حلماً! ولم أتيقن من أوهامي، إلا عندما رأيت دندي في الصباح، تطرد ماشيتهم باتجاه الراعي (أبو العيس). رفعت لها يدي ملوحاً، فنظرت إليّ وابتسمت. لم تتجاسر على رفع يدها. ذبحها الخوف يا سيدي.! أشرت لها أن نلتقي قرب نبعة الماء.. فوافقتني. هزّت رأسها، واستدارت عائدة إلى البيت، فاستدرت أحث الخطا نحو نبعة الماء. وحين جاءت.. واقفتها. وأخبرتها بالحلم.. فبكت! قالت لي صارت حياتنا أشبه بالكابوس، وسألتني أن أنقذها! فهل أخطفها وأهرب بها إلى الدير، إلى هنا.. يا سيدي»!

فاجأني شتيوي بطلبه الذي لم أكن أتوقعه! ولم ألمه، فقد ضاقت به السبل.. فما عاد يدري ما الذي يفعله لكي يظفر بدندي! ولم أجب شتيوي جواباً شافياً. لقد ريّثته، وطلبت منه أن يصبر قليلاً؛ حتى نجد مخرجاً لمشكلته مع سمعان. وأخبرته بما دار بيني وبينه، وقلت له إن سمعان يخاف كلام الناس إن زوَّجه دندي! وأنه محتار بنفسه كما هو محتار الآن بأمره أيضاً! وما على الجميع إلا الانتظار فلكل مشكلة حل! وصارحني شتيوي بأنه يكاد ينفجر أو يطق وهو يحس بأن الدنيا كلها تقف في مواجهته وتناكفه، فأبوه لا مال عنده ولا ماشية، كل ما يملكه هو قطعة أرض، ولولا جنونه بالأرض ومحبته لها لباعها منذ زمن بعيد وأكل بثمنها ولبس. وأن الحظ لم يخدمه فهو بلا إخوة، بلا عزوة، وحيد لوالديه! كما أن الحظ لم يخدمه حين تعلق قلبه بدندي؛ دندي التي لها أب رأسه أقسى من حجارة الصوان!

ويظلُّ شتيوي يحكي، وأنا أستمع إليه، فأصبّره، وأدعوه أن يقوّي إيمانه، وأن يحدَّ من اندفاعاته، ومغامراته، وألا يحرج سمعان ودندي أكثر.. وأن يكون هو عوناً لنفسه كي ينجو من التجربة!

الحاشية الرابعة

لم أدر بالضبط من أشار على سمعان ليقبل بخطبة شتيوي لدندي، وأن يتقدم إليها على مرأى من الناس. لا أدري، بالضبط، من أقنعه بهذه الفكرة! فقد أرسل ابنه الصغير إلى والد شتيوي، وأخبره بأنه في حاجة إليه وعليه أن يقابله في كرم العنب، فجاء والد شتيوي إليه وهو يضرب أخماساً بأسداس. فدعوة سمعان له غريبة، فهي تأتي بعد مشاحنات، ومشاجرات عديدة! في طريقه إليه لم يقر في ذهن والد شتيوي سوى أمر واحد هو أن سمعان غاضب من شتيوي، وأنه قد يهدده بالقتل علناً، وأنه ما دعاه لملاقاته إلا ليخبره بهذا الأمر! لعل سمعان ما عاد يحتمل كلام الناس، أو تصرفات شتيوي الرعناء.. وقد نفد صبره، وهو بين اليوم والآخر يرى أعصابه تفلت فيلعن، ويسبّ، ويضرب، ويهيج مثل الوحش الجريح. لعله أراد أن يخلّص أسرته من عذابه لها، فقد راح يحس بأنه مكروه في البيت. زوجته تقابله بوجه عابس، وبناته يتحاشين الاختلاط به! كل هذا دار في مخيلة والد شتيوي.. فيهيئ نفسه لمشاجرةٍ ستكون عظيمة، ولتهديدٍ ما بعده تهديد، ولأخبار ستقصم ظهره! لكن الأمر لم يكن كذلك أبداً، فما إن وصل والد شتيوي إلى كرم سمعان، حتى لاقاه سمعان بالتحية الطيبة. صحيح أنه لم يبتسم له، ولم تنبسط أساريره، إلا أن لقاءه كان طيباً، ومفاجئاً لوالد شتيوي! جلس الاثنان في البداية صامتين إلى أن قال سمعان له، لقد أرسلت وراءك، يا كعدي، لكي نحل مشكلة شتيوي ودندي! فهزّ كعدي، والد شتيوي، رأسه، ورامش بعينيه، واستعد لكل ما توقعه من وعيد، وتهديد، وأذى!! فقال

سمعان: أريدك أن تجهز (جاهة) من رجال القرية، وتأتي لخطبة دندي لولدك شتيوي، ونفضُّ الأمر! فطار صواب كعدي، قفز في الهواء، وارتمى في صدر سمعان وراح يقبّله، ويهمهم، ويتمتم بكلمات متداخلة لا تفصح إلا عن شيء واحد فقط هو فرحه بمفاجأة سمعان الذي هداه الله أخيراً.. لكي يستر على ابنته وابنه معاً.

وحين هدأ كعدي، وعاد اللعاب إلى لهاته، قال لسمعان:

- «إنك تهبني ابني يا سمعان، وتمنحني دندي.. هدية»!

فيهزّ سمعان رأسه، ويبدي لوالد شتيوي بأن حديثه انتهى، فيسأله كعدي:

- «وما طلباتك.. يا سمعان، قل لي لأخبر ابني»!

فيجيبه سمعان:

- «طلباتي ستسمعها حين تأتي إليَّ.. أنت والناس«!

فصمت والد شتيوي، وأوجس في نفسه خيفة! فقد خاف أن يحمّله سمعان، هو وابنه، ما لا طاقة لهما به! ومع ذلك.. أخذ سمعان إلى صدره مرة أخرى، وقبّله، ثم استدار عائداً إلى بيته.. حاملاً الخبر الذي انتظره شتيوي وأمّه.. كثيراً!

وفي البيت، وحالما أخبر كعدي زوجته.. غرقت المرأة بالبكاء، وقالت لزوجها:

- «طار شتيوي! ودّعه يا كعدي»!

فاستفسرها كعدي مستغرباً، وسألها ماذا تقصد؟! فقالت:

- «سنفقد الولد!! لأن سمعان سيطلب مهراً غالياً لدندي..؛ مهراً لن تقدر أنت، ولا شتيوي على دفعه، وبذلك يحلّ رقبته من قبضة ابنته. ومن أجل المهر سيفني شتيوي عمره في جمعه. وحين يجمعه لن يجد دندي»!

وعلـى الـرغم مـن أن كعـدي كـاد يُـسلّم بمقولـة زوجتـه، إلا أنــه راح يصبّرها، ويطلب منها ألا تستعجل القضاء قبل وقوعه، أي قبل أن يعرفوا طلبات سمعان. وقال لها إن سمعان سيخجل من الناس، ولن يطلب مهراً لابنته إلا ما هو متعارف عليه في القرية! وحين علم شتيوي بالخبر.. طار من الفرح، وقال لوالديه المتخوفين.. ليطلب سمعان ما يشاء! المهم أن يقبل به زوجاً لابنته أمام الناس، وأن يريح دندي من العذاب الفظيع الذي عانته طوال السنوات الماضية! أي أن يقرَّ بحبهما!

لهذا.. نشط شتيوي، وأبوه بين أهالي القرية لكي يحشدوهم في يوم الخطبة، وقد جاءني شتيوي وأبوه، وأخبراني بموافقة سمعان. وطلبا مني أن أكون مع (جاهة) الأهالي، فاعتذرت. قلت لهما، دعا أمور الدنيا لأهلها! فتوسل إليّ كعدي، والد شتيوي، من أجل أن أذهب معهما، وأحضر الخطبة لأنه يتخوّف من طمع سمعان، كما يتخوّف من الفخ الذي أعدّه لابنه. وأن حضوري سيلجم سمعان ويحدّ من غطرسته. وأخبرني بهواجس زوجته. ومع ذلك ظللت على اعتذاري، فهب شتيوي، وارتمى على يديَّ وراح يقبّلهما، وقال لي:

- «اعتبرني ولدك، يا سيدي، فخذ بيدي»!

فأمهلتهما يومين، قلت لهما: أمهلاني لأفكر! فوافقاني، ومضيا مطمئنين إلى استجابتي لرغبتهما بعد يومين!

حين خرجا، فكّرت بالأمر طويلاً. تساءلت لماذا وافق سمعان على خطبة شتيوي لدندي بعد أن كان متمنعاً ورافضاً لهذه الفكرة من أساسها. فكرت طويلاً ولم أصل إلا إلى جواب واحد هو أن سمعان سيطلب مهراً غالياً يعجز عنه شتيوي، فتنتهي قصة حبه لدندي أمام الخلق جميعاً! لذلك.. تخوفت على شتيوي، وخفت من عتمة قلب سمعان.. فطلبت من غطاس أن يجهز العربة.. فجهّزها، وانطلقنا بها نحو بيت سمعان!!

حين وصلنا إليه. هبط غطاس، وأخبره بمجيئي، فخرج سمعان مرحباً. أخذني إلى داخل البيت، فطلبت منه أن يحضر أفراد أسرته جميعاً لأراهم، فجاء بهم، كانت وجوههم جميعاً مملوءة بالأسئلة. دندي جاءت بشراب الزعتر، وجلست عند عتبة الباب، فطلبت منها أن تأتي وتجلس بجواري في صدر البيت. وقلت لها إنني أجيء من أجلها! وإنني أخاف عليها من عماء قلب أبيها! فضحك سمعان، وقال:

- «لماذا تخاف يا سيدي»!

قلت:

- «أخاف من طلباتك يا سمعان،

إن جاء أهل شتيوي وخطبوا دندي منك»!

قال، وهو يتململ في مجلسه:

- «لن أطلب، يا سيدي، سوى حقي، وحق ابنتي»!

قلت:

- «تطلب ما يقدر عليه شتيوي وأهله»!

قال:

- «لن أطلب إلا ما يقدر عليه شتيوي وأهله»!

قلت:

- «ومن دون مفاجآت..» !

قال:

- «ومن دون مفاجآت»!

ونهضت مغادراً، وحين صرت عند العتبة، قلت لسمعان:

- «سآتي مع شتيوي وأهله يا سمعان.. فاجعل لي حظوة.. أمامهم»!

فهمهم:

- «أنت سيدي..» !

وقبل أن أستدير، أرخيت كفي على كتف سمعان، ولمحت طيف ابتسامة على وجه دندي.. وقلت:

- «على بركة الله»!

وخرجت!

الحاشية الخامسة

ما حدث.. توقعته!

فحين جلسنا في بيت سمعان، وبدأنا الحديث حول الخطبة، كانت الآراء تصب حول رجحان عقل سمعان، وسعيه إلى ستر ابنته بين الناس وبالحلال. وكان سمعان صامتاً، لم يتحدث حول الخطبة ولو بكلمة واحدة. كان يكتفي بالترحيب والابتسام، وقد رأيته على عادة أهل البيوت يجلس بالقرب من العتبة إلى جوار جرة الماء تماماً. بدا وجهه بشوشاً، رائقاً، لا اعتكار فيه، لا زرقة ولا صفرة، وجه أشبه بوجوه الأطفال!

ملت على الشيخ المصباحي، وقلت له:

- «يبدو أن الإيمان ملأ قلب سمعان»!

فقال:

- «الحمد لله..» !

وحين سأله الشيخ المصباحي عن طلباته، تحدث سمعان طويلاً عن ابنته، وعن شتيوي، وعن العذاب الذي عانى منه طوال سنوات عديدة، وهو إن قبل بالخطبة، فغايته أن يستر على شتيوي وعلى ابنته في وقت واحد، وإن

طلبه الوحيد هو أن يثبت شتيوي للناس جميعاً بأنه جدير بدندي، وقادر على دفع مهرها، وهو إن غالى في المهر قليلاً فهذا ليس إلا تعويضاً عن الأيام الصعبة التي عاشتها ابنته وأسرته بسبب ما لحق بها من كلام الناس وأذاهم لأنها على علاقة مع شتيوي! وصمت سمعان، فسألته عن المهر الذي يريده!

فنهض، ورفع بين يديه جرة الماء القريبة منه، رفعها إلى صدره، يبدو أنها فارغة، وتوسط حلقة الناس المجتمعين، وقال بوضوح:

- «أريد ملء هذه الجرة ذهباً.. مهراً لدندي»!

فغشينا الصمت جميعاً. وأخذتنا المفاجأة. لأن أهل القرى جميعاً، وليس أهل قرية الشماصنة وحدها، لو اجتمعوا واجتهدوا لما ملأوا هذه الجرة ذهباً مهراً لدندي.. أو لغيرها من البنات! وسرت الهمهمات، واشتعل الحوار مرة أخرى حول المهر، والأعراف، والتقاليد، وطاقة شتيوي، ومخافة الله، والسترة، والإيمان، والغلو في الطلب! إلا أن سمعان لم يتزحزح عن طلبه، فهو لا يريد من شتيوي سوى جرة من الذهب مهراً لدندي. فانفض المجلس، وخرج الناس ساخطين، لائمين سمعان الذي يركب رأسه بدلاً من قدميه! بينما خرج كعدي، والد شتيوي، باكياً!

المفاجأة الأخرى كانت أن شتيوي وافق على طلب سمعان بفرح شديد. جاء إليه، مع أبيه، وقال له:

- «أنا موافق على كل طلباتك.. اعتبرني جملاً، حمّلني ما تشاء»!

فقال له سمعان:

- «لا أريد سوى جرة الذهب»!

فوافق شتيوي، ووصف سمعان بالحكيم.. فهو لم يطلب الذهب مهراً.. لدندي إلا لأنها ذهب!

تذييل أول

فرحت برؤيتي لدندي، بين عدد من صبايا القرية اللواتي جئن إلى الدير للمشاركة في عيد البركة. انتحيت بها جانباً وسألتها عن سبب موافقة والدها على خطبتها من شتيوي! فبكت! هدّأتها، وانتظرتها حتى ضبطت انفعالاتها، فأخبرتني أن أمها حدثت أباها عن أساور الفضة التي جلبها شتيوي لها من بنت جبيل. أخبرته أن شتيوي قضى سنة أو أقل من أجل أن يحصل على ثمن الأساور، بعدما عمل في البيارات، والحدادة محبةً بدندي! كانت الأم تجهد وفي كل ليلة لكي ترقق قلب سمعان على شتيوي من أجل أن تستر ابنتها، وأن تجعل لقصة ابنتها مع شتيوي خاتمة! ولم تدر أنها بحديثها عن أساور الفضة، أوجدت لزوجها طريقاً للخلاص من شتيوي للأبد! لقد حسبها سمعان في عقله طويلاً، وارتاح لنتائج الحساب، فإذا كانت أساور الفضة احتاجت إلى سنة من عمر شتيوي حتى وفّر ثمنها، فإن جرة مملوءة بالذهب ستحتاج إلى عمره كله، وبذلك لن ينال دندي!.. وأنه لن يرى وجه شتيوي ثانية إذا ما رحل ليبحث عن الذهب! وأنه لن يظل تحت وطأة مفاجآته، وأحاديث الناس.. المُرّة المتكاثرة عنه وعن ابنته يوماً بعد يوم!

تذييل ثانٍ

لم تمض سوى أيام على خطبة شتيوي لدندي، حتى جاءني شتيوي طالباً بركتي ودعائي.. لأنه سيمضي إلى بنت جبيل ليعمل هناك، من أجل جمع مهر دندي!! حاولت أن أثنيه، أن أبصّره بأن المبلغ كبير، وأن هذا المهر ليس سوى مماطلة من سمعان؛ ليس إلا إزاحة له ونفي! فقال إنه يرضى بقدره، وإنه لن يعود إلى الشماصنة إلا ومعه الذهب الذي يملأ جرةً.. مهراً لدندي! وحاولت أيضاً أن أستعطفه على والديه العجوزين. فلمن يتركهما؟! وهل يتركهما من أجل دندي؟! فقال برضا: «لهما الله يا سيدي! سيعيشان

على الأرض، وعلى حاكورة البيت وقد أوصيت دندي بهما«! وقلت له، الغربة صعبة، قد يمرض هناك، قد يجوع، قد يموت، فقال إنه راض بقدره وما يرسمه له!

وغادرني شتيوي، مضى.. وملء عينيه الدموع، وحين ارتمى في صدري أحسست بخفق صدره، وارتعاشة شفتيه، وما كان لي إلا أن أباركه، وأدعو له.. فانفلت من بين يديَّ كطائر يُطلق سراحه فجأة!

تذييل أخير

كانت الأيام.. ملأى بالأحزان، والموت، والقتل، والأخبار الموجعة. فقد كثرت (الكبانيات) من حولنا، وتجاسر الإنكليز واليهود أكثر، راحوا يدهمون الدير بين حين وآخر، وفي الليل والنهار، يجوبون أروقته، وغرفه، ومستودعاته بحثاً عن الثوار الذين أوجعوهم بضرباتهم المفاجئة، بعد أن استباحوا القرى، وبعد أن نسفوا مراصد المراقبة فوق التلال، وعلى مشارف الأودية، وعند مفارق الطرق!

وشتيوي لم يعد!

ودندي تنتظر!

سألتها مراتُ عديدة، وأنا أزور القرية، أو حينما أراها هنا في الدير إن كانت تعرف شيئاً عن أخبار شتيوي. فتهزّ رأسها نافيةً، وتتساقط دموعها مثل المطر! فلا أخبار عن شتيوي! أهله لا يعرفون عنه شيئاً. لقد أوصوا الكثيرين، ممن يذهبون إلى الخالصة، أو إلى بنت جبيل، أو إلى صيدا وصور، أن يسألوا عنه، لكن أسئلتهم ظلت أسئلة لا أجوبة لها؛ أسئلة أشبه بالأجراس التي لا تكف عن الرنين الحزين!!

*   *   *

الشيخ المصباحي..!!

لم أكن في الشماصنة، حين فعل سمعان فعلته مع شتيوي! علمت بذلك بعد أن عدت من القدس! قالوا إن سمعان فلح على شتيوي لأنه يتودد إلى ابنته، فشعرت أن الرجل فقد صوابه، وأنه بحرصه على ابنته وسمعته راح يرمي انفعالاته وغضبه هنا وهناك.

سمعان يعرف جيداً أحوال شتيوي لهذا ينفر منه. يريد لابنته رجلاً يكفل لها عيشة هانئة، فشتيوي لا مال لديه ولا جاه، رجل وحيد لوالديه، بيضة ديك! عندهم حاكورة، وقطعة أرض صغيرة يزرعونها في الشتاء والصيف، وثلاثة رؤوس ماعز، ومثلها غنم، وحمارة، وبضع دجاجات تتفقدها أمه في النهار والليل وكأنها أفراد من عائلتها! لا شيء لدى شتيوي سوى طيبته، وشبابه اللافت للأنظار، وعمله في أرضهم، ورضا الوالدين! في حين كان سمعان ملاكاً كبيراً له مساحات واسعة من الأراضي، وقطيع من الماشية، ودار واسعة، وبوايك للماشية، وغرف طويلة تخزن فيها الحبوب، والتبن، والعديد من كواير القمح، وشون الحطب والجلّة.. رجل مقتدر، وصاحب كلمة، وجاه في القرية، وهو معروف في المنطقة!

لقد صارحني أكثر من مرة بأنه يحس بالمرارة وهو يرى قلب ابنته الكبرى، دندي، يميل إلى شتيوي، واحد لا وراءه ولا قدامه، فأقول له:

- «خذوهم فقراء يغنهم اللّه»!

فيسألني:

- «ألا توجد رمية أحسن من هذه الرمية يا سيدي»؟!

فأقول له مواسياً، إنها الأقدار، والقلوب، والقسمة، وينثر أمامي مخاوفه من شتيوي الذي يحس بأنه يريد دندي ليس طمعاً بدندي، بل طمعاً بثروته وماله! فأقول له ليجربه، ويصبر عليه، وأن يتعامل معه بالمعروف، أن يصدّه، ويحذره، ويخوّفه ولكن بأدب واحترام كي لا يتجرأ عليه. وأن يتعامل مع ابنته دونما زجر أو نهر أو قسوة، ألا يجعلها منبوذة، أو مكروهة، وأن يحدثها ويسمع منها.. كي لا تحس بأنه ظالمها، وعدوها في البيت..

أحاديث وحوارات عديدة جرت بيني وبين سمعان، كنت دائماً أنصحه ألا يعمق جراح نفسه أكثر، وأن ينظر إلى ما يحدث بحب، وهدوء.. كي لا يأخذه الغضب.. فيأتي على بيته، وابنته، وسمعته بما لا تحمد عقباه، وكان يوافقني! يخرج وقد ارتاحت نفسه، واطمأنت مشاعره.. لكن ما إن يصير في بيته حتى ينسى ما قلته له، وينسى وعوده لي بأن يظل هادئاً، ومتزناً. لا بل يصير أشبه بالوحش حين يسمع أخبار شتيوي أو حين يلاقيه. يؤذيه بالكلام، ويضربه أمام الناس! لقد تجرأ سمعان كثيراً، واعتدى على شتيوي أكثر من مرة وها هو الآن، يأخذ شتيوي إلى الفلاحة، يقرنه مع البغلة ويفلح عليه أمام أنظار أهالي القرية، ويتوعده، ويهدده وكأنه أحد فراعنة المنطقة!

لم تحتمل روحي الأذى الذي أصاب شتيوي، لهذا أرسلت، أحد أولادي إليه، وطلبت منه أن يأتي إليَّ. كنت أودّ أن أطيب خاطره، أن أنقذ شبابه من التهور، والطيش، وحب الانتقام أو السعي إليه. خفت أن يمحو شتيوي طيبته، ويواجه سمعان مواجهة بعيدة عن مواجهات الآباء والأبناء، يرفع يده عليه، أن يطويه بقوة شبابه، ويهينه أمام الناس أيضاً، وبذلك تتعقد مشكلته أكثر! كما طلبت من الولد نفسه أن يمرّ بسمعان، ويدعوه للمجيء إليَّ!

ولم يمضِ وقت طويل حتى جاء الاثنان. جاء شتيوي أولاً. وما إن دخل إلى البيت حتى ارتمى على يدي وراح يقبّلها. أحسست بانكساره، وهزيمته. فهمهمت في نفسي:

- «ما أصعب هزيمة الشباب»!

فأخذته إلى صدري، وطيّبت خاطره، أجلسته إلى جواري، وشربت وإياه الشاي بالنعناع، وسألته إن كان طامعاً بمال سمعان، ومواشيه، وأرضه، فقال:

- «أنا لا أرى سوى دندي يا سيدي، هي ما أريده من بيت سمعان فقط، أريدها بثيابها. وسأكون لها خادماً طول عمري»!

وتخوفت أمامه، من أن سمعان، يشعر بأنه يفضحه بين الناس، وفي القرى، وقد راح الناس ينقلون أخباره وأخبار دندي! فقال متوجعاً:

- «بالحلال، يا سيدي.. والله لم أغرر بها، ولم أغلط بحقها، إنما المحبة يا سيدي، فهل المحبة حرام»!

فلم أجب شتيوي، لأن سمعان دخل، وقد ودّ الرجوع من عند الباب حين رأى شتيوي واقفاً في استقباله، وقد حنى رأسه كالمذنب، فناديته معنفاً وطلبت منه الدخول، وأن يكون رجلاً، يواجه المشكلات بحزم، فدخل.. وجلس إلى جواري، ولم يسلم على شتيوي الذي طلب مني الإذن بالانصراف، فنهرته، وأشرت إليه أن يجلس، فصرت بينهما! نظرت إلى سمعان، فرأيت وجهه لا يسر، وجه حزين، وغاضب، ومحتقن.. فرحبت به، واهتممت به، وتبادلت وإياه الحديث في قضايا جانبيه بعيدة عن علاقة شتيوي بدندي، وما فعله بحق شتيوي! وما إن أحسست به يطمئن في مجلسه حتى قلت له:

- «والآن، يا سمعان، أسألك لماذا لا تستر على دندي فتزوجها من شتيوي»!

فيهب غاضباً، يتّهم شتيوي بشرفه، وانحراف أخلاقه، وقلة حيائه، ويسألني لو أن شتيوي كانت له أخت مثل دندي، هل يوافق على أن تصير قصة تذيع بين الناس؛ قصة تتحدث عن عشقها وحبها، وقلة الحياء! وقال لي إن شتيوي، يطاردها أينما ذهبت، في الليل والنهار، ويوصّفه بأنه ذئب يريد الغدر به، وهو أشد شراسة وألعن من الذئب الحقيقي.. لأنه يغير على بيته في الليل والنهار!

وأحسُّ بنبرة الحزن التي توجع قلب سمعان، حين يقول لي بأن شتيوي صار كابوساً، يراه أمامه في اليقظة والمنام. صورة أشبه بصورة الشيطان، اللهم عفوك، تدور حول البيت. تريد خرابه!

وأقول له شارحاً بأن زواج شتيوي من دندي هو الدواء الذي يخرس الألسن كلها، وينهي قصة عشقهما. فيحلف سمعان الأيمان المعظمة أنه لن يعطي دندي لشتيوي ولو انطبقت السماء على الأرض!! وأراه يتحفز للنهوض، بينما شتيوي صامت، تسحُّ دموعه على خديه دون أن تؤثر في نفس سمعان، لعل سمعان لم يمنح شتيوي نظرة واحدة! لقد سوّره الغضب، فكان يهيج، ويندفع في الكلام بين حين وآخر!

وحين أراه يعود إلى هدوئه، أقول له إن ما فعله بالأمس، حين فلح على شتيوي، وقرنه بالبغلة حافياً، وفلح عليه في كرم العنب، إنما يسيء إلى نفسه ومكانته وهو المعروف برجاحة عقله، وقوة أعصابه؛ كما يسيء إلى ابنته، وهو بذلك يكبّر المشكلة، ويضيف إليها، ولا يحلها! فيقول إن شتيوي بأفعاله الشائنة ما أبقى لديه عقلاً، وإنه لن يتوانى عن قتله إن تجرأ على بيته وابنته مرة أخرى! ويسألني سمعان بألم، ما الذي يفعله الإنسان إن هاجمه وحش في الليل؟! ألا يقتله إن استطاع؟! فأجيب سمعان بأن شتيوي ليس وحشاً، وإن جاء إلى بيته ليلاً، فهو لا يريد من دندي سوى أن يراها، ويتحدث إليها! فيهيج سمعان، ويقول إن شتيوي ينام أمام بيته حيناً، وبقربه حيناً آخر، وفوق

السطوح حيناً ثالثاً!! ويسألني والشرر يتطاير من عينيه: «هل هذا حب أم جنون»! وما الذي سيقوله الناس عنه؟! ألن يتهموه بأن حيطه واطئ، وبيته مكشوف، وابنته تمشي على حل شعرها؟! وأهزّ رأسي لسمعان، من أجل أن يتوقف عن الاندفاع، والهيجان، فأقول له وقد صمت، إن شتيوي ليس هو كل المشكلة، إنه طرف في المشكلة، والطرف الآخر ابنته، فهي تحب شتيوي، وتريده. وهي تعرف أنه فقير، لا عشيرة وراءه ولا حكاماً، فلماذا يوقع الغلط، والخطيئة على شتيوي وحده! إنه شريك في المشكلة، ولأنه عاقل، وواع، ورجل صاحب جاه وعزوة أطلب منه أن يكسب ابنته وشتيوي بالزواج، ومن دون هذا لا راحة له! فينفعل سمعان مرة أخرى ويهدد بقتل شتيوي، وأنه سيخبر والديه بذلك، سيقول لهما إن كانا في غنى عن ابنهما.. سيقتله، ويضع ديته فوق صدره!

ولا ينتهي الحوار، على الرغم من أنني أذنت لشتيوي بالخروج بعد أن أوصيته، على مسمع من سمعان، أن يعقل، وأن يهدأ، حتى نجد حلاً لقصته، فيوعدني شتيوي بالموافقة، وينحني على يدي ليقبّلها، فأشدّها إلى صدري، وأقبّل خده، ويقبّل هو خدي، وأراه ينحني على يد سمعان ليقبّلها، فينهاه سمعان، يأمره ألا يلمسه لأنه نجس، وشيطان.. لا يحفظ حق الجيرة، ولا يراعي الذمم!

أستبقي سمعان عندي، أقول له باختصار شديد إن المشكلة أشبه بالباب المغلق، وما من مفتاح لها سواه، عليه أن يشتري ابنته، ويشتري شتيوي أيضاً، ولن يتم هذا إلا بالحكمة، فالانفعال، والضرب، والتهديد والوعيد.. جميعها لن تقلل من حجم المشكلة.. بل ستزيدها. ويمضي سمعان عائداً إلى بيته بعد أن سمعته يتأسف أمامي لأنه فلح على شتيوي في الكرم، لأن الغضب أعماه. وأنه لن يعود إلى ما فعله.. ثانية!

الحاشية الأولى

اجتمعت بالراهب عطايا، وسألته عن حل لمشكلة شتيوي ودندي، فقال:

- «الزواج»!

فقلت له إن سمعان يرفض، ويهدد شتيوي بالويل، والقتل، فقال:

- «يريد خراب بيته»!

قلت له:

- «إذن، ما العمل»؟!

فقال إنه يرى ضرورة السعي بين الطرفين لتقريب وجهات النظر. وأن يقوم وجهاء القرية بممارسة ضغط على سمعان لأنه هو المشكلة! وعرفت منه أن سيحاول من طرفه تهدأة سمعان، ومحاورته حول قبوله بفكرة زواج شتيوي ودندي، وإن كان يرى في سمعان صندوقاً مقفلاً.. لا مفتاح له!

الحاشية الثانية

ليلاً،

جاء إليَّ أحد الثوار من طرف الثائر أبو جلدة. قال لي لدينا مجموعة من البنادق، نريد مخبئاً لها في القرية، مخبئاً لأيام قليلة فقط، فاحترت بماذا أجيب، لكن ومن دون إبطاء قلت له:

- «هاتوها إلى هنا»!

قال:

- «إلى بيتكم يا سيدي»؟!

قلت:

- «إلى بيتي..» !

فمضى من أمامي، وبعد ساعات، وصلتْ إلى أمام البيت ثلاثة خيول، تحمل البنادق. لم أكن قد نمت لأن عقلي كان مشغولاً لأجلها! وقد كان عندي أربعة من رجال القرية الذين أثق بهم، جاؤوا بسلم طويل، وقطعة مشمع كبيرة، أنزلوا السلم إلى أحد آبار البيت الجافة، واستعدوا لوضع البنادق داخل البئر. وما إن وصلت البنادق، حتى أخذها الرجال، رتبوها قرب فوهة البئر، وراحوا يدلّونها واحدة واحدة إلى رفيق لهم نزل إلى قاع البئر. وقد لفّ البنادق بقطعة المشمع وأهال فوقها التراب ثم خرج، فسحبنا السلم، ورمينا قطعة صاج فوق البنادق، ثم كمية من الحطب!

وما إن انتهينا، وقد تم ذلك خلال وقت يسير جداً، حتى طُوقت القرية، وجابتها الأضواء الكاشفة، دخلت سيارتان إنكليزيتان إلى القرية، وبداخل كل واحدة منهما العديد من العسكر؛ توازع العسكر القرية، وأمروا الناس الذين خرجوا من بيوتهم بأن يدخلوا إلى بيوتهم ويغلقوا الأبواب عليهم!

كانوا يسألون عن الثوار، وعن الأسلحة! وشرعوا يفتشون البيوت بيتاً بيتاً، ولم ينج بيت من التفتيش، بل إن الجامع لم ينج أيضاً. أخذوني إلى الجامع ليلاً، فأوقدوا القناديل، والشموع وراحوا يفتشون.. كانوا أشبه بالمجانين يريدون الوصول إلى الأسلحة والثوار لأنهم كانوا متأكدين من أن الثوار دخلوا إلى القرية ومعهم الأسلحة.. لذلك ما كانوا يريدون مغادرة القرية من دون العثور على الثوار والأسلحة معاً.

طلبوا من الأهالي أن يفرغوا التبانات من التبن لاعتقادهم أن الثوار، ومعهم الأسلحة، موجودون في داخلها.. فحدث ما لم يكن في الحسبان فالأهالي الذين تقاعسوا في تفريغ تباناتهم.. عوقبوا بحرق التبن، فتشوا البيوت، وبوايك الحيوانات، والآبار جميعاً. ولم يعثروا على الثوار، ولا على الأسلحة!

حين جاؤوا إلى بيتي، طلبوا مني أن أرافقهم في حملة التفتيش، أن أمشي معهم خطوة خطوة، فمشيت، لم يكن لدي خيار آخر، على الرغم من أنني

نبهتهم بأنهم يتجاوزون حدودهم، وأنهم ينتهكون حرمة البيوت والمقدسات. لكنهم لم يعبأوا برأيي، قالوا لي إنني مادمت معهم فلا انتهاك للحرمات!! كان لدي تبان كبير فيه كمية هائلة من التبن، فطلبوا مني إفراغه، قلت لهم إن هذا الأمر يحتاج إلى أيام عديدة لكي يفرغ، فقالوا بإصرار إن لم يفرّغ حالاً سيحرقونه. ولأنني لم أستطع إفراغه، حرقوه أمام عيني، ولم يجدوا شيئاً. وراحوا يوجهون الأضواء الكاشفة إلى داخل الآبار، ولم يجدوا شيئاً.. أيضاً، وفي البئر التي احتوت الأسلحة.. أحرق العساكر كمية الحطب الموجودة في قاعها.. ثم سلطوا الأضواء نحو قاع البئر مرة أخرى، فلم يروا سوى الجمر!

ولم يترك عساكر الإنكليز القرية إلا قبيل غروب اليوم الثاني، من دون أن يعثروا على الثوار، أو على الأسلحة.. تركوا القرية ولديهم إحساس أن الثوار موجودون في داخلها، وأن الأسلحة مخبأة في مكان ما من أمكنتها!

الحاشية الثالثة

الراهب عطايا،

هو الذي نبهني قبل أيام من مجيء الثوار، كي لا أضع الأسلحة في داخل المسجد، لأن شراسة الإنكليز لم تراع حرمة الدير، والكنائس في الكثير من القرى.. وأنهم جاؤوا إلى الدير، وفتشوه، وهم في حالة عماء وهيجان.. قصوى!

لذلك.. ومنذ البداية، نحيت فكرة وضع البنادق داخل المسجد، المكان الذي يبدو لي الأكثر أمناً، والأبعد عن متناول يد الإنكليز!!

تذييل أول وأخير

خطرت ببالي فكرة أن أجعل داخل صحن المسجد.. مستودعاً لأسلحة الثوار! أن أتعاون مع بعض الرجال على حفر مستودع كبير تحت أرض صحن المسجد؛ مستودع له فتحة صغيرة، ينزل المرء إليها بسلم، يفضي إلى

المستودع الرحب، على أن تغلق الفتحة إغلاقاً محكماً، ببلاطة تشبه بلاط صحن المسجد، وأن تُغطى بالسجاد والبسط مثلها مثل باقي أنحاء المسجد! حين قلّبت الفكرة في رأسي، راقت لي، لذلك شرعنا بتنفيذها ليلاً! سهرنا شهوراً عديدة، ونحن نواصل الحفر حتى أنجزنا المهمة، وقد صار تحت صحن المسجد مستودع للثوار يأتون بالسلاح إليه، ويأخذون السلاح منه، وقد فتحنا بوابة في السور الخارجي للمسجد، بوابة خلفية لم يلحظ أحد وجودها لأنها تشرف مباشرة على الوادي، والإنكليز حين يأتون إلى المسجد عادة ما يأتون إليه من بوابته الرئيسية المعروفة.. للجميع. لم يعرف بوجود البوابة سوى الثوار ونفر قليل من أهالي القرية!

وعلى الرغم من مداهمة عساكر الإنكليز للمسجد مرات عديدة، وعلى نحو مفاجئ.. فإنهم لم يعثروا على مستودع الأسلحة، بل لم يخامرهم الشك بأنه موجود أصلاً!

*   *   *

الرحيل إلى أمريكا..!!

في بنت جبيل،

استقر شتيوي. عمل في الحدادة مرة أخرى، عند رجل من آل بيضون اسمه عباس! سُرَّ الرجل بعودته، وقد عرف أمانته، وجلده، وإخلاصه في العمل. وسأله إن كان قد عاد إليهم بسبب حلم آخر شبيه بحلمه الماضي الذي جعله يعمل قرابة سنة كاملة لكي يؤمن ثمن أساور الفضة لزنود دندي، أم أن لعودته سبباً آخر! فحكى شتيوي قصته كاملة لعباس. فقال عباس بألم:

- «يبدو أن غربتك ستطول يا شتيوي! فهذا المهر لا تقدر عليه إلا حكومة»!

فهزّ شتيوي رأسه، وقال:

- «الله.. المعين يا سيدي»!

كان شتيوي يعمل في دكان حدادة عباس نهاراً، كما يعمل حارساً ليلياً لدى دار البلدية، أما إقامته فكانت لدى عجوز اسمها أم رشاد، تعيش مع ابنتها العانس نعيمة. أجّرته العجوز إحدى غرف البيت، ورمت له فيها فرشة ولحافاً ومخدة وقطعة لباد، وقالت له:

- «إن كنت آدمياً.. ستأكل وتشرب معنا.. أيضاً»!

فوعدها شتيوي بأنها لن ترى منه هي وابنتها إلا كل خير، فهو لا يأتي إلى هنا، ويعيش في الغربة إلاّ من أجل أن يجمع مهر دندي، وأن لا أمل له

سوى هذا.. وعليها ألا تخاف منه على ابنتها لأن قلبه تركه في قريتهم؛ تركه لدندي، فهو الآن لا يعرف شيئاً من الحياة ولا يريد أن يعرف منها شيئاً سوى العمل! وحكى للعجوز وابنتها قصته كاملةً فطار عقل نعيمة، واتهمته بالجنون. وقالت له إنه لو عاش ومات، وعاش ومات لن يجمع الذهب الذي يملأ جرة بحجم جرة الماء. وهزت العجوز أم رشاد رأسها، وقالت بأسى:

- «لقد أراد أبوها إبعادك عنها، وأنت تريد أن تكتب الغربة على نفسك. دندي هذه..، يا شتيوي، لا أمل فيها. انفض يدك منها»!

فيبتسم شتيوي، ويقول:

- «سأوفي بوعدي، يا خالتي وأعود بالذهب مهراً لها، ولو بقي من عمري يوم واحد فقط»!

فتصرخ نعيمة:

- «مجنون»!

وتهمهم أمها:

- «مسكين»!

ومع الأيام صار شتيوي فرداً من أهل البيت، فقد أحبته أم رشاد، وصارت تعطف، وتقلق، وتخاف عليه وكأنه ابنها. كان رجل البيت بامتياز. هو الذي زوّج نعيمة من أحد ثوار الجليل الذي جاء إليهم ليلاً. أحس الرجل، واسمه أبو عبادة، بأن قلبه مال لنعيمة بعد أن رآها أكثر من مرة، فصارحها، فأقبلت هي عليه، ورأت فيه حياتها. كان الرجل يتردد بين حين وآخر على بيت أم رشاد، يأكل ويشرب، ويرتاح، ثم يتزود بزوادة له ولرفاقه ويعود. كان يأتي إليهم بهدايا منوعة، تُفرح الأم وابنتها. ولم يدر شتيوي أن نعيمة ستتعلق بالرجل فهو لا عنوان له، ولا مكان يأوي إليه سوى الأودية، والمغر، والجبال.. وأنها قد صبرت كثيراً فلتصبر قليلاً حتى يأتيها رجل أوفر حظاً،

ومكانةً، وظروفاً من هذا الرجل الذي يضع روحه على كفه. غير أن نعيمة تقول له بأنها أحبته. وهيهات القلب إذا ما أحب أن يهدأ أو يستكين. فيهزّ شتيوي رأسه ويسكت لأنه أدرى بأوجاع القلب؛ القلب الذي جاء به إلى هنا، إلى بنت جبيل، مبعداً إياه عن دندي التي لابدَّ وأن لياليها صارت بعده بكاءً في بكاء!

جاء أبو عبادة، وطلب نعيمة من أم رشاد! قال لها،: «أريد نعيمة يا خالة. لا مهر لدي أدفعه سوى محبتي«! فبكت أم رشاد، وهي تنظر إلى وجه نعيمة الذي اصطبغ بالحمرة، وهمهمت:

- «يا لحظك يا بنتي!

لا مهر.. ولا عرس، ولا ناس»!

فيواسيها شتيوي، يقول لها إن هذا كله ليس مهمّاً. المهم أن يحبها الرجل، ويصون كرامتها، وأن يحفظها، ويدافع عنها. والمهر، والعرس، والناس لا شيء مادام الوفاق موجوداً، والمحبة موجودة أيضاً. ويطول الحوار بين الجميع، ونعيمة صامتة لا تحكي إلا بمقدار.. فلا ينتهي إلا بقراءة الفاتحة. لا شروط، ولا طلبات، ولا غمغمات. كل شيء واضح. أبو عبادة يريد نعيمة، ونعيمة تريده.. مجاهد أو غير مجاهد ليس مهمّاً، عانس أو غير عانس ليس مهماً.. لم تسأله أم رشاد إن كان غنياً أو فقيراً، كما لم تسأله لماذا اختار ابنتها. وهو لم يسأل إن كان لأم رشاد وابنتها أقرباء، أو أرض، أو مال.. لقد رضي الطرفان واتفقا على كل شيء. أم رشاد قالت له، هذا بيتك، لك فيه غرفة مثل غرفة شتيوي. تأتي إلى زوجتك تقيم معها الأيام التي تريدها. تذهب أو لا تذهب أنت حرّ. فقط أريد أن تظل نعيمة قربي أعيش معها ما تبقى لي من عمر قليل!

فوافق أبو عبادة. واحمرت خدود نعيمة. وصارت عودات (أبو عبادة) إليها أشبه بالعيد بعدما اشتدت حدة المواجهات والاشتباكات بينهم وبين

الإنكليز من جهة، وبينهم وبين اليهود من جهة ثانية! كان يأتي إليها ليتزود بالحياة والأمل مرة أخرى، وكانت نعيمة تتزود بالبهجة والرضا، فقد صار لها رجل يعيش من أجلها، يخاف عليها، ويسأل عنها، رجل ينقذها من وحدتها، ومرارة الانتظار القاتلة!

شتيوي هو من أذاع خبر زواج نعيمة من (أبو عبادة)، في بنت جبيل. وهو من امتدحه وأثنى عليه، وهو من عرّفه بمعلمه عباس الذي جاء إليه من أجل أن يصنع له ولرفاقه بعض الحربات كسلاح فردي يستخدمونه عند المواجهة المباشرة مع الأعداء؛ تلك الحربات التي تبرع بها عباس للمجاهدين، فقد رفض أن يأخذ الجنيهات التي جاءه بها أبو عبادة. قال عباس له:

- «هذا أقل من الواجب.

وعار عليَّ إن أخذت جنيهاً واحداً»!

فعلا المعلم عباس في نظر شتيوي، وهو يراه يعانق (أبو عبادة) ليلاً، ويودعه، وقد وضع الحربات في جراب كتاني وشدّه بإحكام كي لا تصدر أي صوت!

وشتيوي هو الذي واسى العجوز أم رشاد ونعيمة.. حين جاءهم خبر استشهاد (أبو عبادة)، وهو الذي صبرهما طوال الوقت ووقف إلى جانبهما في أثناء الصدمة الأولى. كان يبكي وهو يسمع العجوز أم رشاد تقول:

- «مسكينة.. نعيمة هذا نصيبها من الدنيا»!

ونعيمة.. وهي تقول:

- «لو أنه انتظر شهراً واحداً فقط ليرى ابنه، ويكبّر في أذنه»!

فعلاً، كانت نعيمة حاملاً، في شهرها الأخير، وكانت تسأل (أبو عبادة) ماذا سيسمي المولود إن كان ذكراً، فيقول لها سأسميه عبادة إن كان ذكراً أو أنثى. فتضحك، وتقول له:

- «يعني أنا أم عبادة، سواء أكان المولود ذكراً أم أنثى»!

فيقول لها وهو يأخذها تحت جناحه:

- «أجل، أنت أم عبادة الرائعة»!

الآن، مضى أبو عبادة، فغرق البيت في حزن شديد. كان شتيوي يتحايل على نعيمة ليخرجها من عزلتها، ومن بكائها الدائم، كما يتحايل على العجوز أم رشاد لكي تخفي حزنها وألمها أمام ابنتها.. لتعاونه على كنس الحزن من البيت، فيتحدث عن المولود الجديد، وعن الحياة الجديدة، وعن الخلف الذي سيحيي ذكر (أبو عبادة) أبد الدهر. فتدعو العجوز وترجو اللّه أن يكون المولود ذكراً.. فيؤمّن شتيوي على دعائها.. ويقول آمين!

ولم يستمر شتيوي طويلاً في عمله عند معلمه عباس في الحدادة. فقد أخبره، في أحد المساءات أنه لن يأتي إلى العمل في الصباح! فسأله عباس عن السبب! فروى شتيوي له أنه رأى حلماً ليلة الأمس.. أرعبه! رأى يده تبتر على مقص الحدادة، وأن دمه أغرق المكان، وأن صياحه، وألمه هما من أيقظاه من الحلم الرهيب. فيضحك عباس، ويقول له، لو أن الناس يصدقون أحلامهم، لكانت الدنيا غير هذه الدنيا، ولكان الناس غير هؤلاء الناس!! كان يريد أن يقلل من أهمية الحلم لكي يستبقي شتيوي لديه فترة أخرى، وقد رأى على يديه خيراً كثيراً، غير أن شتيوي رفض، قال لعباس بصراحة إنه يخاف من أحلامه؛ يخاف إذا ما استمر في العمل أن تبتر يده بمقص الحدادة فعلاً. وقد حاول عباس مرات عدة أن يثني شتيوي عن عزمه في ترك العمل، إلا أنه أخفق، فسلّم أمره لصاحب الأمر، وراح يحسب أجرة شتيوي لكي يدفعها إليه. قال له إنه في السنة الماضية التي قضاها عنده أعطاه عشر قطع ذهبية، الآن لم يكمل السنة بعد، ومع ذلك سيعطيه عشر قطع ذهبية أيضاً، وأنه سيضيف إليها قطعتين أخريين (كنقوط) لعرسه! ففرح شتيوي بطيبة عباس، وارتمى في صدره وعانقه، ثم.. أخذ القطع

الذهبيـة ومـضى بهـا إلـى العجـوز أم رشـاد.. أعطاهـا إياهـا لكـي تـضعها مـع القطع الذهبية الأخرى.. التي أخذها من عند معلمه عباس، ومـن بلدية بنـت جبيل.. في السنة الماضية؛ أم رشـاد التـي ماتت فجـأة في فراشـها! ماتـت بعـد ولادة نعيمـة ولـدها عبـادة بشهر أو شـهرين. لكأنهـا كانـت تـودّ أن تطمئن إلـى ولادة نعيمـة.. فتبـارك لهـا.. ثم تمـضي! ماتـت دونمـا ضـجيج، أو صـياح، أو مرض، لكأن خيط الموت كان منعقداً في إصبعها فقطعته عندما شـاءت. حـين أخبرتـي نعيمة، جئت إليها فرأيتها في فراشـها، بوجهها الـصافي، وابتسامتها الشفيفة.. لكأنها في حلم ليس غير.. ما إن أناديها، أو أهـزّهـا حتـى تجيبنـي، وتنهض! وجهها لـيس وجـه ميت. إنهـا تكـاد تفـتح عينيهـا، وتحكـي، تكـاد تبعـد لحافها بطرف يدها وتنهض! التفتُّ إلى نعيمة، وقلت لها:

- «لكأنها ليست ميتة»!

فبكـت نعيمـة بحرقـة، ولـم تـتكلم! أعـرف أنهـا لا تقـوى علـى الكـلام.. مسكينة نعيمة.. صارت وحيدة، وحيدة تماماً!

الحاشية الأولى

حين ترك شتيوي عمله في محددة عباس. ذهب إلـى البيـارات، واشـتغل فيهـا. عمـل في قطـف البرتقـال، والكريفـون، والليمـون. كـان يمـلأ (قـصية) الكتـان المـشدودة إلـى ظهـره، ويعـود بهـا إلـى حيـث هـي أكـوام البرتقـال، والكريفون، والليمون.. يفرغ (القصية) أمام البنات اللـواتي يمـلأن الـصناديق، ويعـود إلـى داخـل البيـارات، يمـلأ القـصية ثانيـة ويعـود.. وهكـذا يظـل طـوال النهار مثل المروحة في ذهاب وإياب! أنهكه العمل، وأطفـأ شـوقه للحيـاة، لكنـه حـين يتـذكر دنـدي.. تـدبّ في جسده قـوة خرافيـة لا يـدري مصدرها. واحـدة من البنات اللواتي يملأن الصناديق بالبرتقال والليمـون.. صـعقته، فقـد كانـت شـبيهة بدنـدي، الطـول طولهـا، والوجـه وجههـا، واللـون لونهـا، لكـن الـصوت

ليس صوتها، والضحكة ليست ضحكتها.. ومع ذلك ظلَّ شتيوي لا يرتوي من النظر إلى تلك الفتاة، وقد خاف من التهور والشطط، خاف من مصارحتها والحديث إليها، ولم يكن من منقذ له منها.. سوى انقطاعها عن المجيء إلى البيارة. لم يسع إلى معرفة سبب انقطاعها، ولا إلى معرفة مكان إقامتها أيضاً. لقد أراد أن يمحو رؤيتها من خاطره، إذْ لا بديل لديه أبداً عن دندي؛ دندي التي تساهره الليل على الرغم من تعبه الشديد، يرى طيفها يباريه، ويجالسه، ويأكل معه، وينام؛ دندي التي لن يفك طلسم غربته عنها سوى المهر!

الحاشية الثانية

بعد أن دفنا أم رشاد.

جاءتني نعيمة بكيس كتاني صغير، فيه علبة ألمنيوم طويلة العنق. رمت الكيس أمامي، وقالت لي:

- «هذا هو تعبك يا شتيوي.

عدّ الليرات، واحتفظ بها أنت»!

كانت تقصد الليرات الذهبية التي كنت أخبئها عند المرحومة أم رشاد. قلت لها، دون أن افتح الكيس:

- «دعيها عندك يا نعيمة.. أنت بمقام أم رشاد تماماً«!

فرفضت نعيمة. قالت له بأنها لا تستطيع تحمل الأمانة. وإن أبقت الليرات عندها فهي لن تستطيع النوم ليلاً، ستظلُّ تفكر بها، وتخاف عليها. وقالت إنني أولى بمالي منها، وأقدر منها على حفظه والاهتمام به. ولم أرد عليها بكلمة واحدة، فقد رأيتها تخرج علبة الألمنيوم الطويلة، وتفتحها، وتتناول منها الليرات الذهبية المطوية على شكل أصابع بورق ملوّن! وراحت تعد الأصابع أمامي وبصوت عال. كنت أعرف عددها، وعدد الليرات في كل

إصبع منها! وحين أتمت العد، أعادتها إلى علبة الألمنيوم وأغلقت عليها، ثم وضعتها في الكيس الكتاني وشدت فتحته بالخيط الطويل الذي يربطها، ثم رمت الكيس أمامي، وخرجت! ومن دون أية كلمة، حملتُ الكيس ولحقت بها إلى غرفتها، وهناك رميت الكيس أمامها.. وخرجت! كنت واثقاً من أمانة نعيمة، ومن محبتها لي، وخوفها عليَّ، وحرصها أن أظلَّ إلى جانبها، لكن الآن، وقد ماتت أمها، وصرت وإياها وطفلها الصغير وحيدين في البيت، لابدّ أن أفعل شيئاً لكي أبعد كلام الناس عني، وعنها. ذهبت إلى معلمي عباس، وسألته ماذا أفعل، وقد صرت ونعيمة وحيدين مع طفلها الصغير، فقال:

- «تزوجها.. !

قلت متعجباً:

- «يا رجل.. !

قال:

- «أمزح معك، لا حل إلا أن تترك البيت«!

قلت:

- «ستظل نعيمة وحيدة! ستحس بالفرقة أكثر»!

قال:

- «اجعل لغرفتها وغرفة أمها مدخلاً، ولغرفتك مدخلاً آخر. ضع جداراً فتنتهي المشكلة»!

قلت:

- «هكذا.. »؟!

قال:

- «هكذا.. !

الحاشية الثالثة

سرق ذهبي من عند نعيمة! وقتلت نعيمة، وظلَّ الطفل وحيداً!

طار عقلي تماماً. جننت. ليس بسبب سرقة الذهب فقط، وإنما بسبب الشؤم الذي سببته لنعيمة وأمها، خلال سنتين أو أكثر قليلاً.. ماتت أمها، ومات أبو عبادة، وقتلت هي، وسرق الذهب!

الآن من يحتمل جنوني. أأعود إلى الشماصنة مجنوناً أهذي؟! ومن سيصدقني إن قلت للناس إن ذهبي الذي جمعته خلال سنتين سُرق؟!

الآن، كيف سينظر إليَّ أهالي بنت جبيل؟! ألن يروا فيّ غراب البين الذي نعق في بيت أم رشاد فأهلك الجميع؟! ترى.. إلى أين أذهب؟! وإلى أيّ أرض ألجأ؟! ساعدني يا رب!

تذييل أول

نفر من أهالي بنت جبيل، يعرفونني، جاؤوا إليَّ في البيارة. قالوا لي بألم وحسرة أن نعيمة قتلت ليلاً، وأنهم لا يعرفون ماذا يفعلون بطفلها الذي بقي نائماً إلى جوارها. لم أصدق ما سمعته؟! طار عقلي لأن نعيمة تغادرني أيضاً. لمن تبقني هذه المجنونة؟! ومن تجاسر، ودخل عليها البيت، وقتلها؟! ثم يقتلها لماذا؟! أبداً لم يخطر ببالي الذهب! نسيت الذهب تماماً! فكرت بغربتي التي ستكون قاسية جداً بعد رحيل نعيمة! نعيمة التي كانت أشبه بأم، تغسل لي، وتطبخ، وتنظف.. وتخاف عليَّ. نعيمة التي لها لهفة، ورجفة صوت، وبريق عينين حين تراني قادماً إليها. نعيمة التي تجاسرت، بعد موت أمها، فراحت تهتم بيَّ كأنني ابنها!

لا أدري كيف عدت من البيارة إلى البيت، ما أدريه أنني وجدت نفسي في البيت، وحولي الناس. سألت عن نعيمة، وأردت أن أراها قبل أن ندفنها! فقالوا:

- «دفنّاها»!

فبكيت طويلاً، ولعنت الحياة، فها هي تأخذ نعيمة مني، وتحرمني من المشاركة في دفنها أيضاً! علمت أنني كنت في غيبوبة، غسلوني بالماء ولم أعد منها، حسبوني ميتاً أو أكاد، فلا شيء يدلل على أنني حي سوى نبض قلبي! وحين عدت من الغيبوبة، كنت أهذي، فأيقن الناس أنني جننت! اقتنعوا بذلك حين عرفوا أن ما جمعته من ذهب قد سرق أيضاً!

وبعد وقت ليس بالقصير. عدت إلى وعيي فسألت عن نعيمة، وعن موعد دفنها، فقالوا إنهم دفنوها، وإنني غبت عن الوعي ساعات طويلة، وظللت أهذي أياماً.. وأن الذهب سرق، وأن عنق نعيمة ووجهها كانا مليئين بالجروح، وفهمت أن نعيمة دافعت عن نفسها، وعن الذهب.. بشراسة قبل أن تموت!

الآن، أدرك جيداً أن موت نعيمة يعلن عن رحيلي! ويزيده مرارة أن ذهبي سرق!!

تذييل ثانٍ

أخذت عبادة، ابن نعيمة ودرت به على بيوت بنت جبيل، كنت أبحث عن أم بديلة له، عن مرضعة! ولأن الحياة تدير لي وجهها، تعذبت كثيراً حتى وجدت امرأة قبلت به. عثرت على امرأة فقدت ولدها الرضيع قبل أشهر. قالت لي لا حليب في صدري. حزني على ولدي نشّف حليبي. فرجوتها؛ ووعدتها بالمال. فصمتت. ثم رفعت إليَّ نظرها، وقالت:

- «هات الطفل.. لعله يعيد الحليب إلى صدري، فيرضع، فيعيش»!

تركت عبادة عندها، وبكاؤه ملء أذني.. يطردني.. إلى أين؟! لا أدري! ذهبت إلى البيارة، وأخذت أجرتي..، أكرمني صاحبها تيسير العيلبوني كثيراً، وحين ودعني شدّني إلى صدره، وقال كلمة واحدة (خسارة). فاستدرت عائداً إلى المرأة وعبادة، وهناك أعطيتها قسماً من المال.. وأوصيتها بعبادة وخرجت! أخذت طريقي إلى صيدا، إلى المرفأ، إلى عالم البواخر.. وقد قررت الرحيل في واحدة منها. إلى أين؟! لست أدري!

تذييل ثالث

في المرفأ عشت ستة شهور تقريباً. كنت أصنع الشاي للعمال، وصيادي السمك.. وكنت أكنس الشوارع، وأحمل الأكياس، وأقشط قشر السمك، وأنظفه من الأحشاء. تآخيت والقطط، صارت تعرفني من رائحتي.. حين أهجع إلى النوم تأتيني وتنام إلى جواري، تشمّ رائحتي فتنتشي بها.. وتنام. ما من مرة استيقظت في الصباح إلا ورأيت عشرات القطط حولي.. لكأنها حسبتني كبيرها، أو لكأنها رضيت أن تكون جنوداً لي.

ستة شهور مرت عليَّ كالعلقم.. صرت أرى وجهي فلا أعرفه، وأحس بأن يدي تتغيران وأنا أغيّر المهن بين يوم وآخر. مرات عديدة كدت أموت فيها بين العنفات، وداخل مياه البحر، وتحت الأكياس، والصناديق الخشبية. ومرات عديدة كدت أقتل بسبب المشاجرات الكثيرة التي لا يعرف المرء كيف تنشب في المرفأ، والمقاهي، والمستودعات، وداخل البواخر، وأمكنة اللهو في الليل!

ستة شهور عرّفتني بفتيحة، امرأة أشبه بصندوق حديد مصفح الجهات. لها وجه مستدير ممتلئ باللحم، وشعر طويل مضفور. امرأة قوية ذات مهابة شديدة، لها سطوتها في المرفأ. تدير مقهى صغيراً يرتاده البحارة وصيادو السمك، والغرباء، والحمالون. ويعمل لديها ثلاثة صبيان أشداء، صبيان أشبه بالمسامير! كنت آتي إليها في آخر الليل. أجلس إلى طاولة بعيدة عن مكانها، فآكل، ثم أذهب إلى مكان نومي في براكية صنعتها من صناديق الخشب. لم أدر أن فتيحة كانت تراقبني، إلا عندما صارحتني هي بنفسها. فبعد أن داومت على المجيء إلى مقهاها أياماً عديدة، أرسلت إلي أحد صبيانها، واسمه العروب، ودعتني إلى مجالستها. كان الوقت متأخراً جداً، وكنت مهدوداً من تعب النهار.. وكانت هي تريد أن تعرف من أنا. ومنذ الليلة الأولى حكيت لها قصتي فتألمت، وحكت لي قصتها التي عرفت منها أنها أرملة، ورثت هذا المقهى عن زوجها، وأن ثلاثة أولاد لها ابتلعهم البحر، لذلك فهي تعيش في مقبرة وليس في مقهى.. فتألمت لأجلها!

وفي كل ليلة راحت فتيحة تعرف عني شيئاً جديداً، كما رحتُ أعرف عنها شيئاً جديداً أيضاً! حتى صرتُ مؤنساً لها، وصارت هي مؤنسةً لي. فتيحة هي التي عرفتني الجهات، والبلدان، وهي التي شجعتني على الغربة. قلت لها لا أريد أن أبعد عن دندي أكثر، فقالت، ستظل غريباً إن بقيت في هذه البلاد!! اغترب وابتعد.. ولن يمضي وقت طويل حتى تعود بالمال الكثير من أجل دندي! حدثتني فتيحة عن اليونان، وتركيا، وفرنسا، وإيطاليا.. وتوقفت طويلاً عند أمريكا فحكت عنها قصصاً أحسبها من الخيال.. صوّرت أمريكا كأنها أسطورة الدنيا. عالم من السعادة، والترف، والمال. كنتُ أسمعها مسحوراً. كنتُ أشبه بقطعة الإسفنج التي لا مهمة لها سوى الامتصاص، والغرق!

وعرفت من فتيحة أنها تتمنى الذهاب إلى أمريكا لكنها لم تجد بعد الرفيق المناسب لها. ولم أدر كيف قلت لها: «أنا» ودققت على صدري!

فأمسكت هي بقولي. طوت خرطوم (الأركيلة) ورمته جانباً، واندفعت نحوي بصدرها الجبلي.. وقالت، وقد جحظت عيناها الكبيرتان جداً:

- «شتيوي..» !

فهممت دون وعي:

- «نعم أذهب معكِ»!

قالت، وقد أخذتني من صدري:

- «احلف..» !

فحلفت! قالت:

- «إن أخلفت، سأرميك في البحر، سألحقك بأولادي وزوجي»!

فوافقتها، وقلت لها إنني لا أعرف شيئاً عن أمريكا، ولا أعرف كيف أذهب إليها، وليس معي من المال إلا ما جمعته خلال الشهور الماضية، وإن

المال ليس لي، فهو جزء من مهر دندي! عندئذٍ استوت في جلستها، ونظرت إليَّ بحدة، وقالت:

- «لا أريد منك إلا أن تكون زوجاً على الورق فقط، أتفهم»!

قلت:

- «أفهم»!

قالت:

- «أنا أتدبر الأمور، وأنت.. جهّز نفسك»!

قلت:

- «من أجل ماذا»؟!

قالت:

- «من أجل السفر إلى أمريكا»!

فصمتُ، ورحت أتمتم متسائلاً:

- «يا إلهي! أمريكا.. مرة واحدة»!

قالت:

- «أمريكا»!

هامش

أيقنت أن ما قالته فتيحة صحيح!

فقد باعت المقهى، وسرّحت صبيانها. صورتني، واستخرجت لي جواز سفر. واشترت لنا بعض الملابس والأطعمة! ودفعت إلى يدي مبلغاً من المال، وأوصتني أن أحرص عليه، وألا أصرف منه شيئاً! وواعدتني أن نلتقي في الظهيرة عند مدخل المرفأ. فانتظرتها، وحين جاءت.. رأيتها تحمل حقيبتين، فأسرعت إليها، أخذت واحدة منها، وهممت بأخذ الثانية، لكنها احتفظت

بها وأبعدت يدي عنها. وقالت لي «اتبعني»! فتبعتها! كان بين يديها جواز سفري، وجواز سفرها.. وبداخلهما أوراق طويلة محبرة. وتبعتها إلى مسافة طويلة إلى أن دخلنا إلى بهو باخرة كبيرة، وفي المدخل المؤدي إلى سلم علوي.. قدمتِ الجوازين والأوراق للرجل الذي يقف أمامها، فنظر فيهما، ثم ناولها إياهما، وهو يهزّ رأسه لها ويبتسم. كنت أتبعها كالمنوّم تماماً. وحين ارتقت السلم الحديدي.. ارتقيته وراءها.. ومشينا فوق ظهر الباخرة مع الآخرين إلى أن طلب أحد البحارة منا أن نجلس فوق المقاعد الطويلة، فجلسنا. جلست إلى جوار فتيحة تماماً، فسألتها بهمس، إلى أين نذهب؟!

فقالت:

- «أمريكا»!

قلت:

- «أمريكا»؟!

قالت:

- «أمريكا»!

وكي لا أدوخ أطلقت البصر إلى البعيد، فرأيت الباخرة تخرج من المرفأ ببطء، والطيور تحوّم حولها.. حائرة!!

* * *

العبـاسيــة..!!

ليلة عجيبة.. ملأى بالحزن، والخوف، والقلق، عاشتها القرى المحيطة بقرية العباسية! فقد خرج الأهالي صغاراً وكباراً، نساءً ورجالاً من البيوت، وكأنهم يغادرونها إلى الأبد! غادروها هلعاً.. وجاؤوا إلى المساجد، والأديرة، الرجال مضوا إلى قرية العباسية لمعرفة ما حدث هناك، والنساء، والشيوخ، والأطفال لجؤوا إلى الأديرة والمساجد وسط بكاء، وصخب، وأحزان، وخوف، وأحاديث متداخلة، ورعب شديد!

قرعت أجراس الأديرة، وعلت تكبيرات المساجد، فأحس الناس بالخطر الداهم، واستعدوا للمواجهة! هي ذي عادة الأديرة، والكنائس، والمساجد حين يحيق الخطر بالناس في القرى والمدن.. الأجراس تقرع، والتكبيرات تتعالى، فقد اعتاد الناس على هذه العلامات ليتركوا أعمالهم، ويتفقدوا أطفالهم، ويستعدوا لحماية أنفسهم، بعدما قويت شوكة اليهود فراحت أنفار من الإنكليز واليهود تشكل العصابات المسلحة، وتعين الأهداف، وتقترف الجرائم بحق الناس، والأمكنة، من أجل إثارة الخوف، والرعب، والهلع في النفوس، لكي يترك الناس بيوتهم، وقراهم، ومدنهم طلباً للنجاة بأرواحهم، وأرواح أطفالهم.

الليلة يأتي قسم كبير من الشيوخ، والنساء، والأطفال إلى الدير. يأتون من الشماصنة، والقرى المحيطة بها، بعدما قرعت الأجراس، وعلت التكبيرات، وبعدما مرّ نفر من الثوار على خيولهم فأخبروا الناس بما حدث في قرية العباسية من أهوال، وقتل، وحرائق!

جاؤوا إلى الدير، فوجدوا البوابة مفتوحة، والرهبان والراهبات على استعداد لاستقبالهم، توزعوا داخل أروقة الدير، كما ذهبوا إلى الجوامع فوجدوا أبوابها مفتوحة، فدخلوا إليها طالبين الأمان. كانت الوجوه مطفأة، متعبة، وعلائم الهلع والخوف مرسومة عليها، الأطفال، والنساء، يبكون، والشيوخ يصبّرون ويهمهمون! كان الشيخ المصباحي هو أول من عرف بما حدث في قرية العباسية فقام وكبّر في المسجد، فتنبه الرهبان في الدير، فأخبروا الراهب عطايا، فطلب من الرهبان أن يقرعوا الأجراس، وينبهوا القرى والناس كي لا يصل الموت إلى فرشهم وهم نيام.

لقد عرفوا أن عصابة من اليهود، قامت بالتسلل إلى قرية العباسية. أوقفوا السيارات بعيداً عن القرية، وتسللوا إليها.. أحاطوا بالقرية من جميع الجهات، وراحوا يلغمون البيوت بيتاً بيتاً، والناس نيام، يلّغمونها بالألغام وأصابع الديناميت! لم ينتبه لدخولهم سوى الكلاب التي نبحت عليهم طويلاً.. لكن الليلة كانت برداً، ومطراً، وهواء شديداً، والناس يستغرقون في نومهم بعد يوم طويل من العمل الشاق، في الفلاحة والزراعة. كانت القرية غارقة في ظلام دامس؛ قرية لا حارس لها، لا أضواء، ولا أسيجة! ساعة أو أكثر وأتم أفراد العصابة تلغيم معظم البيوت، وما إن انتهوا حتى أشعلوا النيران ببعض البيوت.. وهربوا نحو سياراتهم التي حملتهم وعادت بهم إلى (الكبانيات)! ليتابعوا من هناك مشهد النيران التي التهمت البيوت، وليسمعوا صراخ الأطفال والنساء والشيوخ، وليروا الألغام وهي تنفجر بالبيوت، على شكل كتل من اللهب العنيف الذي أرعب الناس! وليشموا رائحة الشواء الآدمي!!

في أول الأمر، وحين استشعر بعض الأهالي بأن الحريق يلتهم البيوت.. نهضوا مذهولين، مرعوبين، حملوا أولادهم بين أيديهم وخرجوا.. وقد علا صراخهم وصياحهم منبهين الآخرين لكي يستيقظوا!! نفر من الأهالي

باشروا بإطفاء النار، وبعضهم الآخر عاش لحظات من الذهول لا يدرون ما يفعلون، وفجأة بدأت الألغام تتطاير بالبيوت، فتراكض الناس بعيداً عنها، فلاقتهم ألغام أخرى من جهات أخرى.. راحت تنفجر بعنف شديد، فانحصر الناس داخل القرية، وسط لهب النار الحارق، والخوف المميت، وسلّموا بأن إطفاء الحريق، ومواجهة الألغام وأصابع الديناميت.. ليس بمقدورهم.. فاحترقت القرية بكاملها، واحترق الكثير من الأطفال، والنساء، والشيوخ، والرجال.. لأن النيران حاصرت القرية من جهاتها كافة، ولأن الألغام أطارت صواب الناس، فما عادوا يعرفون كيف ينجون بأنفسهم! حالة من الذعر، والخوف.. لجمت خطا الناس، وعطلت عقولهم، وشلّت حركة الأطفال.. فأصبحت القرية، بعد الحريق - المرعب -، مقبرة حقيقية! وقد تخوف الثوار من أن هذه الحالة قد تمتد إلى القرى الأخرى.. فنبهوا الناس، والأديرة، والكنائس، والمساجد، فأعلن الإنذار في ليلة شديدة الظلمة، والبرد، والمطر؛ شديدة الحزن والرعب! فاستنفر الناس.. وراحوا يترقبون ما يحدث، وما قد يحدث، بحذر وخوف كبيرين!!

وفي الصباح، مضى خلق كثيرون إلى قرية العباسية، فوجدوا البيوت أشبه بكومة من الثياب المحروقة، لا روائح فيها سوى روائح لحم الأطفال والنساء والشيوخ والرجال، اللحم الذي شوي بالنار، والألغام، وأصابع الديناميت! بدت البيوت خرائب محروقة، والأشجار مقطّعة، وواقعة على الأرض، واللحم البشري متناثراً قطعاً في الأمكنة كافة، هنا لا دروب، ولا ساحات، ولا حياة! هنا.. مشهد يوجع القلب ويدميه، قرية تتحول خلال جزء يسير من الليل إلى مقبرة جماعية، لا طقوس لها، ولا.. صلوات!!

بعد تلك الحادثة، سكن الخوف صدور الناس. أصيبوا بصدمة مرعبة. أحسوا بالخطر يدنو من بيوتهم جميعاً، يطال أولادهم، وأموالهم، وحياتهم أيضاً، لذلك شرع الأهالي ببناء أسوار للقرى؛ أسوار من الحجارة البازلتية

العالية، أحاطت ببعض القرى، وأسوار عريضة من الطين طاولت بعلوها علو البيوت في بعض القرى الأخرى. كما صار للقرى بوابات عالية محكمة الإغلاق. وراح الناس يتوازعون أدوار الحراسة فيما بينهم.. خوفاً من تسلل عصابات اليهود إلى القرى، ومعاودة تكرار الفعل الذي فعلوه في قرية العباسية! تلك القرية التي لم ينج من أفرادها سوى نفر قليل، كتبت لهم الحياة، وهم لا يصدقون! بعضهم اختبأ في براميل الماء، وبعضهم اختبأ في براميل الطحين، وبعضهم الآخر رمى نفسه في كواير القمح.. فنجوا وصاروا وحيدين، الآباء منهم أصبحوا من دون أولاد، والأولاد منهم صاروا بلا إخوة، بلا أمهات، بلا آباء! هؤلاء الناجون لم يتحدثوا إلا عن النيران الحارقة، والألغام المدمرة.. التي طالت أهاليهم، وبيوتهم، وفرشهم، وحيواناتهم! لقد كانوا شهوداً على الخوف، والفزع، والرعب الذي اجتاح الناس والحيوانات، الجميع فروا ركضاً، واختباءً، بعيداً عن النيران، وسطوة التدمير. رأوا الأبقار والأغنام، والماعز، والحمير، والبغال، والخيول، والكلاب، والقطط.. جميعها تلجُّ، تتراكض هنا وهناك طلباً للنجاة من الموت، من الحريق، وهول الألغام، وأصابع الديناميت.. رأوا الأبقار والأغنام تدخل البيوت فتطير بها الألغام، كما رأوا، على ضوء اللهب..، الكلاب والحمير، والقطط، والخيول، والبغال.. وهي تتراكض هلوعة في الشوارع.. فتلحق بها النيران، وشظايا الألغام، وحجارة البيوت! رأوا الأمهات اللواتي يحتضن الأطفال الرضع وهن يحترقن معهم، أو يمتن معهم تحت أنقاض البيوت.. رأوا الكلاب والقطط وقد اشتعلت بها النيران.. تتراكض مذعورة، تدور حول نفسها كالمراوح لعل اللهب ينطفئ أو ينقطع عن ملاحقتها! وسمعوا أصوات الأطفال وبكاءهم، وأصوات الأمهات وصراخهن، ونداءات الشيوخ تحت الأنقاض، وخوار الأبقار، وصهيل الخيول، ونهيق الحمير، ونباح الكلاب، ومواء القطط.. وقد توحدّت جميعها طالبةً الخلاص، والنجاة.. من الموت الفظيع!

الحاشية الأولى

لم تنج سوى امرأة واحدة من قرية العباسية. كانت محروقة تماماً، شعرها، وأطرافها، ووجهها، وظهرها.. جميعها محروقة! فقط منطقة الصدر سلمت من الحرق.. لأن المرأة كانت تحتضن طفلها، أخذته إلى صدرها، حين دهمتها النيران واشتعلت في ثيابها، فانبطحت فوقه، وبسبب مقاومتها للحريق الذي سلخ جلدها وشواه.. لم تدر أنها ضغطت على الطفل أكثر مما ينبغي.. فمات مختنقاً تحتها!

لم تعش المرأة سوى أيام قليلة. كان منظرها محزناً جداً، وقد أصابها الخرس.. كانت لا تأكل ولا تشرب.. تفتح عينيها وتنظر إلى من هم حولها بدهشة وخوف.. وفجأة ارتعشت ارتعاشة صغيرة، ثم أسلمت الروح، و.. انطفأت!

الحاشية الثانية

خلق كثيرون، جاؤوا إلى قرية العباسية، حفروا خندقاً عميقاً، طويلاً، أحاط بالقرية من جميع جوانبها، وراحوا يدفنون فيه الأهالي، وقطع اللحم التي جمعوها في أكياس الخيش، كما حفروا حفرة كبيرة واسعة، دفنوا فيها جثث الحيوانات الكثيرة. بعض من الحيوانات كانت محروقة، وهي لاتزال على قيد الحياة، لكنها لا تستطيع الوقوف، أو المشي! وأزيلت الأنقاض، ورفعت قطعة قطعة بحثاً عن الناس!.. وقد وجدوا الكثير منهم.. مختنقين، ومقطّعين، ومحروقين، لم يعثروا على أحد من الأحياء! كانت هيئات الناس المختنقين، والمحروقين مرعبة حقيقة.. لأن الناس ماتوا وهم في حالة مدافعة عن أنفسهم. كانوا، لاشك، يدفعون النار بعيداً عنهم، كما يدفعون الأنقاض التي نزلت فوق رؤوسهم.. لذلك بدت هيئاتهم مثيرة للحزن والأسى، وقد تشكّلت على الحالات الأخيرة من مواجهتهم للموت الذي انتصر عليهم انتصاراً عجيباً!

كان مشهد الدفن موجعاً للغاية.

وكان الناس في مأتم كبير، وألم لا مثيل له.. أو شبيه!!

الشيخ المصباحي الذي بلل الدمع لحيته، هو من صلى على الجميع، وهو الذي أبكى الناس بدعائه الحزين!

الحاشية الثالثة

نفر من أهالي القرى المحيطة بالعباسية، التحقوا بالثوار، طلبوا منهم أن يساعدوهم على الانتقام من اليهود؛ أن يساعدوهم على الوصول إلى الكبانيات.. لكي يحرقوها مثلما حرقوا قرية العباسية! فيريثهم الثوار، يطلبون منهم الهدوء، إذ لابد من أن يعدوا للأمر بروية وأن يحسبوا حساب المفاجآت. فاليهود داخل الكبانيات حذرون جداً، ولديهم حراس مسلحون، وهم يتوقعون الرد الفوري من الأهالي، لذلك لابدّ من مفاجأتهم، ومراقبة حركتهم، واقتناص الفرصة المواتية للانقضاض عليهم!

وقد اقترح الثوار أن تفاجأ الكبانيات الأكثر بعداً عن العباسية، وأن تشن الغارات عليها لأن حذر سكانها يكون أقل من حذر سكان الكبانيات القريبة من العباسية.. وأن تكون الغارات على كبانيات عديدة، وفي وقت واحد، وعبر هجمات تعقبها هجمات!

وهكذا كان فعلاً!

نشط الثوار، بمساعدة الأهالي، فأحالوا ليل الكبانيات إلى نهار بعد أن أحرقوها تماماً. لكن خسائر اليهود في الأرواح لم تكن كبيرة لأنهم نزلوا إلى الملاجئ فاستحكموا فيها. ولم يفطن الأهالي أو الثوار إلى وجودها! وحين فطنوا إليها.. لم يعرفوا أمكنتها بالضبط!

تذييل أول وأخير

صارت الحياة لا تطاق. فلا أحد آمن في البيوت، ولا في الحقول، أو الطرق! ولكأن البلاد أصيبت بلعنة الموت، والقتل، والحرائق، والأحزان.. فلا أحد يدري متى يموت أو يقتل! كما لا أحد يدري متى تلتهم الحرائق الأمكنة، ومتى تجرف الأحزانُ.. كلَّ شيء!!

الحمّـام..!!

في الطـرف الغربـي مـن قريـة الـشماصنة، يقـع الحمـام العتيـق! حمـام مبني من الحجر الأسود الغامق، عمره يقدر بمئات السنين. تحيط بـه غابـة مـن الأشـجار الكثيفـة، أشـجار الـبطم الـضخمة العاليـة، وأشـجار الخـروب، وأشجار السرو، والسنديان. بدا الحمام، وكأنه كتلة منفصلة عن القرية؛ كتلة جانبيـة، مخبـأة بـين دغلـة الأشـجار الكثيفـة. إلـى شـماله، وفي المنحـدر توجـد طاحونة القريـة، طاحونـة السعدي (أبـو سـليم)، طاحونـة قديمـة أيضاً، تلّفهـا الأشجار لفاً، وهي ذات طبقتين سفلى، وعليا، وحجارتها بازلتيـة داكنـة، لكنهـا في أوقـات الـصيف تـصير ذات لمعـة زرقـاء بعـض الـشيء.. تقـع الطاحونـة في أخفـض منطقـة مـن محـيط النهـر.. ومنـه، تتفـرع قنـاة مـاء شـديدة الـدفق، تنحـدر نحـو الطاحونـة تمامـاً، تـصب علـى دولابهـا الخشبي الكبيـر الـذي هـو عصب الطاحونة.. فيحـرك آلاتهـا الداخليـة، وتبـدأ عمليـة الطحـن.. عـادة مـا تكـون النـساء، والحميـر، والبغـال، والكـدش.. هـي اللائـذة بحيطـان الطاحونـة منـذ الـصباح. تـأتي النـساء بـالحمير، والبغـال، والكـدش، وقـد علـت ظهورهـا أكيـاس البرغـل، والقمـح.. وينحـدر ركابهـا نحـو الطاحونـة.. وهنـاك يـسلمن الأكيـاس لعبـودة أجيـر الطاحونـة، فيـسجلها علـى أوراق دفتـره الـصغير بقلـم الكوبيا.. تنتظر النساء، كما تنتظـر الـدواب.. الوقت الـذي تنتهـي فيـه عمليـة الطحن، فيقوم عبودة، ويسلم أكياس الطحين لأصحابها، ويأخذ أجرته، وهـي على الغالب قمح أو برغل!

لقد حدّد أبو سليم السعدي أوقات طحن القمح والبرغل، أعطى طحنَ القمح ثلاثة أيام، وطحنَ البرغل يوماً واحداً، وأبقى اليومين الآخرين من أجل الاستراحة، والصيانة!

ومع ذلك ظل الناس يأتون إلى الطاحونة وهم يحملون القمح والبرغل في غير أيام طحن القمح والبرغل، وعندئذٍ ترمى الأكياس أمام الطاحونة، وتسجل عليها الأسماء، فلا تطحن إلا في المواقيت المحددة!

وعلى البعيد من طاحونة السعدي، توجد ثلاث معاصر للزيتون، تقع في المناطق المنخفضة أيضاً، وتصل إليها قنوات شبيهة بالقناة التي تصل إلى الطاحونة، وهي تصب في حفرة واسعة شديدة الانحدار نحو دواليب خشبية، هي التي تدير عجلات عصر الزيتون في الداخل! وأمام كل معصرة، ساحة كبيرة، تمتلئ عادةً ببيادر الزيتون في أوقات الموسم، الزيتون الأسود على حدة، والزيتون الأخضر على حدة، وإلى جوار جدران المعاصر.. رتبت تنكات الزيت الفارغة فوق بعضها بعضاً، كما رتبت الجرار إلى جوار بعضها بعضاً. واحدة من المعاصر، وهي معصرة الدبغي، يجاورها معمل للصابون! فهذا الرجل، الدبغي، ذو أصول نابلسية، جاء إلى المنطقة، وافتتح معصرة الزيت، ومن ثم بنى معملاً للصابون!

الحمّام العتيق في القرية، أشبه بالبرلمان، فيه تدور الأخبار، فتحوّم مثل الفراش أو الطيور، وفيه تجمّر الأحلام، وتنمو الرغائب، وتقصّ الحكايات، والتواريخ، وتستعاد الذكريات. وللحمام صاحب كهل يديره ويشرف عليه هو واحد من أهل القرية ينادونه بالحديدي، لديه عمال وعاملات، وقد خصص أيام الأسبوع كاملة للرجال، ما عدا يوم الاثنين جعله للنساء فقط! وعادة ما يأتي إلى الحمام خلق من جميع القرى، وذلك لأنه مشهور بمياهه الكبريتية، مياه دافئة في الصيف والشتاء، شبيهة بمياه الحمة.. وهي ينابيع غزيرة.. يجثم الحمام فوقها بهيكله وامتداده الشاسع!

في داخل الحمام غرف، وأروقة، ومصاطب، وقنوات مياه، وبحيرات، وأجران حجرية واسعة، وعليات، وطبقات، كما توجد مياه متعددة في درجات حرارتها، منها البارد، والفاتر، ومنها الحار، والحار جداً! وفي المداخل تتوازع المكان المناشف البيض، والأغطية البيض، وسلال الصابون، وقفف الليف، وصناديق الخشب الملأى بحجارة الخفان المثقبة، وإلى جوارها توجد طاسات النحاس الملأى بالتراب الطبراني الأحمر اللون الذي يستعمل في غسيل شعر الرأس، فيعطيه لمعاناً زاهياً، ويكسبه رائحة عطرة، وبقربها أكياس الكتان الملأى بالحناء المتعددة الألوان، حنة النقب الحمراء اللون، وحنة الهند السوداء، وحنة الحبشة الخضراء، وحنة النوبة الرمادية!

هنا في الحمام، لا تدور الحكايات، والأخبار، والقصص، فقط، وإنما تدور كاسات الشاي، وماء الزهر، والزعتر، والمليسة، والمريمية، والليمون المغلي، والكمون المغلي أيضاً. كما تدور على من يرغب، كاسات صغيرة فيها مطحون الزنجبيل المغموس بحب الهال، وقد غلى عليه الماء.. فصار أشبه بالعسل المذاب!

في يوم الاثنين، المخصص للنساء، يرى المرء حشود النساء الوافدات كأنهن غابات يتقدمن نحو قلعة الحمام العالية، نساء لهن أشكال وألوان، وأحجام وقامات، نساء لهن وجوه تشبه فلق الرمان بألوانها المدهشة المتعددة، ونساء لهن وجوه أشبه بالمرايا كيفما تلّفتن زهت وحكت.. وأشرقت، ووجوه أتعبها الحزن وأرهقتها السنون.. يأتين إلى الحمام ليتخلصن من متاعب الأيام الماضية، وليقفن على الأخبار!

في يوم الاثنين توجد نساء دائمات الحضور، نساء عجائز يعرفن الأسر، والأسماء، والبنات، والأمهات، والآباء، والجدود.. نساء مهمتهن الأولى هي الحديث عن العرائس، وزوجات المستقبل يتفحصن البنات، ويراقبنهن، نساء خبيرات بالجمال، والأنساب.. لهن ألسن تقطر شهداً،

ولديهن الحجج التي تجعل من المرأة القصيرة طويلة كالرمح، ومن النحيلة الذاوية.. امرأة عبلاء مربربة. هنا في الحمام تعقد صفقات الزواج، هنا مملكة النساء التي تعرفها هؤلاء النساء العجائز..، هنا تاريخ النساء ومستودعه في عقول هؤلاء النساء العجائز، فهن أميرات المكان، يبعن خلطات أعشاب الجرجير، والخرفيش، والقرصعنة، والبسباس، والعيصلان، وعلب العسل، وجذور النباتات، وأطراف الحيوانات المدقوقة، ومناقير الصقور والنسور، وأعصاب طيور الكراكي، وكبود الحيتان، وأجزاء من أقدام النسانيس المطحونة، وخلطات من حبوب الجلبانة، والبركة، والحلبة، وزجاجات من ماء جوز الهند المضاف إليه بعض البذور الأفريقية المطحونة، ودقيق الفليفلة المغموس بقواقع الحلازين المدقوقة، ومسحوق ذيول الأفاعي المتبل بالثوم ونباتات الشومر، وماء نباتات الكلخ المذاب بكعوب الصمغ والبطم، وقرون الخروب المقطعة، وأعواد القرفة.. جميعها موضوعة في علب، وأكياس، وزجاجات، وصرر، وجميعها ذات أثمان وتكاليف.. تشتريها النساء دون مجادلات لكي يشترين بها الدنيا. يسألن عن المواصفات، والمفاعيل، والاستدامات، والأمزجة.. ثم يشترين الخلطات، ويعدن بها إلى البيوت مزهوات وكأنهن يعدن من غزوات غانمة!

هنا، في الحمام، تتكشف النساء على النساء، تتقابل الأجساد كالمرايا، تنشط الجميلات، في الدخول والخروج، والحديث، والابتسام، والمحاورة.. يبدين جمال الأجساد، والشعر، والألوان، لكي يذيع صيتهن في القرى، والأمكنة. يجالسن العجائز ويستمعن إليهن صامتات.. فهؤلاء العجائز هن شواعر المكان، هن من سيحكي عنهن، وهن من سينشر أخبارهن ويذيعها!

وهنا، في الحمام، تدلل العجائز على بضاعتهن، فتتقدم للنساء.. المعاجين، والمراهم، والأصباغ، والخرز، والكحل، والمرايا، والحلي، والعطور، والزيوت، وماء الفضة، وماء الذهب، وماء الزئبق، وماء الجنة، ودهون

مزيلات الشعر، وخيطان الشمع الرفيعة، ودهن الغزال النافخ للوجه، وريش الحباري الجالب للحظ.

هنا، وفي يوم الاثنين، حيث يكتظ الحمام بالنساء الآتيات من القرى البعيدة، والقريبة.. وعند الضحى تماماً.. طار الحمام! تخلعت أبوابه، وتحطمت جدرانه، وساحت مياهه، وشبت النيران فيه.. فاحترقت النساء، والمناشف، والأغطية، والثياب، وخلطات الأعشاب، والأصبغة، والزيوت، وداست النساء بعضهن بعضاً، وعلا البكاء، والصياح، والصراخ.. فقد نُسف الحمام بالألغام وأصابع الديناميت! فخرجت بعض النساء اللواتي تجاسرن، عاريات.. هرباً بأرواحهن، بينما ماتت النساء اللواتي خجلن، وقد انتظرن وصول النيران إليهن باستسلام عجيب.. لقد فضلن الموت على الخروج عاريات من الحمام!

هنا، في الحمام ماتت جميلات القرى.. اللواتي جئن إلى الحمام في ذلك النهار.. الحزين!

الحاشية الأولى

لم يدر صاحب الحمام، الحديدي، من أَقدم على تفجير الحمام! فهو رجل لا أعداء له، ولا خصومات؛ رجل لا أحد ينافسه في المنطقة، لا ضغائن، ولا هموم، ولا تقوّلات. رجل يعمل مثل عامل المقلع، كلما صقل حجراً يأخذ أجرته! وفي آخر النهار يعد الحجارة التي صقلها، ثم يأخذ أجرته!

وعلى الرغم من وجود المشاحنات، والمناوشات، والمواجهات، والظروف الصعبة ظلَّ المرضى، وأصحاب الحاجات، والذين اعتادوا على الحمام يأتون إليه. صحيح أن عددهم راح يقل بين حين وآخر كما راحت ساعات مكثهم تقل في الحمام أيضاً لكنهم مازالوا يأتون!

الإنكليز الذين جاؤوا إلى المكان ليحققوا بما حدث.. قالوا إن العبوات والألغام التي دمرت الحمام هي من النوع ذاته الذي دُمرت به بيوت قرية العباسية!

حين عرف الحديدي هذا..! جلس على حجر قبالة الحمام، وراح ينظر إلى كبانية اليهود، ويهزّ رأسه، ويتمتم:

«ما الذي فعلتُه لهم ليأذوني؟! وما الذي فعلته النساء لهم لكي يجعلوا أولادهن أيتاماً»!

وقال لمن حوله، لو جاءت اليهوديات إلى الحمام لما منع واحدة منهن من الدخول، لكن الآن، وقد دمر اليهود الحمام، وقتلوا النساء وحرقوهن.. فهو لن يسمح لليهوديات بالدخول إلى الحمام مادام حيّاً، لن يسمح لهن برمي أوساخهن داخل الحمام، وهذا المكان حرام عليهن!

كان الحديدي قد شرع في بناء الحمام منذ أن انتهت التحقيقات، كان يردد:

«سأبنيه، ولو ألف مرة، ولن أسمح لهم بالدخول إليه»!

بلى، لم يدمر خواجات اليهود الحمام فقط، بل دمروا الأُسر أيضاً، فالبيوت من دون أمهات.. حرائقُ لا تنطفئ!!

الحاشية الثانية

مرات عديدة،

تمنّى شتيوي لو أن واحدة من عجائز الحمام ترضى عنه فتسمح له بالدخول إلى الحمام في يوم الاثنين ليرى دندي ويجالسها على مرأى منهن؛ لا يريد أن يراها عارية أو يرى الأخريات عاريات أبداً، وإنما يود أن يرى دندي ويجالسها في مكان تختاره عجائز الحمام له داخل الحمام، يجالسها

الوقت الذي تستغرقه رفيقاتها في الاستحمام. يريد أن يراها على مهل من دون مراقبة أو خوف!!

لذلك تجرأ وذهب إلى بيت إحدى عجائز الحمام اللواتي يشرفن على النساء في يوم الاثنين، كان يستشعر فيها اللين، والوداعة، والطيبة.. أكثر من العجائز الأخريات، وطلب منها أن تسمح له بالقدوم إلى الحمام يوم الاثنين ليرى دندي مقابل أن يعطيها ما تريد.. فهبت العجوز في وجهه مثل العاصفة، وزجرته، ثم طردته حين راح يتوسل ويرجو. ونعتته باللافروسية، واللاشهامة، فنكص شتيوي عائداً، مهزوماً.. وهو الذي لم يكن يتوقع أن تكون ردة فعل العجوز على هذا النحو من الشراسة والعنف. ومع ذلك.. لم يتردد شتيوي في أن يطلب من دندي أن تسعى عند عجائز الحمام للموافقة على قدومه، إلا أنها صدّته، ولامته، وقالت له إن فعلت ذلك تفضح نفسها، وتسيء إلى العجائز، وإلى الحمام معاً! فأحس شتيوي بالهزيمة مرة ثانية، وقد ضاقت به السبل، كما أحس بأن عجائز الحمام أشبه بحارسات من عالم آخر.. لحمام عتيق هو من عالم آخر.. أيضاً!!

* * *

زواج دندي..!!

جاءني سمعان.. صباحاً!

قال لي:

- «أريد تزويج دندي، يا سيدي»!

قلت:

- «وشتيوي.. ؟!

قال:

- «له سنوات غائب، ونحن لا نعرف عنه شيئاً.»

قلت:

- «يا سمعان، من أجل أساور فضة.. غاب شتيوي سنة حتى عاد بها، فكيف له أن يعود بعد مضي سنوات قليلة ومعه جرة ذهب.!

قال:

- «ما الذي أفعله يا سيدي، أأنتظره العمر كله! ودندي تذوب مثل شمعة»!

قلت:

- «أنت من أراد هذا يا سمعان، وعليك أن ترضى بالنتائج»!

قال:

- «كيف..» ؟!

قلت:

- «أن تنتظر عودة شتيوي، أو أن تذهب إليه. فتبحث عنه، وتعود به من أجل دندي، ألست أنت من أرسله في هذه المهمة العجيبة«!

قال:

- «أنا لا أذهب إليه، سأخبر والده ليرسل إليه أحداً.. لنعرف ماذا حدث بالضبط«!

قلت:

- «هذا جيد أيضاً«

قال:

- «باركني يا سيدي..» !

قلت:

- «انتظر يا سمعان، واسمعني، فعليك أن تفهم أنك ستقتل دندي إن زوجتها من شخص آخر غير شتيوي، واعلم أنك قتلت شتيوي، فلا تقتل دندي أيضاً. إياك أن تكون ظالماً يا سمعان«!

قال:

- «باركني يا سيدي«!

قلت:

- «حين نعرف الأخبار.. يا سمعان«!

فخرج سمعان، والحزن يملأ وجهه وقلبه. أحسست أنه راح يشعر بالألم والندامة لأنه لم يؤذ دندي وشتيوي فقط، بل آذى روحه، ودمر أسرته وأسرة شتيوي أيضاً. شعرت أنه يعود، الآن، وحيداً في الدرب. خفت أن يضيع، أن يلتهمه الدرب، أو أن يغرقه الحزن، لذلك ناديت غطاس وطلبت منه أن يجهز

العربة بسرعة كبيرة، لكي أخرج وراء سمعان قبل أن أفقده! كنتُ متخوفاً من أن سمعان لن يمضي إلى بيت شتيوي ولن يخبر والده، لن يقوى على مفاتحته. عقله الصلب، المسوّر بالعناد، سيمنعه من الذهاب إلى بيت شتيوي، لهذا لحقت به، خرجت بنا العربة، وأسرعت البغلة. كان غطاس يدرك غايتي، بحثت في الدرب عن سمعان فلم أره، لكأن الدرب أفلته، أو لكأنه ضاع فعلاً. كانت وجهتي نحو بيت شتيوي، لأرى إن كان سمعان قد وصل إليه قبلي أم لا! انتهيت من الدرب ولم أعثر على سمعان، لعله، بسبب حزنه، اجتاز مسافة الدرب ركضاً، لكن من أين يأتي سمعان بالقوة، والشباب، ليركض في هذا المنحدر الخطر؟! قلت لعله الحزن.. يفعل الأعاجيب! ورحت أصلي من أجله كي لا يكون عاثر حظ، أو بعيداً عن رحمة الله بسبب أفعاله! ولم أتوقف عن الصلاة، كما لم تتوقف العربة عن الجريان إلا أمام بيت شتيوي! وأمام البيت تماماً، رأيت سمعان يقف بانتظاري! ففرحت. رأيته مبتسماً وهو يخف لملاقاتي! أخذ بيدي، وأنا أهبط من العربة، وخلفه رأيت والدة شتيوي، وقد انطوت على نفسها، رأيتها تبكي. سألتها عن كعدي، (أبو شتيوي) فقالت:

- «إنه مريض، ممدد في الفراش»!

قلت بصوت عالٍ:

- «أين هو.. هذا العجوز الذي يتشاقى»؟!

قالت:

- «في الداخل يا سيدي»!

فدخلتْ، ودخلت وراءها، يتبعني سمعان!

كان صوتها يتعالى منادياً كعدي كي يستعد لملاقاتي. كي يعود من غفوته إن كان غافياً، أن يتململ في مرقده إن كان ساكناً، أن يستقبلنا ببشاشة. كانت تصرخ به لكي ينهض. فطلبت منها أن تدعه كما هو، فنحن

لسنا غربا، نحن الآن ضيوفه، وله أن يستيقظ متى أحب، وله أن يرحب بنا متى شاء! وبقربه تماماً جلستُ، ورحت أنظر إليه، وقد حاذاني في الجلوس سمعان. كان كعدي أشبه بالرجل؛ خيالاً أو يكاد. نحولته الآن تبدو أكثر وحشية وحزناً، ووجهه يشبه وجوه الموتى؛ وجه أبيض تغشاه صفرة كابية. رأيته يتململ في فراشه، ويهمهم مرحباً، سحبته زوجته من كتفيه إلى الأعلى، وأسندته إلى الجدار، ووضعت مخدة عريضة خلف ظهره مباشرة، وقالت له:

- «ها هو سيدنا.. يأتي إليك.. يا حيف.. انهض»!

فهمَّ كعدي أن ينهض، حاول أن يقف فنهيته! قلت له:

- «أنت مريض يا كعدي، لا تنهض.. إنني أراك بوضوح، جئت لأعرف أخبارك، كما جئت لأدعو لك»!

فهمهم بكلمات الشكر، والمحبة، والرضا، والترحيب، وقال بوضوح:

- «نحن لا نستحقك يا سيدي.. أنت تعذّب نفسك من أجلنا دائماً. نحن كلاب. نحن أقسى من الكلاب وأشرس. نحن بحاجة لجلادين.. لا لرهبان يا سيدي..» !

قلت مواسياً:

- «لا يا كعدي.. الرحمة في الأرض كما هي في السماء.. هذا هو ناموس الدنيا»!

قال:

- «نحن تجبّرنا يا سيدي، لهذا نستحق العقوبة. الله رحمني بشتيوي.. فأين هو؟! قل لي.. أين هو ؟! راح!! الرحمة راحت! وها أنذا أموت وما من أمل لي سوى أن أرى ابني حولي يدفنني بيديه، لكن أين هو»؟!

وصمت يغالب دموعه، وغطى وجهه كي لا أرى رجفة شفتيه، وانفعال وجهه. أوجعني كلام كعدي، وهيّج مشاعري. وكاد يبقيني في دائرة الصمت أيضاً! إلا أنني قلت له:

- «يا كعدي، من أجل الرحمة التي تتحدث عنها، ها هو سمعان يأتي معي لكي يزورك.. ويعرف أخبار شتيوي«!

نظر كعدي إليَّ باهتمام وعمق، وقال بانكسار:

- «يزورني لماذا يا سيدي؟! إنني أموت. ربما جاء ليودعني. وإن كان يسأل عن شتيوي.. فشتيوي مات«!

قلت:

- «يا رجل.. لماذا تقول هذا؟! أنت الآن لا تموت، وشتيوي لم يمت أيضاً«!

وهزَّ رأسه، فانسكب دمعه على وجهه، وتلامعت عيناه. ودخلت زوجته، تحمل صينية فوقها كؤوس مملوءة بشراب التوت. أدنتها مني، ومن سمعان، ومن زوجها كعدي، وهي تتعذر، وتطلب السماح لأن الضيافة لا تليق بنا. فهذا الشراب ليس سوى حبات توت كانت ساقطة تحت شجرات التوت التي تحيط ببيتهم، جمعتها ونقعتها فصارت الشراب الذي نشربه! فأقوي من عزيمتها. وأقول لها إن شراب التوت يطرد عكر الدم، وهو مفيد لكعدي، يمنحه.. الحيوية، والقوة. فتقول بأسى أن كعدي حطت قوته، وتحطمت روحه، وصارت الحياة عنده خرابة بعدما راح شتيوي! فأسألها إن كان لديها أخبار عن شتيوي، فتقول:

- «يبدو أنه مازال حياً. لأن أخبار الموت مثل الروائح لا تُخبأ«!

وتضيف بألم:

- «كعدي يقول إنه مات، وشبع الموت منه«!

فيصرخ كعدي بها، وقد اندلق الشراب من كأسه:

- «طبعاً مات! واحد له ثماني سنين غائب.. ولا أحد يعلم عنه شيئاً ماذا سيكون؟! ها..! لو كان حيّاً لأرسل إشارة، أو علامة! لكنه ميت! والميت.. ميت«!

ولم أعبأ بموجة الحزن الجديدة التي اجتاحت أرواحنا، لهذا قلت لوالد شتيوي:

- «يا كعدي، هذا سمعان، جاء يطلب منك أن تسأل عن شتيوي، أن ترسل إليه أحداً لكي يعود به. ابنته دندي مريضة أيضاً«!

فيسألني كعدي، وكأنه لم يسمع قولي:

- «والذهب يا سيدي؟! ألا يريد سمعان جرة الذهب التي طلبها من شتيوي؟! أم أنها كانت الحجة لكي يموت شتيوي بسببها« ؟!

فأقول له:

- «يا كعدي. سمعان جاء.. وهو لا يريد الذهب. قصة الذهب والجرة انتهينا منها! سمعان يأتي لكي ترسل أحداً إلى شتيوي لكي يعود به. افهم. ولا تفتح دفاتر العتب والشماتة الآن«!

فتهمهم زوجته، وقد رأته صامتاً:

- «ومن نرسل إليه يا سيدي! وأين هو مكانه الآن.. لقد سألنا عنه في بنت جبيل، وصيدا، وصور، ولم نجده.. لعله ذهب إلى بيروت أو إلى الشام..» !

ويقول كعدي باطمئنان:

- «لم يذهب إلى بيروت، ولا إلى الشام، الولد مات..» !

قلت:

- «لا تقل هذا يا كعدي..! أنت لا سيرة عندك إلا سيرة الموت. ابنك عنيد، وأنت تعرفه، لن يعود إلا ومعه ذهب يملأ جرة«!

قال بحرقة:

- «طبعاً هذا طلب سمعان.. والله لو سلمه لجندرمة العصملية لكان هذا أهون، أو لو سلمه لعسكر الإنكليز لكان هذا أهون.. لو سجنه، يا سيدي، لكان هذا أهون، لو ظلَّ يفلح عليه.. لكان أهون«!

أحسست بروح كعدي تتشقق على ولده. كما أحسست بأن الحوار الطويل في هذا المجال سيؤذي صحته أكثر، قلت له بالمختصر أن سمعان يأتي إليه، وهو لا يريد الذهب ولا المهر، ما يريده الآن هو أن يُرسَلَ أحد إلى ابنه، فيعود به، أو يعود بأخباره، لكي يعرف سمعان ماذا يفعل!

فقال كعدي:

- «هل جاء دندي عريس»!

فقال سمعان:

- «نعم، يا كعدي، جاءها عريس. إذا كنت تعرف أن ابنك مات قل لي، أو إن كنت تعرف وقت عودته قل لي أيضاً.. لأعرف خلاصي..» !

فصرخ كعدي بأسى:

- «اسمع يا سمعان، شتيوي مات! زوّج ابنتك ممن تشاء،وسأكون أول من يبارك لها»!

وقطعت الحوار، ما عدت أحتمل أن يتوتر كعدي أكثر.. فخرجتُ موجعاً كسيراً بعدما خرج سمعان قبلي. وقد تركت خلفي كعدي، والد شتيوي، وزوجته، روحين دمرهما غياب شتيوي المُرّ؛ روحين لا تنفع معهما دعوات المواساة، أو النصح، أو الانتظار، وقد أيقنا معاً أن ولدهما طار.. ولا أمل لهما في عودته المرجوة!!

الحاشية الأولى

طبعاً، لم يكن هناك عريس يود الزواج من دندي. لكن سمعان كان قلقاً على صحتها التي تراجعت كثيراً. الجميع يعرفون أنها لشتيوي، وما من أحد يتجاسر على طلب يدها، بعدما ذاعت قصة حبها لشتيوي. وكانت هي تعرف هذا، كما كان أبوها وأمها يعرفان هذا أيضاً. لكن القدر لعب لعبته

وتزوجت دندي فعلاً! حدث ذلك بعد موت والدتها التي لدغتها أفعى حين كانت تجمع بيض الدجاج من القن. لم يمهلها السم طويلاً حتى ماتت! أخذها سمعان في عربته إلى إحدى كبانيات اليهود القريبة لكي ينقذها من سم الأفعى، لكن السم مشى مع الدم، وقضى عليها في الطريق، فعاد بها جثة لا حركة فيها ولا روح!

ماتت الأم، فصار البيت أشبه بالمقبرة. لا شيء سوى صياح سمعان، وغضبه، وشتائمه التي راحت تطال الجميع. لكأن الرجل فقد أعصابه وقد صار بلا مؤنس بلا رفيق.. ولم تمض سوى سنة أو أقل حتى كانت دندي زوجة بالإكراه لذيب الأيوب!

لقد أعطى ذيب الأيوب أخته عذاب زوجة لسمعان، وأخذ بديلاً عنها دندي زوجة له. كلاهما كانا متزوجين، ولهما أولاد كبار، وكلاهما كانا بحاجة إلى الزوجة التي تقوم بأعمال لا يقوم بها الأولاد عادة! بهذا الزواج سكنت روح سمعان، وهدأت أعصابه!

كانت زوجة ذيب الأيوب، عدلة، قد ماتت منذ سنوات، فراحت أخته عذاب تقوم على شؤون أولاده وتربيتهم.. لقد عذبتها الحياة معهم فأرادت خلاصاً لها، ولم يكن الخلاص إلا بالزواج من أي كان.. كانت تريد أن تتعب، وتشقى، وتكنس، وتطبخ، وتغسل من أجل أولادها هي لا من أجل أولاد أخيها، لهذا لم تتردد لحظة واحدة في قبول سمعان زوجاً لها، وإن كان يكبرها بسنوات عديدة. فهي لم تكن صغيرة أيضاً.. كانت عانساً منذ سنوات طويلة! الحزن كله وقع على دندي التي جعلها غياب شتيوي شبحاً، صورة امرأة، مروداً في مكحلة! لم يكن لها من خيار في الزواج من ذيب الأيوب. لم تقل كلمة واحدة حين استشارها أبوها. كان يعرف أنها لم تعد دندي التي يعرفها، لقد قلّ كلامها، وترمدت روحها فذبلت مثل وردة! كانت شاردة، وهائمة، وحائرة.. في أكثر الأحيان!

حين قرر سمعان وذيب الأيوب موعد ليلة الزواج،.. جاءت بعض النساء من طرف سمعان، وأخذن عذاب أخت ذيب الأيوب من عنده، وعدن بها إلى سمعان، كما جاءت بعض النساء من طرف ذيب الأيوب، وأخذن دندي بنت سمعان إلى ذيب الأيوب! دندي التي رفضت أن تستبدل ثوبها الأسود الذي لبسته منذ رحيل شتيوي! بصعوبة بالغة وافقت أن تضع على كتفيها دامر القصب الذي أرسله إليها ذيب الأيوب كهدية زواج!

كلتاهما، عذاب ودندي.. دخلتا إلى الحياة الجديدة.. وكأنهما أضحيتان ليس غير!

الحاشية الثانية

مات كعدي، والد شتيوي!

وصارت امرأته وحيدة!

أخبرتني، أنه، وقبل أن يموت بوقت قصير، حيّرها بطلباته، طلب منها أن يأكل فوضعت له الطعام، وطلب منها أن يتحلّى فوضعت له صحن دبس. وطلب منها شيئاً من التين اليابس فوضعت له (مشكاً)، وطلب شراباً ساخناً فصنعت له شراب الزعتر، ثم اشتهى أن يشرب شاياً بالنعناع فصنعت له شاياً بالنعناع. وأخيراً طلب منها أن تضع بقربه طاسة (الدوم) فوضعتها، وراحت تراقبه، وهو يأكل حبات الدوم الحلوة، ويلفظ بزرها الصغير الناعم! لقد سألته عن سبب هذه الطلبات الكثيرة، فقال لها إن نفسه تشتهي.. لعله سينفض المرض بعيداً عنه! وتتخوف هي من أن تكون هذه الطلبات هي الطلبات الأخيرة لكعدي الذي عاشت معه سنوات طويلة، لم تسمعه فيها ولو مرة واحدة يلعنها، أو يلعن أهلها! كما لم ترَ يده مرفوعة عليها، ولو مرة واحدة، كان إذا غضب يخرج من البيت فلا يعود إليه إلا وقد زايله الغضب. وقالت لي لم تدر كيف انطوت إلى جواره، بالقرب من النار.. وقد أخذتها

الغفوة الطويلة.. فلم تستيقظ إلا على صوته، وهو يهمهم بالدعاء! فأخذته إلى صدرها، وقد رأته يرتجف من البرد! وهزّته لكي يهدأ.. إلا أن كعدي ظلّ يهمهم بالدعاء إلى أن صمت صمته الأخير.. فسكن بين يديها، وعيناه تشخصان إليها، فأغلقتهما.. وبكت! ولم تشأ أن تخبر أحداً بموت كعدي، ظلت هي الوحيدة التي تساهره في الليل الماطر، إلى أن طلع الصباح! لعلها كانت تودّ أن تودعه وداعاً يليق به! فغسلت له شعر رأسه ومشّطته، ثم ألبسته أحسن ثيابه وأنظفها، ومددته في الفراش، وعطّرته بالروائح الطيبة، ثم أخبرت الناس!

الحاشية الثالثة

لم تستطع دندي العيش مع ذيب الأيوب. كان رجلاً ظالماً. يضربها في اليوم الواحد مرات عديدة. يتهمها بشرفها، وأخلاقها، وقلة عقلها! يقارنها بامرأته التي ماتت، فلا تبدو أمامها سوى جارية، أو حشرة، أو كلبة ليس غير. فلقها بسيرة امرأته الميتة. ومع ذلك ظلت معه حوالي سنتين أو نحو ذلك.. أنجبت منه خلالها طفلة سمّتها زانة! أبوها هو الذي طلقها من ذيب الأيوب. ما عاد يحتمل قصص العذاب التي تتعرض لها، وقد جنّ سمعان حين رأى آثار قضبان الحديد المحماة بالنار على جسدها! لقد جاءت إليه، وقالت له إنها ما عادت قادرة على العيش مع ذيب الأيوب، فهو وحش، يعذبها في الليل ويضربها، بعد أن تتمنع عليه، ثم يربطها بالحبل، ويمزق ثيابها، وحين يصير جسدها عارياً أمامه يرتمي عليها كالوحش، وما هي إلا لحظات حتى ينهض، ويشرع بكيّ جسدها بقضبان الحديد المحماة على نار الحطب! يحرقها، فتصرخ وتستجير، لكن ما من مجير لها لا في الليل ولا في النهار! ترى جسدها يذوب تحت لسع قضبان الحديد الحارقة، ويتشوه.. فيطير عقلها، وتصرخ من الألم الشديد!

هذه المرة تجرأت دندي، وكشفت عن جسدها، فبانت مواضع الحرق أمام نظر أبيها. قالت له:

- «إن كنت تقبل بهذا.. دعني بين يدي ذيب الأيوب.. حتى أموت»!

فجنّ سمعان، وهاج.. ثم طلّقها! دفع مهر زوجته عذاب لذيب الأيوب كي لا يطلقها مقابل طلاق ابنته، واستعاد دندي التي جاءت إليه مع طفلتها زانة! وبهذا خلّصها من قرف الحياة مع رجل لم يحترمها ساعة واحدة!

* * *

الخوف.. في الدير!!

ليلاً،

جاء إلينا بعض الثوار. قرعوا بوابة الدير بشدة، ففُتحت لهم. طلبوا من الرهبان الحماية، فأيقظوني. سألتهم عما حدث، فقالوا: فجرنا دورية إنكليزية. أحرقنا السيارة، وقتلنا وجرحنا من فيها! ونخاف أن يتعقبونا، نخاف أن يكون أحد من أفراد الدورية قد بقي على قيد الحياة فأخبر قيادتهم بما حدث، أو أن يكون الإنكليز قد رأوا الحريق في السيارة فسارعوا إلى معرفة ما حدث!

كان علينا أن ننقل الثوار، وعددهم خمسة، إلى خارج الدير، بعدما بتنا لا نأمن شر الإنكليز، فقد جاؤوا أكثر من مرة، وعاثوا فساداً في الدير. فتّشوا الغرف، والأروقة، ودخلوا إلى المستودعات.. لم يراعوا قدسية الدير، ولم يحترموا المكان!! في المرة الماضية كسروا العديد من قطع الفخار في الرواق الجنوبي للدير.. وهم يتراكضون على نحو هستيري، لكأنهم كانوا متأكدين من وجود الثوار في الدير! لكنهم لم يجدوا أحداً.. فخرجوا مهزومين.. خائبين. حماقتهم منعتهم من الاعتذار عن الذي اقترفوه بحق الدير!

قلت للإخوة في الدير، علينا أن نتصرف بسرعة شديدة قبل فوات الأوان. طلبت منهم أن يخلعوا ملابس الرهبنة ويعطوها للثوار لكي يلبسوها، وأن يضعوا الجريح في أحد توابيت الدير بعدما ضمدوا جروحه؛ ففعلوا! وطلبت من الثوار أن يخرجوا إلى العربة لكي يركبوا فيها، فتبتعد بهم مسافة

تجعلهم خارج الطوق الذي سيفرضه الإنكليز حول المنطقة.. كعادتهم! ألبسناهم جميعاً ثياب الرهبان، وصعدنا بهم إلى العربة التي جهّزها غطاس، ووضعنا التابوت في منتصفها، ومددنا الجريح بداخله، وانطلقنا بالعربة نحو قرية (المرج)، في ليل شديد الهدوء، شديد البرودة.

قلت للثوار سأتلو بعض الأدعية، وعليهم أن يرددوا ورائي، كي لا تضبطنا إحدى دوريات الإنكليز ونحن طيّ الصمت نترقب المفاجأة! فوافقوني، ورحنا ننشد الأدعية الحزينة! لم يكن مسموعاً، في هدأة الليل الشاسعة سوى صخب العربة، وأصواتنا، وبعض عواء الذئاب، وبنات آوى! ابتعدنا كثيراً عن الدير، ولم تصادفنا أي دورية إنكليزية، وهذا ما شرح صدورنا، لكننا،وقبل الدخول إلى قرية (المرج) رأينا دورية حاشدة للإنكليز تعترض الطريق بالأضواء الكاشفة. طلبوا منا إيقاف العربة، فأوقفها غطاس، ونحن ما نزال ننشد، وكأن الأمر لا يعنينا أبداً. سلطوا الأضواء الكاشفة نحونا، وتمعّنوا في لباسنا، ووجوهنا، ثم صعد أكثر من واحد منهم إلى العربة، وحركوا التابوت ليتأكدوا من أنه ممتلئ بجثة، ثم هبطوا..، وسمحوا لنا بدخول القرية دون أن يسألوا أي سؤال!

مررنا بهم ونحن ننشد باستغراق تام! ولم نشعر بالأمان إلا عندما أحاطت البيوت بنا.

الحاشية الأولى

لم يعد مجيء الثوار إلى الدير مفاجئاً لنا! لقد اعتدنا عليه، منذ سنوات بعيدة. في المرات الأولى أحدث مجيئهم حيرة كبيرة لدى الرهبان. أحسوا أن الخطر يدهمهم مباشرة، وأن الثوار، بمجيئهم إلى الدير، يسحبون وراءهم النار، والقتل، والموت، لكنني، ومنذ اللحظات الأولى، طردت الخوف من نفوس الجميع، وزرعت الأمان. قلت لهم، هؤلاء أهلنا، إخوتنا، يأتون إلينا

من أجل الحماية. وعلينا أن نساعدهم من دون تذمر أو خوف. إن كنا قادرين على إخفائهم فلنفعل، وإن كنا قادرين على التغرير بدوريات الإنكليز فلنفعل أيضاً، المهم أن ننجد هؤلاء الثوار، ونكون معهم على الدوام. وأن نقابلهم بالمحبة في كل الأوقات.. حتى في أوقات نومنا، ألا نتركهم صيداً سهلاً للإنكليز، أو عصابات اليهود! والحق، أنني لم ألحظ أي تذمر من الرهبان أو الراهبات، عدا بعض علامات المفاجأة الصعبة في المرات الأولى! في البداية لم نخبر الراهبات بما يحدث، إلا أن تكرار مجيء الثوار جعلنا جميعاً نعيش ما يحدث. وقد تسابقنا إلى تقديم المساعدة. وقد أحسسنا أن قلوب الراهبات أكثر جسارة من قلوب بعض الرهبان. أحد الثوار الجرحى ظل في الدير شهوراً عديدة، وهو يتعافى من جروحه وكسوره. تناوبت على تمريضه أكثر من راهبة، ولم يغادر الدير إلا بالبكاء امتناناً للأيدي التي ساعدته، ولم تودعه الراهبات إلا بالبكاء وقد اعتدن على وجوده في الدير!

الحاشية الثانية

واحد من الثوار مات بين أيدينا!

جاء به الثوار ليلاً، كان مغطى بالدم. جسده أشبه بنافورة الماء، كان مثّقباً بالرصاص! ما كنا قادرين على وقف نزيف الدم. فمات! مات وهو ينظر إلينا! بدا لنا كطفل ينام بهدوء. يفتح عينيه ويغمضها، ثم، وحين يطمئن إلى وجودنا قربه، يغمضهما الإغماضة الأخيرة!

أراد الثوار أن يأخذوه إلى قريته في الليل. فرفضت. خفت أن تصير جثته مصيدة لهم، ولأهله في القرية. قلت لهم:

- «هذا حصة الدير! سندفنه بجوار الدير حرصاً عليكم، وعلى أهله»!

قالوا:

- «لكن.. لابدّ لنا من أن نخبر أهله»!

قلت:

- «أخبروهم، فإن وافقوا أبقيناه هنا، وإلا.. فليأخذوه»!

لقد عرفوا فيما بعد، أنني لم أكن متمسكاً بالجثة إلا من أجلهم، لكي تهدأ الحال، فتؤخذ الجثة وتدفن بهدوء في المكان الذي يريدونه.. بعيداً عن عيون الإنكليز الراعبة!

الحاشية الثالثة

لامني الرهبان كثيراً لأنني وافقت على تخزين بعض الأسلحة داخل الدير. قالوا لي إنني أمدّ ألسنة اللهب إلى داخل الدير، وأجعل أرض الدير مداساً للإنكليز! فشرحت لهم طويلاً، أننا بعملنا هذا لا نمدّ ألسنة اللهب إلى داخل الدير، وإنما نشق للدير درباً نحو التاريخ كي لا نكون خارج التاريخ، وبعيداً عن الناس. قلت لهم إننا بعملنا هذا نكون داخل الكتب وداخل الكلام.. ولا نكون على الهامش. فما وافقوني. خفت أن تمتلئ نفوسهم بالقلق بسبب الأسلحة.. وهي ليست كثيرة. قالوا إننا بهذا العمل نخرج الدير من بوابتين، بوابة الإنكليز، وبوابة الثوار. وقلت لهم، إننا بعملنا هذا نصنع للدير بوابتين، واحدة مغلقة بوجه الإنكليز، والأخرى مفتوحة بوجه الثوار! فما وافقوني.. أيضاً. ومع ذلك عملوا بمشورتي دون موافقتهم، اقتطعنا جزءاً من المستودعات، وخزّنا الأسلحة بداخله؛ بحيث بات من يدخل إلى المستودعات يشعر أن نهاية المستودعات موجودة عند الحائط الذي يخفي وراءه أسلحة الثوار، جعلنا للحائط باباً، أخفيناه بالصناديق الخشبية، وأكياس الخيش الملأى بالشعير والذرة الصفراء! قام نفر من الثوار، والرهبان ببناء الجدار ليلاً وبحماسة غير عادية، أما الباب فقد صنعه النجار عيسى المشنوق في قرية الشماصنة. أخذنا له قياساته، فأنجزه خلال ساعات الصباح. انتظره غطاس حتى انتهى منه، ثم عاد به إلى الدير.

كنت أدعو اللّه أن تمرّ الأيام من دون أن تخذلني.. أمام الرهبان، ألا ينكشف مكان الأسلحة، فأصير سبباً للقطيعة ما بين الأرض والسماء!

تذييل أول

لعلّ بعض الرهبان اتهموني بالجنون، وهم يرون أسلحة الثوار تنقل إليهم بعربة الدير، داخل أكياس القمح، والشعير، والذرة، والتبن، ترُمى لهم في مواقع، ونقاط حدّدوها لي من قبل!

كانت قلوبهم ملأى بالحذر والقلق.. مخافة أن أُضبط في إحدى المرات، والأسلحة معي.. داخل عربة الدير. أنا في مقدمة العربة أصلي، والأسلحة مطوية، ومخبأة داخل الأكياس.. لكن، في جميع المرات، كنت أتفادى العقبات فأتخطى الحواجز، ونقاط التفتيش، ودوريات الخيالة.. دون أن ألفت انتباههم، كنت أوّزع عليهم الزبيب والجوز، فيظنون أنني أبارك أعمالهم! لم ألحظ يد غطاس ترتجف أبداً، وهو يوزع عليهم الزبيب والجوز، كان غطاس أشبه بالوحش، وكأن ما يقوم به من مساعدة للثوار، هو العمل الأبدي الذي خلق له. من غطاس، وكيل الدير، كنت أستمدّ شجاعتي، أقلّد هدوءه، ورصانته، وصمته العميق، ولم أعرف إلا متأخراً أنه هو من كان يستمد الشجاعة مني، فيقلد هدوئي، ورصانتي، وصمتي العميق!

تذييل ثانٍ

رشيدة التي كانت تبحث عن غطاس ابن ربيحة. هي التي ندبت نفسها لتذهب مع غطاس في العربة، من أجل توصيل بعض القنابل اليدوية للثوار، قرب وادي الحمام، قالت لي برجاء:

- «دعني، أعمل شيئاً نافعاً يا سيدي. ليصير لحياتي معنى. لأفك حيرة روحي. وظلمة قلبي.. أرجوك«!

فوافقتها بفرح شديد، وقد رأيت محبة الثوار شرارة راحت تنمو لتصير ناراً تدفئ قلوب الرهبان، وطلبت منها الحذر. وأوصيت غطاس أن ينتبه جيداً، وأن يستفيد من تجاربنا السابقة، أن يكون هو المبادر في الحديث مع دوريات الإنكليز، ألا يضع نفسه في موضع الانتظار لأسئلتهم، ومفاجآتهم، وامتداد أيديهم إلى ما في العربة.. فوعدني خيراً بهزة من رأسه الذي أقنعني بأنه مملوء بالعقل الصافي المحب..!! رأيت راهبات الدير، والرهبان يتسابقون على قطف حبات الرمان، وأكواز التين من حديقة الدير، ملؤوا صناديق خشبية عديدة، وبعض أكياس الخيش الصغيرة بالرمان، ووزعوا القنابل الصغيرة داخل واحد من الصناديق السفلية؛ غطّوا أرضية الصندوق بكيس من الخيش، ووضعوا القنابل ثم لفّوها بالكيس من جميع الجوانب.. ثم وزعوا حبات الرمان الكبيرة فوقها! كما صفوا سلال التين إلى جوار المقاعد الخشبية وثبتوها كي لا تقع أو تميل!

ومضت العربة بغطاس، ورشيدة إلى منطقة وادي الحمام.. مروا بالعديد من نقاط التفتيش واجتازوها دونما خوف أو قلق، ومرت بهم أكثر من دورية خيالة إنكليزية، لكن لم يحدث ما يعكر سيرهم.. كان رجال الدوريات الخيالة يرون رشيدة، وغطاس، وهم يمرون بالبيوت، والأهالي.. فيوزعون عليهم حبات الرمان وأكواز التين فاطمأنوا أنهما يقومان بأعمالهما الخيرية. وعند المكان المحدد، قرب وادي الحمام، رمى غطاس صندوق القنابل إلى جوار رجل عجوز يلتف بثيابه البالية. وعاد إلى العربة، ورشيدة تصلي. ولم يكن ذلك الرجل العجوز إلا أحد الثوار وقد تنكر بلحية طويلة وثياب بالية كي لا يلفت الانتباه إليه. أخذ الصندوق، وانحدر به نحو الوادي! واستدارت العربة، وعادت.. ولم يتبق في صندوقها سوى القليل من الرمان، والتين!! فقد أراد غطاس ورشيدة أن يتحوطا للمفاجآت في درب العودة.. مخافة أن تتغير الدوريات بين وقت وآخر.. فيعطيان من يقابلهما بعض حبات الرمان المتبقية لديهما، وبعض أكواز التين!

لم أر رشيدة فرحة من قبل كما رأيتها حين عادت مع غطاس، وقد أوصلا القنابل للمقاتلين. رأيتها تركع بخشوع أمام المذبح.. وتصلي! وحين انتهت، نهضت.. فرأتني أراقبها، فتقدمت نحوي، وانحنت، فوضعت يدي على رأسها، وباركتها في لحظة بدت لي أعزّ من الوقت، وأحلى من السكر!

تذييل ثالث

لم يدر بخلدي، أن نجاح الثوار المتتالي سيجعل الإنكليز يشكون بالناس الجميع، وأنهم سيقومون بتفتيشي، وتفتيش غطاس، والعربة أيضاً!

لقد وقع المحظور الذي كنا نخافه!

كنا قد عدنا من قرية الخالصة. وتوجهنا نحو الدير.. فمررنا بالعربة من نقطة التفتيش الأولى، ولم يطلب أفرادها منا أي شيء غير عادي أو مفاجئ. سألونا عن حمولة العربة، فقلنا إنها أرزاق، وهبات للدير، فسمحوا لنا بالمرور من دون أي عقبات، لكن عند وصولنا إلى نقطة التفتيش الثانية لاحظنا الاحتياطات الكبيرة في الحراسة، فما إن وصلنا، حتى بادر أفراد النقطة إلى إيقاف العربة بعصبية واضحة، وأمرونا بالنزول بلهجة قاسية، فهبطنا أنا وغطاس، ووقفنا إلى جوار العربة، وبادرتهم بالقول، أننا أتينا من قرية الخالصة، نحمل الأرزاق والهبات للدير، وهممتُ بمناولة أحد الأفراد القريبين مني حفنة من الزبيب إلا أنه دفع يدي بعيداً عنه فأحسست بالخطر، والخوف، والقلق! وقد زاد قلقي عندما رأيت أفراد النقطة يُنزلون الأكياس، والصناديق، والقفف، والسلال، والأقفاص،.. بعصبية ونزق! كانوا يبحثون عن شيء ما يعرفونه، حين انتهوا من تنزيل حمولة العربة، أبعدوها عن الحمولة، وشرعوا يفتشون الحمولة بدقة متناهية! هنا، صرت أسمع دقات قلبي! فاقترب غطاس مني أكثر، لعله أحسَّ بقلقي وخوفي، فحاذاني، وحك يده بيده، فأخذتها حشو كفي، وشددت عليها! كنت أعرف أن بين

أغراض الحمولة صندوقاً طويلاً فيه بنادق وذخيرة للثوار. فتهيأت لأقول لأفراد الدورية إن ضبطوه معي إن هذا الصندوق ليس للدير، وإن أحداً ما ربما رماه في العربة دون معرفة منا.. لكن المدهش أن أفراد الدورية لم يعثروا على الصندوق! بل إن الصندوق نفسه لم يكن موجوداً أصلاً بين حمولة العربة! لذلك تنفسنا الصعداء، ونحن نرى عصبية أفراد النقطة ونزقهم قد تبددا نهائياً وهم يعيدون حمولة العربة إليها..

وسمعتهم، وأنا شارد، يعتذرون مني، ويتخوفون من هجمات الثوار، وقدرتهم على النفاذ والوصول إلى أكثر الأمكنة أمناً وحراسة! ورأيت وجوههم تتلون بالألوان التي لا يحبونها، حين قلت لهم:

- «إنها بلادهم، يعرفونها.. كما يعرفون أولادهم، وهم يحبونها.. كما يحبونهم تماماً«!

ومضيت من دون أن أحفل بهمهماتهم، وتمتماتهم الراطنة!

وفي الطريق، عرفت أن غطاس هو من أنقذنا من هذا الكمين. لقد رأى رجلاً عجوزاً يراقبنا طوال الوقت، وقد رآه يغيب حين وصل صندوق البنادق والذخيرة إلينا..، لذلك ترك غطاس الصندوق على الأرض، ولم يرفعه إلى داخل العربة، ويبدو أن الرجل العجوز ظنّ أن الصندوق سيُحمل إلى العربة من دون شك، فأبلغ عنا جماعات الإنكليز.. فقام هؤلاء بتفتيش حمولة العربة تفتيشاً دقيقاً.. أرعبني بحق!

أعترف، أن نباهة غطاس هي التي أنقذتنا.. في هذه المرة..!!

* * *

العودة.. من أمريكا..!!

الآن،

بدأت أشعر بالغربة الحقيقية.

لا شيء حولي سوى الماء، والباخرة تمشي كالسلحفاة في ليل مظلم شديد السواد. بقربي تنام فتيحة أشبه بالبيدر. امرأة ذات حجم خرافي. بقربها يشعر المرء أنه ينام وسط حشد من المخلوقات.. فأنفاسها تملأ الغرفة، وجسدها يشغل حيزاً كبيراً منها. إن نامت لا أحد يستطيع على إيقاظها. مخلوق ينام بإرادته، ويستيقظ بإرادته أيضاً! فتيحة القاسية الصلبة، ذات الوجه الحديدي.. والنبرة الحادة، فتيحة التي اعتادت على إصدار الأوامر.. هي الآن مخلوق آخر؛ مخلوق لطيف.. لا ينهر ولا يأمر؛ مخلوق لا يعرف العبوس أو القسوة! فتيحة هي من يدللني في هذا الفضاء الرحب، داخل هذه الباخرة العجيبة، هي من يقترب مني، وهي من يشعرني بإنسانيتي، وفتيحة هي المخلوق الذي ألجأ إليه حين يلتهمني وجه دندي! بقربها، أحكي، وأشكو، وأتألم، وأحنّ، وأشتاق،.. وأبكي! فتواسيني حين تقص عليَّ قصص العشاق الذين تسميهم بالمجانين. تبرّد ناري حين تحدثني عن العشاق الذين ماتوا في البحار ولم يروا حبيباتهم، وعن الذين انتحروا بالبارود بسبب زواج عشيقاتهم، وعن الذين قتلوا من أجل قبلة، أو لمسة يد، أو نظرة عين..!! أعرف أن فتيحة تواسيني، ومع ذلك أستسلم لأحاديثها، وقصصها! تقول لي إنها أحبت عمورة، زوجها الذي مات في البحر. وهو

رجل طويل عريض، له شعر طويل، تعرفت إليه في المرفأ، عينه لعبت عليها، فراحت تراقبه، كان لا همّ له سوى أن يصطاد، ويأكل، ويشرب، ويبحث عن امرأة. سألت عنه، فقالوا لها إنه زير نساء، عصفور يطير من عش إلى عش، رجل بلا روح، بلا قلب، المرأة عنده ساعة خلوة، وجبة وليس غير، شكل من أشكال الصيد! لهذا.. تحاشته، على الرغم من أنه راق لها! كانت تدير مقهى لوالدها العجوز؛ مقهى صغيراً، فيه بضعة كراسي، وبضع طاولات، تعيش هي ووالدها من وجود بعض الرواد للمقهى. لقد صارحها بعض البحارة، والصيادين أنهم لا يرتاحون إلا في مقهاها، وجهها يعني لهم الراحة، والاطمئنان، وجهها يطرد القلق! فتبتسم لهم، وترحب بهم، وتقدم إليهم طلباتهم التي لا تكون في العادة إلا مشروبات الشاي، والقهوة، والعصير، والسندويشات السريعة.. كان عمورة يأتي إلى مقهاها من أجل أن يقنصها ويصطادها أيضاً. وقد سأل عنها، فقيل له إنها امرأة مقفلة، بوابة مغلقة، لا درب يوصل إليها سوى درب الزواج، فجاءها منه، طلب ودّها، وسألها لماذا لم تتزوج بعد؟ فقالت له: النصيب. قال: وإن جاء! قالت: لا راد له!

مضت أيام عديدة، وهو يراودها، ويغريها بالكلام الحلو، وقد أحسّ أنه صار من أصحاب الحظوة لديها. حاول أن يلمس يدها، فنظرت إليه نظرة كادت تجمده فوق الكرسي، فنشف ريقه، وضجت عيناه بالدوران. وقالت له: إن حاول لمسها مرة ثانية، ستقطع يده وترميها لكلاب البحر!! من تلك اللحظة لم يتجرأ عمورة على لمسها، أو مراودتها، أو إغوائها بالكلام! وقد أحس أن فتيحة صادقة، تعامله كما تعامل الآخرين، وأن ابتسامتها، ولطافة حديثها، وقبولها بنزق الزبائن، وإقبالها عليهم.. كله من صميم مهنتها! لهذا فاتحها بالزواج، فقالت له إنها لا تقبل به لأنه عاطل عن العمل، فالرجل عندها بعمله لا بطوله، وصحته، وجمال وجهه، (وشواربه العريضة)! أحس عمورة أنها تبتعد عنه أكثر، وتصير أكثر انغلاقاً على نفسها، ومع ذلك

لم يتوانَ عن مواصلة المحاولات معها. كان يقول لها إنه يبحث عن عمل دائم غير أنه لا يجد سوى العمل داخل البواخر وهي بعيدة عن الموانئ، وهو لا يريد أن يتغرّب، فيقضي عمره في البحر يجول حول المدن ولا يعيش فيها. فتقول له فتيحة ليعمل فترة من الزمن، ويجمع ما يأخذه من مال، ثم يفتح مشروعاً ويطوره بالاجتهاد والحرص والخدمة. في البداية لم يقتنع عمورة بكلام فتيحة، لكنه في النهاية وافقها، فمضى للعمل داخل البواخر، كان ينقل الأكياس، والصناديق، وعلب البضائع، وبالات القطن والثياب، من مكان إلى آخر، يرتبها حسب عناوينها، وحسب اقتراب البواخر من الموانئ التي يراد تنزيل الحمولة فيها. وقد أصاب نجاحاً مهماً، جمع كمية من المال، راح يزيدها بين فترة وأخرى، ولم يتوقف عن العمل إلا عندما رضيت فتيحة عنه. كان يضع المال الذي يجمعه عندها، وقد أحست أن هذا المبلغ صار كافياً لتطوير مقهاها وتوسيعه، وأن عمورة هو هدفها، وسندها، وملاذها، بعد أن مات أبوها غرقاً في البحر. كان مصاباً بمرض السكري، وفي إحدى النوبات الشديدة، داخ، ووقع على الأرض، في أثناء غيابها، ومن دون أن يدري أحس بجسده يزحف نحو البحر، فسقط فيه وغرق! فتيحة تقول إنه هو من وضع حدّاً لألمه الشديد، وتدهور صحته، وغيابه المتكرر عن الوعي!

حين عاد عمورة من غربته في البحر، تزوجته فتيحة، وسجلت المقهى باسمه، وجعلته سيداً للمكان. فنشط عمورة في توسيع المقهى، وتجديد أثاثه، وظّف عمالاً فيه.. طباخين وخدماً، وراح يشرف طوال الوقت، على المقهى الذي راح يزداد عدد رواده بعدما ازدادت الخدمات التي يقدمها لهم! وحين جرت الأموال بين يديه أحس عمورة أن فتيحة هي التي بنته، وجعلته مخلوقاً آخر له قيمة، ومكانة، ومهابة داخل ميناء طويل عريض فيه بشر يشبهون مخلوقات البحر تماماً!

في تلك الفترة كانت فتيحة امرأة أشبه بالمهرة، طولاً، وجمالاً، وصحةً، وحيويةً هائلة. تمناها الكثيرون، لكن لم يظفر بها سوى عمورة لأنه استجاب لطلباتها، عمورة الذي عشقته فتيحة وقد صار أهلها، وحياتها، ودنياها التي تحب. أنجبت منه ثلاثة أولاد، أخذهم البحر تباعاً واحداً واحداً، ثم أخذ عمورة أيضاً! دائماً، كانت فتيحة لا تود الحديث عن غرق أولادها وزوجها كي لا يطير عقلها، وكي لا يقضي الحزن عليها! بعد رحيلهم، ضاقت الدنيا عليها، أحست بأن خيط السعادة انقطع. وأن الأبواب تغلق بوجهها واحداً واحداً. فما عادت تعتني بجسدها، ولا بروحها، صارت تنام كثيراً، وتأكل كثيراً، وتشرد كثيراً أيضاً. أحست بأن الحياة تتوارى عنها، تذهب إلى آخرين، تتخطاها دائماً! ولم تعد إلى الحياة إلا عندما فتحت عينيها على رجل يشبه عمورة، جاء إلى المقهى، أكل وشرب، مرات عدة، فسألها عن المكان، والمقهى، وعن حياتها، وسألته هي من أين هو؟! وماذا يعمل؟! فأخبرها أنه من مدينة عكا، فقد زوجته مؤخراً في حريق التهم البيت والتهمها، فأحس أن عكا مكاناً ليس له، فغادرها إلى هنا، إلى صيدا، لكي يذهب بإحدى البواخر المغادرة إلى أمريكا ليكون إلى جوار أخيه في مدينة بوسطن. وأنه حكى لها عن أمريكا، وعن الحياة فيها، وعن الناس، والأموال، ورغد العيش، والحرية، والجمال، والسعادة. فأعجبت به، وأحست مع الأيام أن قلبها راح يتحرك من أجله، وقد ظل الرجل، واسمه نديم، يتردد على مقهاها يومياً. فاستأنست به، واستأنس بها. قال لها لو كان يملك قلباً لما اختار غيرها زوجة له، وشريكاً يقاسمه الحياة المتبقية! وتقول له إن غرق أبيها وأولادها وزوجها.. أطفأ حياتها، فقد باتت تحس أنها تعيش في مقبرة، وليس في مرفأ أو ميناء، كيفما تلفتت أو استدارت، ترى البحر غريمها، وترى المقبرة.. مصيرها! لهذا تودّ أن تهرب إلى خارج هذا المكان، لكن إلى أين تهرب وهي لا ترى شبّاكاً لحياتها سوى هذا المرفأ! فيدعوها نديم أن تذهب معه إلى أمريكا، إلى بوسطن لتعيش معه هناك. سيجعلها أميرة على قلبه، وحياته، فترفض فتيحة، تقول له اذهب أنت

أولاً إلى هناك، وإن أحسست بالشوق إليَّ، اكتب لي.. عندئذٍ سأبيع المقهى، والمكان، والعالم.. من أجلك. المهم أن تكون صادقاً. رسالتك التي ستأتيني هي التي ستكون صك بيعي لهذه الحياة التي أعيش فيها مثل الغولة. وحين مضى نديم كانت هي المخلوق الوحيد في هذا العالم الذي عانقه، وودعه بالدموع، والتلويح الحزين؛ نديم الذي وعدها بأن يكتب إليها حالما تستقر أموره، ويرضى بعيشه! وقد ظلت فتيحة تنتظر الرسالة، لم تيأس على الرغم من كر السنين، كان الأمل يتناقص، وكانت هي تزداد سمنة، وحزناً، ووحدة! وأخيراً جاءت الرسالة، سطرها الأخير، يقول: إنني أنتظركِ على شوق. تعالي لنبني الحياة هنا. فطار عقل فتيحة. إنه نديم. يبر بوعده، لم تفتنه بنات أمريكا، ولم تخدعه مظاهر الجمال، والمال، لم يضع في شوارعها الكبيرة العديدة، لم تصطده خماراتها، لم يمت في لحظة غفلة في ليل مخيف.. نديم يكتب إليها، فتطوي الحياة هنا، وتبحث عن رفيق لها، زوجٍ على الورق، لكي تدخل أمريكا كأسرة، لا كمشردة! ولم يكن أمامها سواي، حدثتني عن أمريكا وجمالها، وقالت إنها تنتظر رفيق مشوارها، فدققت صدري، وقلت: أنا، فأمسكت بي فتيحة وهددتني بالبحر إن خدعتها. فحلفت لها الأيمان بأنني صادق في قولي وقبولي لطلبها، فجهّزت هي كل شيء. باعت المقهى، وفكت ارتباطها بالمكان. ذهبت إلى مقبرة المرفأ، قرأت الفاتحة لأبيها، وأولادها، وزوجها، وودّعتهم، واستدارت بوجهها الذي راح يتلامع كالمرايا من كثرة الدموع، وجعلت الميناء وراء ظهرها، ومضت إلى داخل الباخرة، لا أحد يتبعها.. سواي!

الحاشية الأولى

ما عدت ألتقي بفتيحة إلا في ساعات الليل المتأخرة، فقد قررنا أن نعمل داخل الباخرة، بعدما عرفنا أن الباخرة لن تصل إلى أمريكا إلا بعد شهور عديدة لأنها ستمر بموانئ كثيرة، تقف فيها أياماً وأسابيع.

عملت فتيحة في مطبخ أحد مطاعم الباخرة، كانت تنظف الأسماك، وتقطع اللحم، وتعدّه للطباخين، وكنت أعمل في المستودعات، أرفع الأكياس والصناديق وأرتبها، أكنس، وأرفع القمامة، أخيط الأكياس، وأدق مسامير الصناديق، وحين أنتهي من ذلك أذهب مع الآخرين إلى خزانات الوقود فنملؤها!

قالت لي فتيحة بأنها ستنفق شحمها الكثير داخل الباخرة قبل أن تصل إلى أمريكا، كي لا يراها نديم بمنظرها الضخم هذا فيحس أن الباخرة ولدتها على شكل باخرة صغيرة، وقلت لفتيحة، بأنني غير قادر على أن أبقى من دون عمل طوال الشهور المقبلة، علي أن أعمل أي عمل داخل الباخرة لكي أوفر شيئاً من المال أضيفه إلى ما جمعته سابقاً كي أحس بأنني أفعل شيئاً من أجل دندي!

في الأيام الأولى، وقبل أن نتسلم عملنا داخل الباخرة، كانت فتيحة مهتمة كثيراً بأن تجعلني أقرأ وأكتب. قالت لي أنت الآن أشبه بمخلوقات البحر.. أبكم. وبلاد أمريكا لا يقوى على العيش فيها البكم. عليك أن تتعلم، فوافقتها، فراحت تعطيني الدروس درساً درساً، فصرت تلميذاً لها، وصارت هي معلمة لي!.. وسعدت لأن فتيحة نجحت فعلاً في جعلي مخلوقاً يقرأ ويكتب في سرعة قياسية. وعلى الرغم من أننا كنا نتعب كثيراً في العمل، إلا أن فتيحة ظلت تعطيني الدروس وتراجعها معي يومياً إلى أن أيقنت أنني صرت قادراً على القراءة في الجريدة، والكتب، وكتابة الكلمات، والأرقام، وحل المسائل. حين أيقنت من نجاحي، قالت لي أنت الآن بشر! وسألتها، وهل الأمريكان يتحدثون العربية، فقالت: لا، إنهم يتحدثون الإنكليزية. وتعلم الإنكليزية، هو الخطوة التالية.. سنبحث عن أحد ما داخل الباخرة، يعلمنا الكلمات الأساسية في الإنكليزية! ونبهتني إلى ضرورة سماع الكلمات الإنكليزية التي تدور بين الناس في داخل الباخرة وتقليدها، ومحاكاتها، وعليَّ أن أرافق بعض الذين يتحدثون الإنكليزية في عملي، وأن أحتك بهم، قد لا أفهم من

كلماتهم شيئاً في البداية، لكنني سأفهم منها الكثير لاحقاً! كانت فتيحة معلماً بامتياز، فهي التي جاءت بأحد الطباخين العرب الذين يجيدون الإنكليزية، إلى عنبرنا داخل الباخرة، وقالت له: هذا هو شتيوي زوجي، أنا وهو نريد أن نتعلم الإنكليزية، فشرع هذا الطباخ، واسمه الأسطة بديع، يعلمنا الإنكليزية يومياً، إلى أن صرنا، مع مرور الوقت، نعرف الكثير من مفرداتها التي تدور حول السلام، والأوقات، والطعام، والشراب، والملابس، والأمكنة!

فتيحة جعلتني أرى العالم بعيون جديدة. فتحت لي آفاقاً لم أكن أحلم بها. لعلها أحست بأنني أشبهها في أحلامها، فراحت تساعدني، كي أصل إلى حلمي في الزواج من دندي! وهي التي تدير ظهرها إلى ماضيها، وتاريخها، وعشرتها، وقبور أحبتها، وتقطع كل هذه المسافات الطويلة من أجل الوصول إلى حلمها. الآن أحس بأن فتيحة تسبقني بمرحلة، هي تعود في رحلة الإياب نحو حلمها، وأنا أمشي في رحلة الذهاب. يا إلهي، يبدو أن فتيحة ستظل تسبقني بمراحل، ويبدو أنني سأظل أتعلم منها أشياء كثيرة!

كثيراً ما أضبط فتيحة شاردة.. فأهمس لها مبتسماً: نديم!

وكثيراً ما تضبطني شارداً فتهمس لي مبتسمة: دندي!

آه يا فتيحة.. أي قدر حكيم وضعك في طريقي.. لكي تتجديني!

الحاشية الثانية

وصلنا إلى بوسطن بعد الأشهر الطويلة!

تمنيت ألا تجد فتيحة نديم! كنت، مع مرور الوقت، وقد تعرفت إلى فتيحة جيداً، أحسده، فأي كائن جميل هو الذي سيعيش مع فتيحة. فتيحة التي استعادت رشاقتها، فبدت أكثر حيوية ونشاطاً، أضاء وجهها وأشرق، اتسعت ابتسامتها، بدا قوامها الذي يحاكي أشجار السرو استقامة.. وكأنه تمثال من النحت! أجل، من رأى فتيحة في أثناء صعودها إلى الباخرة.. لا

يعرفها الآن، وقد وصلت الباخرة إلى بوسطن. لقد تجلّى جمالها في أحسن صوره، وصار حضورها في نفسي طاغياً للغاية. اثنان يقفان في وجهي، يمنعاني من الاقتراب نحو فتيحة أكثر، على الرغم من أنها تنام إلى جواري، لا يفصلها عني سوى مسافة قصيرة، اثنان هما: نديم، ودندي! لولاهما لما اخترت مخلوقة أنثى سوى فتيحة، يا إلهي ما أكثر فهمها، وما أدق ملاحظاتها، وما أشد حساسيتها، وما أحلى جمالها! امرأة لها طلة تشبه طلة القمر، أو طلة رفوف الحمام في واجهات البيوت. أتمنى لو أنني أقدر على مصارحتها لأُدخل السعادة إلى قلبها. فتيحة التي لا تراني سوى مرآة لها. تنظر إليَّ فتعرف دواخلها، وجمالها، وحسن تصرفها، وتتأكد من انتباهاتها العميقة لما يحدث حولنا!

قبل أن نصل بليلة واحدة، أوصتني فتيحة أن أحاسب معلمي، وآخذ أجرتي، وأن أجمع ما زاد لدينا من طعام في حقيبة خاصة، وأعلمتني بأنها ستطلب من معلمها أن يعطيها ما تبقى لها من أجرة لديه، وأنها ستأتي ببعض الأطعمة، وقناني العصير، وعلب الطعام.. لأنها لا تدري ماذا سيحدث لنا حين نترك الباخرة، وننزل في بوسطن! وقالت لي إنها لن تتخلى عني، حتى وإن وجدت نديم! سأكون لها أخاً، ووعدتها بأنني لن أتخلى عنها، سأكون بقربها دائماً، أشاورها، وأحكي لها، وأعرف أخبارها، وأعيش وإياها الحياة ريثما نصل معاً إلى أحلامنا. قلت لها: مجنون من يعرفها معرفتي.. ويتركها. ومجنون من يتخلى عن أم، وحبيبة، وأخت مثلها، وقالت لي كلاماً يشبه هذا الكلام!

حين هبطنا من الباخرة لم نجد أحداً بانتظارنا. وجدنا خلقاً من البشر، خلقاً يصعدون، ويهبطون، وينتظرون، منهم من يبكي ملوحاً بالأيدي المودّعة، ومنهم من يبكي وهو يضم إلى صدره الغائب الذي جاء. بيوت عالية جداً، وشوارع واسعة، وسيارات كثيرة، وأصوات، ولهجات، وصخب، وضجيج.. جميعها تعطي المكان حيويةً وروحاً جديدين! مشيت أنا وفتيحة

كالعميان، في مدينة واسعة جداً، كان الضباب يلفّ المدينة، والبرد يفتك بها، والناس يتطايرون فوق خطاهم، وكأنهم يقلدون سرعة السيارات. وجوه محمرة نافثة للبخار؛ وجوه مغلقة تطارد بأجسادها الشوارع الطويلة المزدحمة! وبالقرب من رواق إحدى العمارات العالية توقفنا. وضعت فتيحة حقيبة يدها الصغيرة فوق ركبتيها، وشرعت تنقب فيها، عرفت أنها تبحث عن رسالة نديم. لتعرف العنوان. ترى هل يتدخل القدر الحكيم، فيواري الرسالة عن عينيها، فتصير فتيحة من دون عنوان، فأعيش وإياها في هذه المدينة المخيفة. لاشك في أن هذه المدينة ستبتلعني إن ابتعدت فتيحة عني! أنظر إلى فتيحة، فأراها تخرج الرسالة، وتشرع في قراءتها! أقول لها:

- «العنوان»!

فتقول:

- «العنوان»!

وتنهض، لتبدأ في سؤال بعض الناس عن مكان هذه العنوان. بعضهم يهزون رؤوسهم، وينفرون منها، وبعضهم ينظرون في العنوان، ويقلّبون أكفهم ويمطون شفاههم، وبعضهم لا يستجيب إليها مطلقاً. ومع ذلك لم تيأس فتيحة. كان لابدّ من وجود أحد ما يعرف هذا العنوان. مرّ علينا وقتٌ طويل ونحن نسأل عن العنوان، دخلنا إلى محلات البقالة، ومحلات النسيج، ومحلات الطعام، ووقفنا عند محطات الوقود.. ورحنا نسأل عن العنوان. ورويداً رويداً.. بدأنا نمسك بطرف الخيط، بدأنا نمشي نحو العنوان. كنا في أقصى المدينة، ويبدو أن مكان العنوان في أقصى المدينة الآخر. تجمدت أطرافنا من شدة البرد. فتوقفنا لدى بعض عمال محطات الوقود، الحراس تحديداً، الذين كانوا يشعلون النار داخل تنكات الصفيح الصدئة.. لقد سمحوا لنا بأن ندفئ أيدينا، وبأن نأكل شيئاً من الطعام قرب نيرانهم. لم نحس أننا غريبان رغم عدم اهتمام الآخرين بنا.

وأخيراً، وصلنا إلى العنوان. ورأينا نديم! نديم الذي سيكون من هذه اللحظة الجدار بيني وبين فتيحة، أخذها بين ذراعيه، وقد أذهلته المفاجأة، وراح يقبّلها بكل الشوق والمحبة. أحس أنها الحياة تهبط عليه فجأة، أحس بأنها مطر حياته المجدبة. ولم يفطن إلى وجودي إلا بعد مرور الوقت. عرَّفته فتيحة بي؛ قالت عني إنني مجنون آخر، أجيء إلى أمريكا من أجل جمع مهر دندي! كما لم يفطن إلى أخيه، لكي يعرفنا به، أو يعرفه بنا إلا بعد مرور الوقت. لقد أخذته المفاجأة، حيّره مشهد فتيحة الباذخ، فتيحة التي وعدته بأن تبيع المقهى، والميناء، والعالم.. وتلحق به؛ فتيحة التي تفي بوعدها.. وتأتي قاطعة كل هذه المسافات الطويلة استجابة لنداء القلب الذي عاد إلى النبض.. مرة أخرى.

الحاشية الثالثة

مرت الأيام. قصيرة، سريعة، لها لذة وسحر غير عاديين، وراحت الأموال تتساقط في يدي. هنا سأجمع أكثر من جرة ذهب، هنا سأطوي الوقت بيدي، وكيفما أشاء، هنا تصير قبة الأحلام أكثر انخفاضاً، هنا للغربة معنى. آه يا فتيحة لولاك لمت في المرفأ، ولم أجمع شيئاً من مهر دندي! آه يا دندي أين أنت.. استعدي، إنني قادم إليك، ومعي الذهب!

لم أكن أحفل بقسوة العيش، وحياة الغربة الموحشة.. كانت عيني ثابتة على الهدف؛ على جمع المال، والعودة به إلى الشماصنة، والزواج من دندي التي لاشك أنها تنتظرني. الآن أغسل ثيابي، في السواقي، وعلى أطراف شواطئ المدينة، وأمام حنفيات الماء، وأنشرها على الحجارة، والأسلاك، وأغصان الشجر في الحدائق، وأركض حولها فأبدو أمام الآخرين مهتماً بالرياضة، وما أنا سوى متشاغل بالركض لكي تنشف ثيابي.. تعذبت كثيراً من دون أن أتذمر أو أشكو.. هي ذي الحياة التي اخترتها، ولا سبيل لي

غيرها لكي أجمع مهر دندي. كلما خارت قواي، وضعفت روحي أتذكر دندي، وأمي، وأبي، وسمعان الذي فلح عليَّ؛ سمعان الذي قرنني بالبغلة فماشيتها في الفلاحة؛ وسمعان الذي آذاني يومياً، وضربني أكثر من مرة، سأعود إليهم، وحينئذٍ لن يسألني أحد عن الأعمال التي قمت بها حين يرون الذهب!

الآن، بتُّ أعرف مئات الأعمال، وقد تنقلت بينها جميعاً، كنت أحسّن أجري بين حين وآخر، وأقلل ساعات العمل. عملت في محطات الوقود حتى استحال لوني إلى لون مادة المازوت. كنت في كل يوم وحين أعود من العمل أغسل جسدي وثيابي طوال ساعات عديدة لكي أعود مخلوقاً له علاقة بالناس، والحياة؛ ساعات طويلة أقضيها في صيانة نفسي وتهيئتها لمعاودة العقاب اليومي في عمل المحروقات. ما كان يضايقني أكثر هو رائحتي التي تلازمني.. أجتهد كثيراً في غسل جسدي، ويديَّ، وقدميَّ، وشعر رأسي، وملابسي.. لكي تزول الرائحة، لكي تذهب.. لكنها لا تذهب. وكأن ما أفعله هو العبث عينه، أو لكأن تلك الرائحة استوطنت في أنفي فما عدت قادراً على استنشاق رائحة سواها! وعملت في مسالخ اللحم، رأيت الآلات وهي تذبح الحيوانات وتنحيها جانباً، فأقوم بسلخ الجلود، وتقطيع اللحم، فلا أعود في آخر اليوم إلا وقد صرت أشبه بذبيحة.. رائحتي بشعة، وهيئتي بشعة. كنت على الدوام أبحث عن مكان نومي قرب مكان عملي، فقد نمت أوقاتاً طويلة في محطات المحروقات، وفي مستودعات الزيوت. نمت فوق قطع الكرتون، وفوق أكياس الكتان. كما نمت في مسالخ اللحوم وقرب الذبائح، وأكوام العظام، وبيادر الرؤوس الكثيرة؛ مرات عديدة كنتُ أستيقظ في الليل فأرى عيون الرؤوس المقطوعة تنظر إليَّ بغضب.. وكأنني أنا قاطعها، فأهرب منها إلى النوم! وعملت أيضاً في حظائر الخنازير في المزارع. فصارت رائحتي تشبه روائحها، سرحت بها، وقدمت إليها الأعلاف في مذاودها، والماء في مشاربها، وأشرفت على ولادتها، ورافقتها في رحلات بيعها! حملتها إلى السيارات

الشاحنة، وأوصلتها إلى المسالخ! وعملت في المطاعم، غسلت الصحون، وكنست الزبالة، وحضّرت الأطعمة، وذهبت إلى الأفران وجلبت الخبز للمطاعم، كما عملت في البلدية، فنظفت الشوارع، والحمامات العامة، وساقني القدر إلى أن أعمل في معمل للأسطوانات الغازية. كنت في البداية أحملها، وأرتّبها في الشاحنات الناقلة لها، ثم رحت أعمل على ملئها بالغاز، وتجريبها والتأكد من صلاحيتها.. دائماً كنت أحس بأنني على بعد خطوة واحدة من الخطر، قد تنفجر بي إحدى هذه الأسطوانات لخلل ما.. فأذهب أنا وغربتي ومالي وأحلامي.. شظايا في الهواء.

وعملت أيضاً في مشفى للأمراض المستعصية، عملت حامل أموات، كلما مات أحد المرضى أحتضنه، وأرفعه إلى الرفوف في البراد. عشت مع الأموات زمناً طويلاً. لم أحفل بالروائح، ولا بهيئاتهم العجيبة. دائماً، كنت أردد: من أجل دندي تهون المصاعب. كما عملت في محل للخضار، أستيقظ فجراً، فأرتّب الخضار في محلات رجل أمريكي اسمه ريكسون، أرشها بالماء، وأنسقها. وأستعد لاستقبال الزبائن. في هذه المحلات بدأت مخالطتي الحقيقية لأهل المدينة، تعرفت إلى نساء كثيرات، كن ينظرن إليَّ بإعجاب حقيقي، ويحاولن أن يلمسن أطراف أصابعي المبلولة، يا للحمقاوات.. لا يعرفن أن هذه الأصابع انغمست طويلاً في أحشاء السمك، وعملت في محطات الوقود والزيوت، والمسالخ، وحظائر الخنازير، وأسطوانات الغاز.. لا يعرفن أنها نظّفت المراحيض والحمامات، ورفعت زبالة الشوارع طوال وقت طويل!! يا إلهي، إنهن النساء.. ينظرن إلى الرجل دائماً وهو في صورته الأخيرة! مع هؤلاء النساء تعلمت الإنكليزية، صرت أحكي كما يحكين، ومع هؤلاء النساء عرفت البيوت، فدخلت إليها. عرفت معنى الدفء، والإعجاب، وسحر المرأة وإغراءاتها إذا ما أرادت رجلاً ما! سمعتهن بأذنيَّ يمتدحن جمالي، وصفاء عيني، وطراوة أصابعي، وطيبة قلبي، وسرعة استجابتي،

وروعة شعري الأسود الطويل، وشاربيَّ. كن مجنونات بشاربيَّ!! يا للمرأة هي التي تحلي الغربة، وهي التي تبعد أحزانها، وهي التي تعطي الحياة معنى. لولا المرأة لكانت الدنيا مقبرة واسعة! كثيرات هن النساء اللواتي مررن بي، ومررت بهن، لكن أيّاً منهن لم تصرفني عن دندي. ظلت دندي هي الأجمل والأحلى.. هي المرأة التي لم أر لها شبيهاً في هذه المدينة الواسعة. كانت نساء المدينة يدرن حولها.. كما لو أنها هالةٌ من النور أو الضوء العجيب!

تذييل أول

لم أنقطع عن فتيحة!

كنت آتي إليها كلما امتلأت يدي بالمال. أضع الأموال عندها، وأعود إلى عملي. فتيحة التي لا تتركني إلا بعد أن تعرف كل أخباري، وبعد أن تدخلني إلى الحمام، فأنظف جسدي، وأرتدي ثياباً جديدة ونظيفة، وبعد أن تطعمني أطيب الطعام، يا لطعام فتيحة ما أطيبه! ونديم، زوجها يحوّم حولنا مثل راعي الكنيسة! يهدهد طفله بين ذراعيه، ويناغيه، طفله الذي أسماه سماحة على اسم أبيه، والذي يعدّه أغلى هدية قدمتها له فتيحة!

وتسألني فتيحة، متى سأعود، فقد صار لديَّ الكثير الكثير من المال. وما أخبار دندي! هل أشتاق إليها، أم أن بنات بوسطن أخذن عقلي! فأجيبها، بأنني سأعود حالما سيصير لدي ذهب يملأ جرة! فتقول لي آمرة أن أكتب رسالة لدندي، أسألها عن أخبارها، وهل مازالت تنتظرني. أو أن أكتب رسالة إلى أهلي، أخبرهم فيها إنني حيّ. فأوافقها. أكتب رسالة إلى دندي، وأخرى إلى أهلي. وأرسلهما إلى الدير، إلى الراهب عطايا.. وأنتظر عودة الجواب. الآن أعرف مرَّ الانتظار وأوجاعه. إذن، ماذا حدث لدندي في غيابي؟!

أقلقتني الرسالتان. أحدثتا هزّة ما في روحي! كنت أتخيل مشاعر أهلي، ومشاعر دندي، وهم يقرؤون الرسالتين فيعرفون أنني حيّ، وبخير،

ولدي مال كثير، وأن عودتي قريبة! لاشك أنهم سيطيرون من الفرح بعد مرور كل تلك السنوات الثقيلة من الغياب الموجع! سيطير عقل دندي، لاشك، ستعلق روحها بالرسالة! لعلهم سيكتبون إليَّ، الراهب عطايا سيطلب منهم أن يكتبوا رسالة لي. وإن لم يكتبوا هم، سيكتب الراهب عطايا رسالة يخبرني فيها عن أحوال أهلي، وأحوال دندي! لكن متى ستأتي الرسالة.. فأحس أن للحياة ضفتين.

تذييل ثانٍ

جاءتني الرسالة!

فحلت الكارثة في روحي!

أبي مات، وأمي ماتت. أصبحا قبرين. البيت مغلق. ودندي تزوجت وطلقت، ولها ابنة عمرها سنوات اسمها زانة. وسمعان تزوج!

الإنكليز يستعدون لتسليم البلاد إلى اليهود! قرى دمرت، وبيوت نسفت، وكبانيات اليهود تنتشر فوق التلال! ما الذي يحدث؟! خراب.. وكارثة! أخذت الرسالة إلى فتيحة، فقرأتها.. وبكت! شردتْ كثيراً ثم قالت:

- «هذه ليست نهاية العالم! ما زال اثنان ينتظرانك.. بلادك، ودندي! جهِّزْ.. نفسك للعودة.. قبل فوات الأوان»!

فأستجيب لها!

تذييل ثالث

شاقة، ومؤلمة، ومفزعة.. طريق العودة! فأنا وحيد لا أحد قربي الآن، لا فتيحة، ولا رفيق! أفكر بوالديّ وقد ماتا وحيدين، كما أفكر بدندي التي تزوجت وطُلقت.. فتدور بي الدنيا! حاولت أن أهرب من وحدتي بالعمل على ظهر الباخرة، أو في مستودعاتها، أو في أحد مطاعمها إلا أنني لم أستطع،

كنت كثير الشرود، كثير النسيان، بطيئاً في العمل.. فأطرد، وأعود إلى وحدتي مرة ثانية.. لأشوى على نار القلق!

وأخيراً وصلت الباخرة إلى صيدا، فأخذت حقائبي، واستأجرت عربة، ومضيت بها نحو الشماصنة، مروراً ببنت جبيل، والخالصة، والمرج.. أوقفتني الحواجز الإنكليزية عشرات المرات، فتشوني وفتشوا الحقائب، وتركوني بعد إعاقات متعددة. وأمام الدير أوقفت العربة، وطلبت من السائق أن يهبط أيضاً ويحمل الحقائب معي إلى داخل الدير!

كانت البوابة مفتوحة. يا إلهي كم جئت إليها لائذاً أشكو. أين أنت يا سيدي عطايا.. لقد عدت كما طلبت مني! أمشي في الرواق الطويل، فيخرج إليَّ بعض الرهبان، والراهبات.. أسألهم عن سيدي عطايا.. فيحنون رؤوسهم بخشوع. أصرخ بهم:

- «لا تقولوا لي.. مات»!

فيهزّون رؤوسهم.. بألم!

* * *

زواج دندي وشتيوي..!!

لم أستطع البقاء طويلاً في الدير،

كدتُ أختنق. لم أتصور الدير من دون الراهب عطايا. كما كدت أقع في الغيبوبة حين علمت أن لا قبر له هنا في الدير. فقد جاء أهله وأخذوه، ودفنوه في مدفن العائلة. لقد استعادوه أخيراً من غربته الطويلة. لذلك.. طلبت من سائق العربة أن يقرّب مني إحدى الحقائب، لكي أعطي الرهبان هدية الراهب عطايا، عليهم أن يتصرفوا بها، هدية لا معنى لها الآن وقد غاب صاحبها. فتحت الحقيبة، وأخرجت قطعة من القماش الأسود الجميل، ووضعتها بين يدي أقرب الرهبان إليَّ. قلت له، هذه هدية الراهب عطايا. جئت بها من أمريكا، أنتم أدرى بما تفعلونه بها. وخرجت يتبعني سائق العربة. وضع الحقائب في العربة، وانطلقنا نحو الشماصنة. وحين رفعت نظري إلى السماء راجياً الله ألا أفاجأ بأحزان جديدة، رأيت أسراباً من طيور القطا.. تحلق في السماء على شكل عناقيد الخرز.. ماضية نحو الجنوب، إلى الأماكن الأكثر دفئاً.. فهمهمت لنفسي، لكأننا نشبه هذه الطيور في عودتنا.. فأنا أعود إلى والديَّ وقد صارا قبرين، والراهب عطايا يعود إلى أهله وقد صار قبراً!! ترى ما شكل عودة دندي إلى أبيها سمعان بعد طلاقها؟! أي منهما ترمد؟! أيٌّ منهما يموت؟!

أمام مدخل القرية، أوقفتني دورية إنكليزية، سألوني عن اسمي، ومكان سكني، ومن أين أتيت.. فأجبتهم! فتشوا الحقائب، وفتشوني.. ثم

سمحوا لي بالدخول! لم أفهم كيف يسمح أهالي القرية لمثل هؤلاء الجنود بمراقبة الداخلين إليها أو الخارجين منها! هؤلاء الغرباء.. من وكلهم بأمر الناس! أسئلة دارت في رأسي، فأمرت السائق أن يتوقف، قفزت من فوق العربة، وعدت إلى أفراد الدورية، وسألتهم بأي حق قاموا بسؤالي، وبأي حق فتشوا حقائبي! فدهشوا! لعلهم لم يسمعوا مثل هذه اللهجة من قبل، وراحوا يتغامزون عليَّ! واحد منهم، أظنه قائدهم، قال لي:

- «قمنا بهذا العمل من أجل حمايتكم! نحن هنا من أجل حمايتكم»!

قلت:

- «حمايتنا.. ممن»؟!

قال:

- «العصابات، قطاع الطرق»!

قلت:

- «تقصد الثوار..» !

فاحمرّ وجهه، وراح ينظر إليَّ بشزر! ولم أنتظر إجابته، فمضيت نحو العربة، قفزت إليها، ومضيت إلى أول القرية! حيث يقع بيت الشيخ المصباحي، ذهبتُ إليه مباشرة، وسألت عنه أحد أولاده، وقد كان خارج الدار، بالطبع لم يعرفني لصغر سنه، فاستدار إلى داخل البيت، وأخبر والده، فخرج الشيخ المصباحي، وراح ينظر إليَّ بإمعان. أحسست أنه لم يعرفني للوهلة الأولى، بينما أنا عرفته مباشرة على الرغم من تقدمه في السن، لم أمهله ليسألني من أنا، فاندفعت إلى صدره وارتميت فيه، قلت له أنا شتيوي يا شيخ! فضمّني إلى صدره بذراعيه وراح يقبّلني، ثمّ أخذني إلى داخل البيت، وقد أحسست أنه فرح فرحاً عظيماً بعودتي. سألني عن أمريكا، والغربة.. فقصصتُ عليه بعض أخبارها، وقصّ عليَّ أخبار ما يحدث من قتل وتدمير، وغطرسة الإنكليز واليهود.. وقال إنه خائف من أن

يقوم الإنكليز واليهود بتفريغ القرى، والمدن من أهلها وطردهم إلى خارج البلاد! فأخافتني الأخبار، وأرعبتني، وقلت له:

- «إن هذه الأخبار لا تصل إلى أمريكا»!

فقال ممازحاً:

- «لعلها.. تغرق في مياه المحيطات قبل أن تصل إلى هناك»!

ونهضتُ، لأن الشيخ المصباحي لم يؤخرني، فهو يعرف لهفتي لمعرفة أخبار أهلي، والبيت، ودندي وأهلها! ولم يشأ أن يحدثني كيف مات والداي! فقط اكتفى بقوله:

- «دع الحزن إلى وقت آخر يا شتيوي»!

ثم مشى معي إلى خارج البيت، وودّعني بعد أن ناولته هديةً له.. جئت بها من أمريكا، ساعة كبيرة للبيت، ومثلُها للمسجد، وثالثة صغيرة له، وقطعة قماش كبيرة! ومضيت.. لم تلفت انتباهي الأبنية الجديدة، ولا غراس أشجار الزيتون التي أصبحت كبيرة، ولا الأسيجة التي تحيط بالبيوت، ولا الشوارع العريضة.. لأنني كنت مهموماً باللحظة التي سأقابل بها والديَّ!

وبدءاً من البيت الأول، نبحتني الكلاب، وعرفني الناس، وأحاط بي الصغار. وذاع خبر وصولي في القرية.. ولم أدر كيف تنبهت لصوت امرأة شقّ رأسي!! فنظرت إلى جهة الصوت، فرأيت صاحبته.. إنها دندي.. تركض نحوي حافية. يا إلهي، هي دندي.. أعرفها من بين نساء الأرض جميعاً. المجنونة لم تصدق أنني جئت، ولم تنتظر وصولي إليها. فجاءت إليَّ!! أركض نحوها، وما إن أصل إليها حتى آخذها إلى صدري، وأطويها عليه فتهتف:

- «أخيراً.. جئت يا شتيوي»!

فأسمعها صوتي:

- «جئت يا دندي.. جئت»!

بدا منظرنا أمام الناس موجعاً، ومحزناً، وغريباً أيضاً. جثونا على الأرض، وقعنا من الشوق.. مثل طيرين أنهكهما الطيران الطويل. أوجعنا الحزن.. فهوينا! نظرت إلى دندي، ونظرت إليَّ، هززتها بين يديَّ، وقلت:

- «ها أنذا أعود من أجلك يا دندي.. أعود.. ومعي الذهب الكثير»!

فتضحك، وهي تنظر إليَّ، مدهوشة، وتقول:

- «لم تتغير!! كنت أحسبك مت! الأنهار يا مجنون، إن جفت تبقي وراءها أثراً يدل عليها.. وأنت لا خبر! ما أقسى قلبك يا شتيوي»!

ولا أرد عليها بل أمدّ يدي نحوها، أنهضها وأمشي وإياها نحو العربة. نركب فيها، فتمشي بنا نحو بيتنا، مخلفين الناس وراءنا في دهشة حقيقية.. فلا يلحق بنا سوى الأطفال الصغار ولا يلفنا سوى صخبهم الذي ملأ القرية!

الحاشية الأولى

وجدت البيت مغلقاً، وقد سدّت بوابته بجذوع الأشجار، وأجمات من شوك البلان. بدا وكأنه بيت مهجور من آلاف السنين! فبكيت! هكذا يحدث في البيوت عندما يغادرها أهلُها، تماماً مثلما يحدث في الأعشاش حينما تهجرها طيورها!

أنزل السائق الحقائب، وعاد من حيث أتى!

ساعدني الناس، في إبعاد أجمات الشوك، وجذوع الأشجار، وبعض الحجارة، وفتحنا بوابة البيت، ودخلنا إليه، فتحت الشبابيك، والأبواب! فدخل الضوء.. رأيت أغراض البيت البسيطة في أمكنتها المعتادة، لكأن أمي انتهت لتوها من ترتيبها، هنا الصحون، والقدور، هنا مصبات القهوة، وهناك مغمقان الخبز مغطى بقطعة القماش التي أعرفها منذ طفولتي. وإلى الجوار فرشات الصوف، واللحف، والمخدات، هنا منقلة (أبو شتيوي) لعبته المفضلة، وهذه هي علبة الحصى الصغيرة! وعلى الجدار.. ربابته معلقة من دون قوس، أين

قوسها.. لعله سقط خلف فرشات الصوف، أو توارى هنا أو هناك! ما فائدة بقائه، وقد ذهبت اليد التي تمسك به!! وهذه مسبحته معلقة فوق عقاله قرب الربابة أيضاً، هي ذي علامة سيد البيت! وهنا إلى الجوار منديل أم شتيوي معلّق.. علامة للغياب! وهنا قرب البساط علبة دخان الوالد المعدنية، والقدّاحة أم زناد، والمبسم المصنوع من غصن زيتون رفيع.. يا إلهي، إنها تدل على أن الوالد نسيها، وأنه سيعود بعد لحظةٍ ليأخذها!

أجهش بالبكاء! فلمن يخلفني والداي؟!

وما الذي أفعله بعدهما.. وكيف سأقوى على مقابلة أغراضهما، وأماكن جلوسهما، وهما.. طيّ الغياب، وهل بمقدوري أن أَفلُت من أنفاسهما المحوّمة.. داخل البيت؟!

الحاشية الثانية

أخبرتني دندي أن والدها مريض!

وأنه بين الموت والحياة. وعليَّ أن أزوره، أرمي له مال الدنيا الذي جمعته، وأطلبها منه،.. فوافقتها!

ذهبت إلى سمعان، وسلمت عليه. أخذت يده وقبلتها! فتساقطت دموعه! وابتسم. رعشة هائلة اجتاحت وجهه. أخذني إليه وقبّلني! تمتم بخفوت:

- «عدت»!

فهززت له رأسي، وأشارت دندي إلى ثلاثة أكياس من الكتان مرتبة فوق بعضها بعضاً، وقالت له:

- «هذا هو الذهب يا أبي»!

فابتسم سمعان، وأشاح بنظره عن الذهب، وقال لي:

- «ظلمتك يا شتيوي، سامحني»!

ونظر إلى دندي، وقال لها:

- «وأنت يا دندي ظلمتك أيضاً.. سامحيني»!

فسامحناه! ونهضت، فسألني:

- «إلى أين»!

قلت:

- «سأذهب إلى المقبرة.. لأقرأ الفاتحة لوالديَّ»!

قال:

- «اقرأ الفاتحة، وتعال، أريدك في أمر»!

قلت:

- «خير يا عم سمعان..» !

قال:

- «سأعطيك دندي أمام الجميع..» !

فابتسمتُ، وقالت دندي بأسى:

- «الذهب»!

قال:

- «لا يا دندي.. الذهب لكما معاً.. أنا لا أريد سوى القبر.. والدعاء»!

وتساقطت دموعه مرة أخرى، فارتمينا عليه، ورحنا نقبّل يديه، ووجهه!

الحاشية الثالثة

انتهت الأربعون يوماً التي أعقبت وفاة سمعان. وتزوجت دندي! جاءتني بها امرأة أبيها عذاب ليلاً، مع ثلاث نساء أخريات! مسكينة دندي.. لا عرس، ولا غناء، ولا خيل، ولا أجراس! وأمي وأبي غائبان، وأبوها غائب.. والراهب عطايا.. غائب أيضاً! الشيخ المصباحي هو الذي بارك الزواج، وهو من دعا لنا.. بالحياة السعيدة!

تذييل أول

عرفت من نساء القرية. أن دندي لم تغيّر منديلها وثوبها الأسودين طوال سنوات غيابي، وأنها لم تدخل داراً للفرح، ولم تمش درباً يقودها إلى خارج القرية، ولم تقبل بأحد من الرجال الذين تقدموا لخطبتها! وأنها أرسلت العشرات من الناس ليسألوا عني في بنت جبيل وصيدا، وصور! وأنها بكتني أكثر مما بكت أمها حين ماتت!

تذييل ثانٍ

ما أجمل زانة، ابنه دندي!

إنها في عمر الزواج تقريباً.

تقول دندي أن ذيب الأيوب أبوها طلب أن يضمها إليه أكثر من مرة إلا أنها رفضت. خافت أن يرميها رمية عمياء، فيزوجها من أي كان، من أجل أن يتزوج هو مرة أخرى! وقد أسكتته دندي حين أخبرته أن مهر زانة سيعود إليه، إن سكت على بقائها عندها! وأن زانة لا تريد أن تعيش عنده مهما بذل من محاولات، وأنها تفضل أن تقتل نفسها ألف مرة.. على أن تعيش معه يوماً واحداً!

فصمت ذيب الأيوب، وما عاد يطالب بزانة أبداً!

تذييل ثالث

ليلة من البكاء. والمواجع قضيتها مع دندي!

إذْ لم أصدق أن أحداً من البشر يقوى على أن يفعل ما فعله ذيب الأيوب بجسد دندي!

فقد رأيت آثار قضبان الحديد التي حرقت ظهرها، وصدرها، وبطنها، وفخذيها، وبعض الأمكنة التي أخجل من تسميتها!

أي مخلوق هو هذا..؟!

أي وحش؟!

إلهي، أسألك، أيّ عذاب تحملته دندي؟! وكيف هيأت الشفاء لهذه الحروق العجيبة؟!

تذييل رابع

ذهبت ودندي وزانة إلى مزار (أبو الريش) وذبحنا كبشاً كبيراً، ونذرناه للفقراء. واختلى كل منا بنفسه، وراح يدعو.. ثم عدنا!

في الطريق سألت دندي زانة:

- «ماذا طلبت في الدعاء»!

فقالت:

- «أخاً.. لي»!

وسألتُ دندي ماذا طلبت في الدعاء، فقالت:

- «الولد..» !

وسألتني:

- «وأنت..» ؟!

قلت وأنا أنظر إلى وجهها الذي يربكني كثيراً:

- «الولد.. طبعاً»!

* * *

رحيل الشيخ المصباحي..!!

مات الشيخ المصباحي!

وجدوه ميتاً داخل وادي الحمام!

لا أحد يدري، من أهل القرية، لماذا كان الشيخ المصباحي في وادي الحمام. لكن جراحه، ودمه.. تقول بأن الإنكليز أو اليهود هم الذين قتلوه! الإنكليز هم الذين أخبروا (أبو زهدي) قيّم المسجد أن الشيخ المصباحي.. مات، وأنه موجود في وادي الحمام، قرب مغارة السعديات! فكبّر القيم أبو زهدي مرات عدة، فجاء الناس إلى المسجد، وعلت أصوات أجراس الدير فأحس الناس بالخطر، هي ذي علامات التحذير المتعارف عليها بين الناس. كان الوقت فجراً تقريباً، فهبط الكثيرون من أهالي القرية، الكبار، والصغار إلى الوادي، واتجهوا نحو مغارة السعديات، وهناك وجدوا الشيخ المصباحي، وبجانبه بندقية أم خمس طلقات. كانت فوارغ الطلقات العديدة متساقطة قربه، ويبدو أن الشيخ هو من أطلقها، أو أن الذين كانوا معه هم الذين أطلقوها! وجدوا جسده دافئاً، وكأنه مات للتو. واحد من أهل القرية، أزاح ثوبه عن كتفه الأيمن فرأى بقايا احمرار في كتفه أشبه بالكدمات فتأكد من أن الشيخ المصباحي هو من أطلق الطلقات. لاشك أنه كان في مواجهة مع الإنكليز! لكن كيف وصل إلى وادي الحمام، ولماذا كان قرب مغارة السعديات تحديداً؟!

كان المسجد مطلاً على الوادي تماماً، وكانت مغارة السعديات في مواجهته أيضاً! وقد لاحظ الأهالي كثرة آثار الأقدام المارة أمام المغارة، وكثرة آثار الأقدام

الداخلة إليها أيضاً، ولم ينتظروا طويلاً فحملوا الشيخ المصباحي، وعادوا به إلى الشماصنة. لم يتدخل الإنكليز في شؤونهم قط. كان أفراد الدورية الإنكليزية المتواجدة على مقربة من مدخل القرية، ينظرون بعيونهم إلى ما يحدث في القرية، وقد شاهدوا الشيخ المصباحي محمولاً على الأكتاف، وسمعوا التكبيرات تتعالى، ورأوا عربة الدير تنحدر نحو القرية، وفيها العديد من الرهبان الجدد، كما جاءت عربات أخرى من قرى أخرى تحمل العديد من الناس، فصار الحديث يدور حول المقاومة، والشهادة، والنهاية الكريمة التي أنهى بها الشيخ المصباحي حياته! لقد أجمع الجميع على أنه كان مع الثوار يقاتل الإنكليز، لعله كان يمدّ الثوار بالسلاح، وقد بوغت هو وإياهم بكمين إنكليزي قرب المغارة!

أبو زهدي، قيم المسجد، كان أكثر الناس بكاءً على رحيل الشيخ المصباحي، لكأنه كان يعرف بالتفصيل.. ماذا جرى؟! ومتى خرج الشيخ المصباحي، ومن كان معه؟! هل حاول أبو زهدي أن يمنعه من الخروج، أو أن يحذره.. فما استجاب إليه، لذلك فهو يبكي بحرقة وألم! كثيرون من أهل القرية حاولوا أن يسألوا (أبو زهدي) إلا أنه ما أجاب إلا بقوله، إن الشيخ المصباحي لم يخرج من المسجد بعد صلاة العشاء في ليلة الأمس. فقد ظلَّ في المسجد يقرأ القرآن، وقد نبهه مرات عديدة إلى أن الوقت تأخر عليه كثيراً، وهو لايزال عاكفاً على القراءة والصلاة، غير أنه ظلّ يقرأ! ويقول للناس إنه ذهب إلى بيته بعد أن أذن له الشيخ المصباحي، وقد طلب منه ورجاه أن يظل إلى جواره.. فيعود معه حين ينتهي من قراءة القرآن، إلا أن الشيخ المصباحي، أذن له، وطلب منه أن يذهب إلى بيته لأنه سيتأخر كثيراً في العودة إلى البيت. ويقول القيّم أبو زهدي للناس إنه تساءل إن كانت ليلة الأمس ليلة مباركة، لها ارتباط بالتاريخ، أو الدين، أو الصحابة، أو الرسول الكريم؟! غير أنه لم يجد إجابة شافية، كما أنه لم يجد إجابة لسؤاله: لماذا ظلّ الشيخ المصباحي يحيي ليلته بقراءة القرآن والصلاة، والدعاء؟!

الآن، وقد رحل الشيخ المصباحي، يبكي أبو زهدي وينتحب، فقد عرف أن شيخه المصباحي كان مع الثوار، وأنه أنهى حياته بالمقاومة، ومواجهة الإنكليز. يبكي لأنه لم يرافق الشيخ المصباحي في رحلته الأخيرة، رحلة الظفر بالأبدية. يبكي لأن الشيخ المصباحي آثر أن يظل قرب أم زهدي وأولاده الصغار، ألا يفجعهم باليتم المبكر!

كان جثمان الشيخ المصباحي، موضوعاً في صحن المسجد، على الحامل الخشبي، وقد غطي بقطعة قماش بيضاء، وأخرى خضراء، وقد أحاط به الناس بوجوههم الحزينة، وعيونهم الدامعة، وقد لّفتهم الأحاديث، بدوا وكأنهم ينتظرون اكتمال عدد الناس الذين سيشاركون في جنازة الشيخ المصباحي، فقد عمّ الخبر القرى، فتوافد الناس بالمئات. في ذلك النهار لم يذهب أحد من الفلاحين إلى الحقول، لا النساء، ولا الرجال، حتى الرعيان جمعوا قطعان الماشية، وأوكلوا أمرها لواحد منهم، وظلوا في القرية لحضور جنازة الشيخ المصباحي!

وازداد الحزن، والبكاء في الشماصنة حين وصلت عربات عديدة تحمل خلقاً كثيرين، وبداخل كل عربة جثمان لثائر! لقد جاء أهالي الثوار الذين استشهدوا بجثامينهم لكي يدفنوا إلى جوار الشيخ المصباحي، ليكونوا معاً، بعدما كانوا معاً في مواجهة الإنكليز ليلة البارحة! فاصطفت الجثامين إلى جوار جثمان الشيخ المصباحي، وعددها أربعة.. غطيت جميعها بالقماش الأبيض، والأخضر.. كان مشهدها مفجعاً، هدّ النفوس ودمّرها، فقد بدت الشماصنة في واحد من أيام بكائها الحزين الموجع!

الحاشية الأولى

الآن،

يتذكر الناس الشيخ المصباحي، الذي كان خطيباً للقرية، يعلم الأولاد الصغار القراءة، والكتابة، والحساب، وقراءة القرآن. كان يافعاً، يدرُس علوم

الدين في المدرسة الشرعية في مدينة صفد، وما إن أنهى دراسته حتى راح يعلم صغار الشماصنة بناتاً وذكوراً مبادئ القراءة والكتابة والحساب، وبعض سور القرآن الكريم القصيرة. لكنه لم يستمر طويلاً، لأن والده الشيخ المصباحي الكبير أرسله إلى القاهرة، ليدرس أصول الشريعة وفقه الدين في الأزهر الشريف!

الشيخ المصباحي هو أول من نبه أهالي القرية إلى ضرورة فتح مدرسة صغيرة للأولاد؛ مدرسة تقدم إليهم المعلومات الأولية. في تلك الأيام كانوا يسمونه الخطيب، كان واحداً من نفر قليل من أبناء القرية الذين تعلموا القراءة والكتابة والحساب.

وحين عاد الشيخ المصباحي إلى القرية كانت عودته حدثاً، فقد عاد بمنظر لا أبهى منه ولا أجمل، عاد بالجبة المصرية العريضة الأردان، والعمامة البيضاء. بدا منظره مدهشاً. ومع مجيئه راح والده، وأهالي القرية يفكرون بتوسيع الجامع، ورفع مئذنته إلى الأعلى، وإحاطته بسور من الحجارة والأشجار، وهذا ما حدث فعلاً، فمع مجيء الشيخ المصباحي، صار للشماصنة جامع كبير، واسع، ومدرسة كبيرة واسعة أيضاً، اعترفت بها معارف مدينة صفد، فصارت توظّف فيها المعلمين، وكان الشيخ المصباحي مديراً لها، وأستاذاً لمادة التربية الإسلامية!

الآن، يتحدث الأهالي عن فقدهم.. للشيخ المصباحي الوجيه الذي كان يشارك في فض المنازعات، والمشكلات، صاحب الرأي المسموع في القرية بعد موت والده الشيخ المصباحي الكبير، ويتذكرون الأخبار التي شاعت، أن العثمانيين يريدون من الشيخ المصباحي أن يرشح نفسه عضواً في (مجلس المبعوثان) إلا أن المتنفذين في مدينة القدس، ومدينة صفد يومذاك، عارضوا، فلم يؤيدوا ترشيحه، علماً بأن عرائض كثيرة رفعها وجهاء المنطقة كلها وأرسلوها إليهم يطالبونهم فيها بترشيح الشيخ المصباحي ليكون عضواً في

(مجلس المبعوثان) العثماني! غير أن اللقمة الساخنة، كما يقول الفلاحون، يخطفها أهالي صفد، والقدس، فلا تصل إلى قراهم! لهذا.. ظلَّ الشيخ المصباحي في الشماصنة، مديراً وأستاذاً في المدرسة، وإماماً في المسجد، ووجيهاً معروفاً يأتيه أصحاب الحاجات طالبين تدخله لحل مشكلاتهم! ويتذكرون أيضاً أنه.. رفض أن يعمل قاضياً للواء طرابلس الشام، فقد فضل أن يبقى في منطقته يخدم أهالي قريته، والقرى المحيطة بها، على أن يلتحق بهذه الوظيفة، وقد كتب كتاب اعتذار لوالي طرابلس الشام يشرح فيه أعذاره، فقبل الوالي كتابه، وأمل أن تتاح الفرصة له كي يستفيد هو وقضاء لواء طرابلس الشام من علم الشيخ المصباحي! وقالوا إن الشيخ المصباحي عرف والي طرابلس، وهو من آل السعدي، من أبناء صفد، أيام دراسته في الأزهر الشريف، وأن السعدي كان متقدماً عليه في الصفوف، إلا أن نبوغ الشيخ المصباحي لفت انتباهه، فتباهى به سعد الدين السعدي وقال لمشايخه ومعارفه في مصر إن الشيخ المصباحي هو أحد أبناء منطقته، وهو من عائلة كريمة، فهو شيخ، وأبوه شيخ. وقد خالطه الشيخ المصباحي مدة من الزمن قبل تخرجه من الأزهر، والأهالي يعرفون أن سعد الدين السعدي لم يمضِ وقتاً طويلاً في ولاية طرابلس الشام، لأنه نُقل ليكون والياً في منطقة غاب حماة وتوابعها، فانقطعت أخباره، وأن الشيخ المصباحي ما عاد يعرف عنها شيئاً!

الآن، يتذكر الناس حياة الشيخ المصباحي، وقد رحل.. فما من شيء يُعرّش في المكان سوى الذكر الطيب، والبكاء الموجع الحزين!

الحاشية الثانية

حين رحل العثمانيون، فرح الشيخ المصباحي، زيّن الجامع، وخطب في الناس، وقال لهم:

- «اليوم تعود البلاد من غربتها»!

وحين جاء الإنكليز، قال، منذ الأيام الأولى، لابدّ من مقاتلتهم، وقطع جذورهم كي لا تمتد في أراضينا، فتشرب ماءنا، وخيرنا! واليوم يرحل الشيخ المصباحي وهو يرى الإنكليز يقرّبون اليهود، ويستجلبونهم، ويجمعونهم، ويغضون النظر عن جرائمهم، وأفعالهم، ويمهدون لجعل البلاد وطناً لهم! لهذا.. دعا للمقاومة، وشجَّع الثوار، وأمدّهم بالمال، ومشى إليهم! إلى وادي الحمام؛ إلى مغارة السعديات.. وقاتل إلى جوارهم.. دفاعاً عن البلاد، وحين رحل! رحل معهم!

الحاشية الثالثة

خرجت الجثامين، من صحن المسجد محمولة على الأكتاف، وقد زيّنتها أغصان الزيتون، خمسة جثامين يحف بها المئات من الناس، أصوات البكاء تتداخل في الأجواء، والتكبيرات والتهليلات تتعالى.. تكبيرات من المساجد، وأصوات أجراس من الأديرة تجول في الفضاء الرحب مثل الطيور الحائرة.. حملت الجثامين إلى المقبرة.. كان الناس في حالة غضب عارمة، لذلك تحسب أفراد دورية الإنكليز الخطر الذي قد يحيق بهم، فابتعدوا عن مكان وجودهم المعتاد، ذهبوا بعيداً، وراحوا يراقبون مشهد الدفن.. وقد زحف الناس وراء الجثامين صغاراً وكباراً.. مودعين، باكين، والأسى يملأ وجوههم المتعبة، المرهقة!

تذييل أول وأخير

عشرات من شبان الشماصنة، والقرى المحيطة بها تنادوا للالتحاق بالثوار.. للأخذ بثأر الشيخ المصباحي، ورفاقه الثوار.. فمضوا في غياب طويل!

* * *

شتيوي .. الملاّك !!

ما عاد الوضع يحتمل أبداً،

فقد أحاطت بالقرية كبانيات جديدة لليهود، كبانيات صار لها أسماء عبرية، امتلأت باليهود القادمين من الدول الأوربية، والبلاد العربية، والهند، وإيران، والحبشة. كانت الأقرب، من بينها إلينا، كبانية كعوش، ونجمة الصبح، والجاعونة.. كبانيات أشبه بالثكنات العسكرية، محاطة بالأسلاك الشائكة، لها بوابات، ومخافر للحراسة.. راحت تتمدد نحو أراضينا يوماً بعد يوم، وعلى مرأى من الإنكليز.

كنّا نلاحظ أن لها أنظمة أشبه بالأنظمة العسكرية، ففي الصباح الباكر، يخرج الجميع - تقريباً - صغاراً وكباراً إلى الرياضة الصباحية، ثم يذهبون إلى الغسيل وتبديل الثياب، ثم يعودون إلى أمكنة الطعام، يتناولون إفطارهم، ثم يخرجون إلى العمل. وفي المساء يجتمعون أيضاً في الساحة العامة في صفوف وحلقات ثم ينصرفون إلى بيوتهم. كانت الكبانيات أشبه بالمدن الصغيرة، فيها أسواق مشتركة، ومحلات للمهن اليدوية، وملاعب، وأمكنة للهو والترفيه، ومكتبة للقراءة والمطالعة، وأمكنة للاستحمام، ومقهى عام مشترك. كما توجد فيها نقاط للإطفاء، والحراسة الليلية، ومستوصف طبي صغير!

كنا نذهب إلى الكبانيات عند الحاجة القصوى، وهي حاجات لها علاقة بالمرض على وجه التحديد. لقد اضطررت مرات عديدة، وأخذت

دندي إلى كبانية كعوش الأكثر قرباً إلى القرية.. ليلاً، أفرش لها فرشة في العربة، فتتمدد فيها، آخذها من أجل أن يفحصها الطبيب اليهودي هناك، لأنها كانت تعاني من آلام الحمل. كانت خائفة جداً من أن تسقط حملها. فطلبتِ مني أن نذهب إلى الكبانية، لتأخذ دواءً، لعلها ترتاح، فتهدأ نفسها الحائرة الخائفة على جنينها!

آخذها إلى الكبانية، فيوقفني الحراس بعيداً عن بوابتها عشرات الأمتار، ويسألونني، ماذا أريد، فأقول لهم زوجتي مريضة، وهي حامل، ونريد رؤية الطبيب، فيدخلوني بعد أن يعرفوني. كنت قد جئت أكثر من مرة إلى الكبانية للغاية نفسها. لكن اليهود يظلون حذرين، حتى وإن عرفوا الآخر، ويقومون بتفتيشه، والتحقق منه، وكأنهم يرونه للمرة الأولى.

في الداخل، قال الطبيب لدندي، إن وضعها الصحي جيد، ووضع الجنين جيد أيضاً، وإنها ستضع مولوداً يتكلم العربية فلا تقلق! وأعطاها دواءً وزيت سمك، وبعض علب البسكويت! كان الطبيب ودوداً، يحاول دائماً أن يكسب رضانا. وحين خرجنا قال لي هامساً: «شتيوي، لا تخف، هذا.. دلال نسوان»!

كان عدد كبير من أهالي الشماصنة يتحدثون العبرية، وذلك لأن الشيخ المصباحي طلب، قبل رحيله، من الجميع أن يتعلموا اللغة العبرية لكي يأمنوا شرّ اليهود، ليعرفوا لغتهم، ويعرفوا مقاصدهم. جاء برجل عراقي اسمه فؤاد داوود يتقن العبرية إلى القرية، وطلب منه أن يعلم شبان القرية، ورجالها اللغة العبرية لقاء أجر عيني كان يأخذه الرجل العراقي، شهرياً.. يأخذ البيض، والقمح، والفريكة، والسمن، والشعير، والحمص، واللبن، والجبن..؛ يأخذ أي شيء يأتي به إليه أبناء القرية في آخر الشهر. كانت لديه عربة خشبية صغيرة يجرها بغل أسود كبير، يأتي بها في آخر الشهر لينقل ما سيأخذه من أبناء القرية! وقد كنتُ واحداً من بين رجال القرية الذين تعلّموا العبرية على يدي فؤاد داوود!

كما كان أبناء القرية يذهبون إلى كبانية كعوش من أجل تجليخ سكك الفلاحة في أول موسم الفلاحة، كما يذهبون بخيولهم، وكدشهم، وبغالهم من أجل حذيها عند بيطري يعمل هناك داخل الكبانية، وذلك حين يتعذر عليهم الذهاب إلى سوق الخالصة. كانوا يستقربون الكبانية، فيذهبون إليها لقضاء شؤونهم؛ وبذلك صار الاختلاط بين الطرفين شائعاً بين حين وآخر! وقد اتسعت رقعة المخالطة أيضاً، حين صار الأهالي يلتقون باليهود في سوق الخالصة، وعلى الدروب، وفي أمكنة الرعي والزراعة، فالتقى الرعيان، كما التقى الفلاحون. بعض من اليهود نشطوا في أعمال التجارة، فغدا الكثير منهم يأتون إلى القرى بعربات خشبية تجرها البغال أو الخيول أو الكدش، يبيعون قطع القماش، والحصر، وأواني الطبخ والطعام، كما يبيعون الحلويات والمأكولات، والسكر، والقهوة، وحب الهال، والملح. وكان الناس يشترون منهم، لأنهم أحسوا بأن سوق الخالصة تنتقل إلى قراهم بوساطة هؤلاء الباعة المتجولين! هؤلاء الباعة صاروا يتحدثون العربية، وأهالي القرى، حتى الأطفال الصغار، والنساء، والعجائز صاروا يعرفون الكثير من الكلمات العبرية!

ومع أن المخالطة كانت موجودة على أشكال عديدة، إلاّ أن روح الكراهية كانت شائعة، فاليهود لا يأمنون جانبنا، ونحن لا نأمن جانبهم! كنا نرى اعتداء حيواناتهم على مزروعاتنا، وقسوة الدوريات الإنكليزية المطعمة بعناصر يهودية تجاه المزارعين، فقد كان يحدث أن يُمنع الفلاحون من الوصول إلى حقولهم، وبساتينهم.. لكي يعملوا فيها بحجة الأمن، والظروف الصعبة، والمناورات العسكرية. ومع مرور الأيام راح الناس يحسون بأن كروم العنب والتين والرمان تُسرق من قبل اليهود، كانت الدوريات تغلق الطرق المؤدية إلى هذه الكروم بحجة مناورات الجيش، وتعيد المزارعين إلى بيوتهم قسراً، فتقوم ورش من الكبانيات وتجمع محاصيل الفلاحين وتسرقها،

وتسوقها في غفلة منهم! كما كان اليهود، يقومون، بإغراق الأراضي المزروعة حديثاً بالماء، فيطفو حب القمح أو الشعير أو شتول البندورة والباذنجان على سطح المياه، وما إن تنشف المياه حتى تأتي الطيور وتأكل الحبوب، وتموت الشتول، وقد ظهرت للعيان! كما كانت دوريات الإنكليز تخوّف الأهالي وتحذرهم من الاقتراب إلى حدود الكبانيات لأنها مسيّجة بالألغام، وذلك من أجل حماية الكبانيات، وجعلها بعيدة عن أيدي أهالي القرى المحيطة بها! تخوّفهم هم وحيواناتهم كي لا يقتربوا من الكبانيات! ومع ذلك كانت المشكلات تحدث يومياً بين الطرفين. الرعيان يقطعون أسلاك الهاتف التي تصل ما بين كبانية وأخرى، فتُقطع الاتصالات! دوريات الإنكليز، ومن بين أفرادها خواجات، يهود، تطارد الرعيان، تجمعهم، وتسألهم عن خراب أسلاك الهاتف، من قطعها؟! ولماذا؟! والرعيان ينفون إن كانوا هم من فعل ذلك، كثيراً ما تكون كلمتهم واحدة، ونفيهم واحداً، واستنكارهم واحداً أيضاً، ومرات قليلة كان الخوف يتسلل إلى نفوس بعضهم فيعترفون تحت الضرب والخوف والسجن، أن أحدهم فعل ذلك! وعندئذٍ يُفتح ملف خاص بذلك الراعي، فيصبح من أصحاب السوابق عند الإنكليز وخواجات اليهود!

أحد رعيان القرية، واسمه عبدو المجحود، هو الوحيد الذي لم يخش ضرب الخواجات اليهود، ولا سجنهم له ليال عدة، ولا التحقيق معه.. فظلّ يداوم على إقلاق راحة الخواجات في الكبانيات.. هو من نقل أكياس البصل اليابس من داخل كبانية كعوش ليلاً، ورماها في النهر. حوالي مئة كيس صغير من البصل كانت معدّة للزراعة، حملها ليلاً ورماها في النهر، بعد أن تسلل من فتحة في الأسلاك الشائكة.. ولأن الأرض كانت موحلة بماء المطر، فقد تركت قدماه آثارها ما بين كبانية كعوش والنهر! كان عبدو المجحود، وحين يصل إلى النهر يفتح الكيس ويدلق رؤوس البصل الصغيرة جداً إلى داخله، فتمضي (قنارات) البصل سباحة مع النهر! أما أكياس الخيش

الصغيرة، فكان يحشوها في فتحة أنبوب الماء الحديدي الذي يضخ المياه نحو الكبانيات من النهر، يحشوها في الأنبوب، ويدفعها إلى نهايته بوساطة عصاه الطويلة. سهر عبدو المجحود طوال الليل حتى أنجز مهمته الشاقة هذه.. لأنه كان يريد الانتقام من الخواجات اليهود الذين يتهمهم بقتل والده يونس المجحود، فهم الذين جعلوا والده يسقط في أحد الآبار التي فتحوها بالقرب من الكبانيات القريبة من القرية، وأبقوها مفتوحة ولم يردموها، وفي أثناء عودة والده ليلاً من إحدى القرى وقع في أحد الآبار، وقتل على الفور، ولم يعرف موته إلا عندما انتشرت رائحته؛ الرائحة هي التي دلّت عليه. لذلك يقول عبدو المجحود إنه سيظل ضد الخواجات اليهود مادام حيّاً!

ولم ينج عبدو من ضرب الخواجات، وإهاناتهم، وحبسهم، فقد عرفوا أنه هو من فعل ذلك! اقتادوه، بعد أن نفى بشكل قاطع أن يكون هو من فعل ذلك، إلى الطريق الذي أوجدته قدماه، ما بين الكبانية والنهر، هناك دلّت آثار قدميه عليه، طابقوا دعسات أقدامه مع آثار الأقدام المرسومة على الطريق، فكانت له! بعد أن كانوا قد ساقوا إلى تلك الآثار العديد من الرعيان والمزارعين، إلاّ أن آثار الأقدام تطابقت مع آثار أقدام عبدو! فضربوه، وآذوه، وحبسوه، ولم يخرجه من سجنه، ويخلصه من عذابه سوى الشيخ عبد الكريم الأسود، خليفة الشيخ المصباحي؛ لقد ذهب إلى الكبانية، وكفله بتعهد ألا يعود إلى ما فعله! كانت أم عبدو المجحود قد ذهبت إلى الكبانية ومعها سلّة بيض لكي تتشفع لابنها، إلاّ أن المسؤول عن التحقيق في الكبانية كسّرَ البيضات على رأسها.. واحدة واحدة.. وطردها، فخرجت تلعن وتشتم اليهود والإنكليز وساعتهم، ولم يكن لها من سبيل سوى أن تذهب إلى الشيخ عبد الكريم الأسود لكي ينقذ ابنها من بين أيدي اليهود الظلاّم!

وعبدو المجحود هو الذي جعل الخواجات يضطرون إلى نشر أنبوب مضخة المياه الحديدي أيضاً، وذلك لأن أكياس الخيش التي حشاها في

داخل الأنبوب انتفخت بالماء وحالت دون تدفق المياه إلى خارج الأنبوب! وبذلك منع سكان الكبانية من الغسيل والشرب في ذلك اليوم. وقد خرجت دورية إنكليزية يرافقها الخواجات اليهود، راحت تتفقد أنبوب الماء الحديدي.. مشى أفرادها طويلاً مع الأنبوب، وهم يدقون عليه بالعصي الخشبية، وعندما أحسّوا بأن صوت الدق على الأنبوب اختلف وصار مشوشاً، قصّوا الأنبوب الحديدي، فوجدوا أكياس الخيش الصغيرة التي كانت ملأى بالبصل محشوة داخل الأنبوب، فراحوا يستخرجونها واحداً واحداً! الأمر الذي أطار صواب المحققين مع عبدو، فضاعفوا له جرعة التعذيب، ومدة السجن، وقد روى حين خرج أن الخواجات وضعوا أصابعه على قطعة خشب وراحوا يضربونها بالعصي حتى تورّمت، ونزَّ الدم منها! وأنهم علّقوه من أصابع يديه في السقف حتى راح يحسّ أن أصابعه شلّت تماماً.

في أثناء توقيفه، لأيام في الكبانية، كان الخواجات يجبرونه على العمل داخل الكبانية، كأن ينظف الحاويات من قاذوراتها، أو يكنس مهاجع الحيوانات، أو يغسل الخيول، والبغال، أو يملأ مذاود الأبقار بالعلف، أو يقوم بأي عمل يفرضونه عليه. في إحدى المرات، وفي أثناء توقيفه، طلبوا منه أن يزرع بعض (قنارات) البصل، انتقاماً منه، في أثلام كانت معدة لهذه الغاية، ففعل، غير أن (قنارات) البصل لم تنبت! مرت عليها الأيام ولم تنبت، فحفر الخواجات عليها، فوجدوا أن عبدو كان يدس (قنارات) البصل في التراب بحيث تكون رؤوسها إلى الأعلى، وذيولها إلى الأسفل، ولذلك تتأخر في الإنبات!

وفي إحدى المرات، قطع عبدو المجحود سلك الهاتف، ربط طرفي السلك المقطوعين، بقرني كبشين من كباش القطيع، فراح الكبشان يرعيان، وكتلة السلك المتجمع تُسحب وراءهما، طوال ساعات، وما إن رأى عبدو

سيارة اليهود تغادر كبانية نجمة الصبح، وتشرع بتفحص السلك الهاتفي، حتى سارع إلى فك طرفي السلك من قرني الكبشين، وقطعهما نهائياً، وجمع السلك ورماه في شجرة سدر وأخفاه! لم يعرف الخواجات من قطع السلك إلا بعد ساعات عديدة، اكتشفوا ذلك من القطعة الصغيرة التي أبقاها عبدو المجحود لديه لكي يشدّ بها سرواله! تلك القطعة الصغيرة من السلك الهاتفي هي التي كشفته، وقد قام عبدو بتمثيل ما قام به أمام دورية الخواجات.. فكادوا يقتلونه من شدة الضرب الذي ناله! ومع ذلك لم يتوقف عبدو المجحود عن مقاومة الخواجات، فكثيراً ما كان يتسلل إلى الكبانيات، ويرمي أوساخ الحاويات داخل براميل المياه، وأحواض السباحة، أو يجمع ثياب الغسيل ويرميها في حاويات الزبالة! كان يريد أن يقول لهم إنهم بشر غير مرغوب بهم، وأن الناس لا يحبونهم!

الحاشية الأولى

بعد عودتي من أمريكا مباشرة، عرضت المال على سمعان، وقلت له هذا هو مهر دندي. فرفض أن يأخذ ليرة ذهبية واحدة. قال إنه لي ولدندي! فقمت واشتريت مساحات واسعة من الأراضي تقع إلى جوار قطعة الأرض الصغيرة التي كان والدي يملكها، وحفرت الآبار فيها، وسيّجتها بالأسلاك الشائكة الشبيهة بأسلاك الكبانيات الشائكة، واشتريت قطيعاً من الماشية، وبعض الحمير، والخيول، والبغال، وعربة خشبية كبيرة كنت أستعملها في قضاء شؤوني، كما اشتريت (بيسك) حديد عريض له أربع سكك فلاحة بدلاً من السكة الواحدة.. وجعلت العديد من العمال يعملون في الأرض، يساعدونني في أوقات الفلاحة، والرجيدة، والدراس، والتذرية، وجمع المحاصيل، فقد غدوت من الملاكين المعروفين في المنطقة. وغدا بيتي مضافة للوجهاء والغرباء الذين يمرون بالقرية.. خصوصاً بعد رحيل الشيخ المصباحي! لقد أحسست بطعم الحياة الحلو، ورغد العيش الهانئ.. بعد

سنوات الغربة الطويلة.. على الرغم من وجود الإنكليز واليهود، وكثرة المواجهات!

الحاشية الثانية

ذهبت إلى القدس، والتقيت بنفر من عائلة الحسيني، قابلت رجلاً منهم اسمه جمال الحسيني، كان رجل سياسة معروفاً، له صلات مع مصر، وسورية، وله جاه كبير وحظوة عند الإنكليز. كان يشرف على حزب سياسي، فطلب مني أن أعمل معه؛ أن أكون ذراعه في منطقة الجليل، وأن أكون على صلة مع أحد أبناء عائلة الخضرا في صفد، وأن نجمع الناس ضد الإنكليز واليهود.. وأن نشرح لهم المخاطر التي تتهدد الجميع، فالهجرات اليهودية تتالى، وعدد اليهود في المدن، والقرى، والكبانيات يتزايد.. فوافقته!

الحاشية الثالثة

اشتريت معصرة زيتون الدبغي، ومعمل الصابون الملحق بها من ورثة الدبغي، وأخذت أشرف عليهما، وصرت أسوّق الزيت والصابون والحبوب، والفستق السوداني إلى الشام ومنطقة حوران، ومنطقة بنت جبيل، وصارت لي علاقات تجارية قوية مع العديد من تجار مدينة القنيطرة، والشام، وبنت جبيل، وصيدا، وصور. وتعرفت إلى تجار من آل بيضون، وسرسق، والأسعد كانت لهم أراض في منطقة الجليل، يزرعها، ويشرف على مواسمها وكلاء لهم في الجليل!

كما صار لي ثلاثة أولاد هم كعدي، ونجمان، وجاسر، وابنة وحيدة أسميتها فتيحة على اسم فتيحة.. تلك المرأة الرائعة التي أخذتني إلى أمريكا! فتيحة التي لا تزال تكتب إليَّ الرسائل.. فتسأل عني، وعن دندي والأولاد، كما تسأل عن الذهب، وماذا فعلت به!

تذييل أول

قويت شوكة اليهود أكثر!

بدأنا نرى دوريات يهودية مستقلة تمرّ بنا. دوريات للاستطلاع تجوب المنطقة من قرية الخالصة في الشمال إلى بحيرة طبريا في الجنوب بوساطة سيارات عسكرية مكشوفة! كنا نرى خواجات اليهود يضعون علامات بيض على الحجارة، والرجوم، وعلى جذوع الأشجار! وكنا نرفعها؛ الرعيان والفلاحون، والنساء.. جميعهم كانوا يحسّون بخطر تلك العلامات فيخفونها أو يمحونها حين يمرون بها. ومع أن نفوذ الخواجات اليهود تعاظم إلاّ أنهم، ما تجاسروا على دخول قرانا؛ حتى قوات الإنكليز ما كانت تدخلها إلاّ إذا حدث أمر غير عادي.. كحالات المطاردة، أو العصيان، أو التفجير!

قويت شوكة اليهود، فراحت عملياتهم تتكاثر، وتخلف وراءها القتلى، والجرحى، والدمار، والخوف.. وقد كان آخر ما قاموا به هو تفجير محطة القطار في قرية سمخ؛ فخّخوا القاطرات التي كانت مملوءة بالركاب، والبضائع، وهي في طريقها من الشام إلى درعا، إلى سمخ، والمتوجهة إلى حيفا فالعريش في الأراضي المصرية. انفجرت العبوات الناسفة، فتطايرت أشلاء الركاب، والقاطرات، واحترقت البضائع، والجثث، والمحطة، ودمرت سكة الحديد، وبعض القاطرات، فشاع الذعر والخوف بين صفوف الركاب، والأهالي، وتعطلت حركة القطار أسابيع عدة.

كان اليهود يريدون تدمير خط سكة الحديد، والقطار معاً، وذلك لأنهم تخوّفوا من أن القطار هو صلة الوصل التي تربط الأهالي في الجليل بسورية من جهة، ومصر من جهة ثانية، خافوا أن يصير القطار وسيلة نجدة للأهالي، يزودون من خلاله بالسلاح السوري والمصري، على الرغم من أنهم يعرفون أن القطار يخضع لعمليات تفتيش يومية من قبل الفرنسيين في سورية، ومن قبل الإنكليز في فلسطين ومصر!

على إثر ذلك قام الثوار بهجوم ليلي على كبانية لليهود اسمها همشمار قريبة من قرية طوبا، أحرقوا الكبانية، فاشتعلت النيران فيها طوال الليل!

تذييل ثانٍ

توسعت مدرسة القرية، صارت تضم العديد من الغرف الجديدة، وذلك لأن عدد طلاب الصفين السابع والثامن تزايدوا بسبب قدوم بعض الطلاب من القرى المحيطة بالشماصنة إليها، وبذلك راحت تشيع اللغة الإنكليزية بين الطلاب، وفي داخل البيوت. وقد وافقت على اقتراح أستاذ الإنكليزية في المدرسة أن يؤسس ما يشبه المعهد الصغير يدرّس فيه اللغة الإنكليزية لمن يرغب من أبناء القرية خارج أوقات التدريس في المدرسة، وذلك لقاء أجر اتفقنا عليه، وقد كانت النتيجة مبهرة للغاية، فقد التحق بالمعهد العديد من طلاب المدرسة، وبعض الطلاب الذين تركوا المدرسة منذ سنوات ماضية! كان لأستاذ الإنكليزية، واسمه عطا اللّه أبو الخير، تجربة ناجحة في تدريس الإنكليزية في أحد معاهد مدينة صفد، وقد اقترح عليَّ الفكرة، فقلت له إن القرية صغيرة، وقد لا تكون النتائج مرضية! فقال لنعلن عن الفكرة، ثم نقدر النتائج. وهذا ما حدث فعلاً، فما إن أُعلن عن فكرة المعهد حتى سجل العديد من الطلاب أسماءهم، والتحقوا بالمعهد لكي يتعلموا اللغة الإنكليزية فقط!

تذييل ثالث

دُمرت معاصر الزيت الثلاث في وقت واحد! دمرت ليلاً، وقتل حراسها الثلاثة أيضاً! سُمعت انفجارات براميل الزيت على مسافات بعيدة. تقطعت الآلات، وخربت الدواليب، وساح الزيت وجرى كالأنهار!

فأشعل الناس قناديلهم، ونفروا إلى المعاصر ليروا ماذا حدث. كان التدمير مفجعاً حقاً، والخراب كبيراً جداً! فمعصرتي التي اشتريتها من

الدبغي بدت لي كأطلال، انهارت حجارتها البازلتية الضخمة، وانفجرت براميل الزيت، وتكسرت خوابي الزيت، وطارت تنكات الصفيح، دمرت جورة الزيت.. فساح الزيت فوق الأرض وجرى نحو النهر. معمل الصابون لم يصب بأذى على الرغم من قربه الشديد من المعصرة، يبدو أنه لم يلغم! أصابع الاتهام توجهت نحو اليهود! فقام العديد من الثوار وبمساعدة أهالي القرية بمهاجمة كبانيات كعوش، والجاعونة، ونجمة الصبح، أُحرقت المستودعات، والمحلات التجارية، وقد قيل إن الكبانيات كانت فارغة من الناس لأن سكانها اليهود أخذوا حذرهم، وتوقعوا ردّ الثوار والأهالي على ما حدث في معاصر الزيت، فسكنوا في الملاجئ، أو تواروا عن الأنظار! وقد تأكد لنا أن اليهود كانوا وراء تفجير المعاصر الثلاث، حين علمنا أن باخرة كبيرة تحمل صفقة زيت كبيرة، اشتراها التجار اليهود من إيطاليا بأسعار رخيصة جداً، وجاؤوا بها إلى البلاد، وقد أرادوا بيع بضاعتهم لذلك فجرت العديد من معاصر الزيت في الناصرة، وصفد، وعكا، وجنين، ونابلس، والقدس، والخليل.. في وقت واحد تقريباً!

في تلك السنة دمر موسم الزيت تدميراً مرعباً، فاضطر الأهالي إلى شراء الزيت الذي جلبه التجار اليهود، وبأسعار عالية!

* * *

دروب الحزن..!!

ساءت صحة دندي كثيراً!

ضعف جسمها، فأخذتها مرات عديدة إلى مشفى الناصرة! كانت معدتها لا تطيق الطعام، وضغطها يهبط، فيصير لونها أشبه بالتراب. وفي بعض المرات كانت لا تقوى على المشي، أو القيام بشؤون البيت. فتقوم زانة والأولاد بمساعدتها! دندي لا تشكو ولا تتألم أمامي، دائماً تظهر وكأنها مهرة معدة للسباق! لكنني ألحظ عليها علامات التعب، وأشعر حين يشتدّ عليها الألم، أنها تتوارى عني، وتتوجع وحيدة! في البداية كنت أظن أن تغيّر صحتها، واعتلالها يعودان إلى أنها حامل، فسألتها، فنفت! قالت لي مازحة: «كل ما لديّ، أعطيتك إياه»! فقلت: «وهذا كثير. ثلاثة أولاد وبنت هم كنز حقيقي»! فتهمهم: «عسى أن تكون أيامهم أحسن من أيامنا»! فأقرصها من خدها، وأقول: «وهل هؤلاء سيعرفون الحياة كما عرفناها»! فتبتسم دندي وقد عاد بها الخاطر إلى أيام حبنا القاسية؛ أيام مطاردتي لها، وأيام غربتي بعيداً عنها.. تبتسم دندي.. فأرى التجاعيد راحت تزحف إلى وجهها، إلى حواف ابتسامتها الصافية مثل نبعة الماء، ونحو غمّاز خدها الشبيهة ببحيرة طبريا! ونحو عينيها العميقتين مثل البحار. فأشعر أنها الآن أجمل، وأحلى وأقرب إلى روحي من أي وقت مضى! فأنا على الرغم من قربي من دندي، وعيشي معها، أبدو كالعطشان المؤبّد الذي لن يرتوي من رؤيتها أبداً. كنت قد أخذتها إلى كبانية كعوش مرات عدة، ففحصها الطبيب هناك، وقال إنها

بحاجة إلى أن تأكل خبز النخالة، وأن تشرب الحليب، أن تريح معدتها، وأن تمتنع عن تناول الكثير من المأكولات. لكن دندي وعلى الرغم من أخذها بتحذيرات الطبيب، ظلّت صحتها تمضي إلى النحول والضعف، فأخذتها إلى طبيب كبانية الجاعونة، فأعطاها أدوية، وطلب أن ترتاح في البيت، أن تمتنع عن القيام بأي أعمال مجهدة! ولكن من دون جدوى. فأخذتها إلى مشفى الناصرة. في المرة الأولى قالوا لي ربما كان لديها نزيف في المعدة، لأن معدتها ما عادت تحتمل أي طعام يدخل إليها! فعالجوها، أعطوها أدوية، وراقبوا معدتها مدة أسبوع، فلاحظوا، كما أحسّت هي، بأن حالها راحت تتحسن! كنت أودّ أن تظلّ أسبوعاً آخر تحت المراقبة. لكن دندي رجتني أن تعود إلى الشماصنة، اشتاقت للأولاد! فعدتُ بها. لكن عوداتي بها إلى مشفى الناصرة تكررت مرات عديدة، وفي كل مرة كانت تتبدى الأعراض نفسها، والتشخصيات نفسها أيضاً. المعدة وضعفها، وعدم قدرتها على تحمل الأطعمة. كانت صحة دندي تنوس بين التحسن والنكس. إلى أن رأتها إحدى عجائز القرى المحيطة بالشماصنة، فوصفت لها زيت السمك والحليب فقط، فراحت دندي تأخذ زيت السمك ثلاث مرات يومياً، وتشرب الحليب كلما أحسّت بالجوع. وقد تحسنت صحتها بالفعل، عادت إليها حيويتها، بدأتُ ألحظ أن اللون الترابي راح يغادر وجهها، فحمدت الله! وقد فرحت دندي، بأن الدنيا تعود إليها لتقابلها بوجهها الجميل. وقد ازداد فرحها، حين تم زواج زانة من عودة الفياض. شاب طيب، أحب زانة لأن أمه تحب دندي، وتعرف من هي. أمه هي التي أقنعته بالزواج من زانة. لكثرة ما حدثته عن دندي وطيبتها، كانت تقول له الأم هي المرآة الحقيقية للبنت. ودندي مرآة صافية، لا تعرف الكذب، أو الغش، وجهها هو قلبها! فوافق عودة الفياض. أرسل أمه إلى دندي من أجل أن تطلب زانة منها، فأجابت دندي، إنها موافقة ولكن عليها أن تأخذ موافقة ذيب الأيوب والدها أولاً، أما

موافقة شتيوي، وزانة فهي كفيلة بهما! بالطبع كانت زانة تعرف عودة الفياض كما أعرفه أيضاً. شاب قصير، طيب وفقير، هادئ لا صوت له في القرية ولا مشكلات. يعمل في الأرض مع والدته، حصل على قدر قليل من التعليم في المدرسة أيام الشيخ المصباحي، فهو يقرأ ويكتب، وقد ورث عن والده مساحة صغيرة من الأرض تعيله مع أمه وأخته ميثة!

وافق ذيب الأيوب، فتزوجت زانة، وفرحت دندي كثيراً.. وكأن العرس لها، أو لكأنها هي العروس. لعلها ترى نفسها في ابنتها، وهي التي تزوجت مرتين من دون طبل، أو زمر، أو أفراح!

لقد ضبطتها مرات عديدة، وهي تكاد تطير من الفرح كالفراشة! فأفرح بها، وهي تقول لي:

- «عقبال كعدي يا شتيوي»!

فأهمهم لها:

- «إن شاء الله»!

الحاشية الأولى

يا إلهي،

باتت الأخبار، والأحداث.. أشبه بالأحزان اليومية! فقد تراخت قبضة الإنكليز، وقويت قبضة اليهود. فرحنا نقرأ نشرات بالعبرية، ودعايات تبشر بالخلاص اليهودي على أرض فلسطين، كما نقرأ أخباراً عن وصول دفعات جديدة من المهاجرين اليهود القادمين من الدول الأوربية، كانت التعليقات تشير إلى أن الإنكليز متعاطفين مع اليهود، لأنهم يتخوفون من حالة العداء الأوربي تجاه اليهود! فراحت تمنحهم تسهيلات غير عادية ليستحوذوا على البيوت، والأراضي. لقد بنيت لهم الكبانيات العديدة! كثيرون من يهود إيران، والهند.. وصلوا إلى البلاد أيضاً. وكأن تلك الكبانيات لم تعجب اليهود، أو

لكأنهم لم يكتفوا بها فقد أرادوا تهجير الأهالي من المدن، عن طريق زرع الخوف، والقلق في الشوارع، والبيوت، والأسواق، والساحات! فالتفجيرات المتتالية التي حدثت مؤخراً في شارع الملوك في مدينة حيفا، جعلت الحياة في هذا الشارع لا تطاق. بيوت، ومحلات تجارية، ومقاه دمرت. اشتعلت فيها الحرائق فالتهمت ما فيها، وقد تكررت أحداث الانفجارات مرات ومرات! وشاعت بين الأهالي شائعة تقول إن اليهود يريدون هذا الشارع، لذلك فهم يركزون عليه بين حين وآخر؛ يخصّونه بالتفجيرات، والحرائق، ليعمّ الخوف، والقلق بين الناس، والتجار في وقت واحد! راحوا يرمون رسائل التهديد داخل مكاتب المحامين، وفي المحلات التجارية، وفي عيادات الأطباء.. كذلك تعددت التفجيرات، وحوادث القتل في عكا القديمة، ويافا القديمة أيضاً! وقد نشط الثوار والأهالي في التصدي للخواجات اليهود، فمنعوهم من دخول الأحياء، أو الجلوس في المقاهي، أو التجول في الأسواق، وصدوا محاولاتهم الهادفة إلى شراء المحلات التجارية والبيوت.. والأراضي، لكن تعاون الإنكليز مع اليهود ومساندتهم لهم كان يرجح كفة اليهود، ويقوي نفوذهم وحضورهم في الحياة العامة! فقد انتشرت المدارس الزراعية اليهودية، كما انتشرت المدارس الدينية! وكثرت أعمال اليهود، وازداد جولانهم بين المناطق، والمدن.. طلباً للاستحواذ على المال والأرض!

طبيب كبانية كعوش، قال لي مرة، بينما هو يفحص دندي:

- «أما زلت تشتري الأراضي يا شتيوي»!

فأجيبه، باستنكار:

- «وكيف عرفت يا خواجة»!

فيقول:

- «الأخبار أرواح.. لا تموت ولا تحبس»!

فأقول له:

- «إنني أشتريها بتعبي..» !

فينظر إليَّ، ويقول إنه مكتوب في كتابهم بأن الأرض كلها لهم، وأنها ستصير إليهم قريباً، وأن مال الدنيا هو لهم أيضاً، وسيصير إليهم قريباً! فأقول له إن الأرض أرض الآباء والأجداد. فيقول ساخراً:

- «كلام»!

فأقول له ساخراً أيضاً:

- «والمكتوب في كتابكم.. كلام أيضاً، يا خواجة»!

فيقول لي متوعداً:

- «الأيام بيننا»!

وأقول له مقتنعاً:

- «الأيام هي التي ستفصل بيننا»!

الحاشية الثانية

جمال الحسيني، طلب مني أن ألتحق به في القدس. أن أنقل أسرتي إلى القدس لكي أنشط في العمل السياسي معه. قال لي بأنه سيرسلني في مهمات إلى مصر، والشام، والسعودية.. فاعتذرت، قلت له إنني لا أستطيع مغادرة الشماصنة. وقد أفيده في منطقة الجليل، أكثر من إفادتي له في القدس! فنعتني بالانغلاق، ووصفني بالسمك الذي ما إن يخرج من حوضه حتى يموت! حقيقة شاورت دندي. قلت لها جمال الحسيني يريدني في القدس، وهي فكرة جيدة، ففي القرب منه منفعة، وشهرة، وجاه!

فقالت لي:

- «أما آن لك أن تشفى من مرض الغربة يا شتيوي»!

قولها هذا هو الذي جعلني أعود إلى جمال الحسيني لكي أعتذر!

الحاشية الثالثة

دوريـة إنكليزيـة، جاءت إلـى الـشماصنة، وأخـذت الـشيخ عبـد الكـريم الأسـود إلـى مقـرّ قيـادتهم في طبريـا، ثم أعـادوه بعـد سـاعات. الـشيخ عبـد الكريم الأسود، قال إنهم طلبوا منه أن يخفف من حدّة لهجته التـي تقـول إن الإنكليـز هـم أعـداء الله، وأنهـم ورثـة ريتـشارد قلـب الأسـد، وعلـى الجميـع مقـاومتهم. وإنهـم شـرحوا لـه بـأن الانتـداب لـيس احتلالاً، فحـاججهم، وطلـب مـنهم أن يتركـوا النـاس يعيـشون في بلادهـم أحـراراً مـن دون انتـداب، أو احتلال، أو وصاية. وقـال لهـم إن الحـضارة ظهـرت أول مـا ظهـرت فـوق هـذه الأرض، وأن الأديـان عرفـت فيهـا، وأن الرسـالات انطلقـت منهـا.. فالنـاس والـبلاد.. بلغـوا سـن الرشـد منـذ أزمـان بعيـدة! فعنّفـوه، وحـاولوا أن يحجـزوا حريتـه، وأن يهينـوه بالانتظـار، والأسـئلة العبثيـة، والتعلـل بعـدم وجـود سـيارة تعـود بـه إلـى الـشماصنة.. إلاّ أنـه ظـلَّ علـى رباطـة جأشـه، وطلـب مـنهم أن يتركوه، فهو يعرف كيف يعود إلى القرية من دون سياراتهم! وقـد عـاد بالفعـل راكباً في إحدى عربات الجر!

تذييل أول

أخبرت دندي أن عمال مرفأ حيفا هم الـذين اكتشفوا، كميات الـسلاح الهائلة الوافدة إلى اليهود. كانت معبأة في براميل، قيل إنها براميل إسـمنت، مرسلة لليهود لكي يقوموا ببناء كبانيات جديدة! العمال أحسّوا بـأن البراميـل مختلفـة عـن براميـل الإسـمنت الاعتياديـة، وحـين فتحوهـا.. فوجئـوا بوجـود الأسلحة، فأخبروا الشيخ عز الدين القسّام خطيب جامع حيفا! وأخـذوا إليـه بعضاً منها كشاهد إثبات! فقـام الـشيخ القسام بالـدعوة للجهـاد ضـد اليهـود، فكـان هـو ورفاقـه مـن أول النـاس الـذين هجـروا الحيـاة العامـة، واعتزلـوا في الجبـال، والأحـراش، والأوديـة، والمغـر. وقلـت لدنـدي إنهـم جـالوا في القـرى،

فـذاع صـيتهم، والتحـق بهـم عـدد كبيـر مـن المتطـوعين! وراحـوا يتـصيّدون دوريـات الإنكليـز واليهـود، كمـا راحـوا يهـاجمون كبانيـات اليهـود.. فـصارت الأخبـار الطالعـة.. أخبـارهم! تهـزّ دنـدي رأسـها، وتتخـوف أمـامي مـن أن الإنكليـز واليهـود لـن يتركـوا القـسام ورفاقـه، وإنهـا تحـسّ بـأن باعـة اليهـود المتجولين ليسوا إلاّ عيون مراقبة لليهود، وإلا لماذا يسألون عن القسام يومياً!

تذييل ثانٍ

انفجارات جديدة في سوق الخالصة!

قنابل يدوية انفجرت في أنحاء عدة من سوق الخالصة، وشائعات تروّج بـأن خلافـات التجـار وراء هـذه التفجيـرات، لكـن المؤكـد أن وراءهـا الأيـدي اليهودية، لأن تجار سوق الخالصة، تضامنوا، وتعهدوا بـأن لا يسمحوا لتجار اليهود بالدخول إلى السوق، والعمل فيها!

لقد حاول تجار اليهود أن يشتروا العديد من المحلات التجارية داخل سوق الخالصة، إلا أنهم فشلوا لتخوف تجار السوق من امتداد نفوذهم إلى السوق، والتحكم بها!

لم يقتل أحد في هذه التفجيرات، وقد اقتصرت الخسائر على بعض الجرحى، وبعض الخراب الذي أصاب بعض المحلات. إلا أن الخوف انتشر بـين النـاس، فتنـاقص عـدد الحـضور، وقلّـت حركـة البيـع والـشراء، وشـردت بعض الحيوانات من أصحابها! أكثر الناس المتواجدين في السوق.. خوفاً كانت النساء، فقد علا صراخهن، وصياحهن.. فتركن السوق، وسببن هلعاً مـضاعفاً.. للآخـرين، فأغلقـت المحـلات، وصـار المكـان.. مكانـاً للخـوف، والحذر، والقلق، والانتظار!

وكثيراً ما أغلقت السوق، حين صار الإنكليز واليهود معاً، يلجؤون إلى تعليـق بعـض المجاهـدين الـذين قتلـوهم في المناوشـات، والمواجهـات معهـم،

يعلّقونهم بالحبال من رقابهم، وصدورهم وأقدامهم، ويتركونهم يتأرجحون في الفضاء في مقدمة السوق! وقد صار مثل هذا المشهد المؤلم عنواناً لإغلاق السوق.. وعدم دخول الناس إليها!

تذييل ثالث

بكت دندي كما لم تبكِ من قبل. وقد عمَّ خبر استشهاد الشيخ عز الدين القسام.. القرى والمدن، سقط الخبر على الشماصنة ليلاً.. فلم يخرج أحد من الأهالي إلى العمل وإنما خرجوا إلى منطقة جنين لمعرفة ما حدث. لقد قيل إن الشيخ وقع، هو ورفاقه، في كمين إنكليزي على طريق يعبد، في منطقة جنين! فقاوموا حتى نفدت ذخيرتهم! في ذلك اليوم كانت الدروب الذاهبة إلى جنين، والآيبة منها دروباً للحزن العميم!

* * *

الدير.. مرة أخرى!!

اشتقت إلى الدير!

كان رحيل الراهب عطايا جداراً عالياً ينهض بيني وبين الدير! ما عدتُ أقوى على دخول الدير، وأنا أعرف أن الراهب عطايا غير موجود! كنت أعرف جميع الرهبان والراهبات الذين كانوا مع الراهب عطايا، كنت أحسّ دائماً بأنهم كانوا متعاطفين معي من أجل دندي! كانت أحاديثهم عني وعن دندي يومية تقريباً. وحين أغيب عنهم، يسألون الراهب عطايا عني! كنت أشعر بأنهم حزانى لأجلي، خصوصاً إذا ما عرفوا أن أذى سمعان لحق بي! الرهبان والراهبات الجدد لم أتعرف إليهم على الرغم من كثرة ترددهم على القرية!

في هذا الصباح، ذهبتُ إلى الدير. كانت نفسي حائرة، وأفكاري مضطربة. تمنيت وأنا في طريقي إلى الدير، أن أجد الراهب عطايا؛ ذلك الرجل، ومن دون أن أحكي له، كان يعرف مقدار حزني. في طريقي رأيت النساء كعادتهن يغسلن الثياب، والبسط، واللباد، وجزز الصوف على ضفة النهر، وبعضهن يغسلن أجساد أولادهن الصغار. كما رأيت قطعان الماشية منتشرة في الحقول الوسيعة، وسمعت غناء النساء، وأصوات نايات الرعيان، وحفيف الأشجار في المنفسح الرحب، أما أصوات الطواحين والمعاصر فكانت تصل إليّ خافتة.. وكأنها دقات ضعيفة على باب خشبي مبلول!

أجيء إلى الدير بحثاً عن أجوبة لأسئلة حيرتني، كان قد رماها في وجهي، رجل يهودي التقيته قرب كبانية كعوش المتاخمة لأرضي. أمس أخذت

الأسئلة، وذهبت بها إلى الشيخ عبد الكريم الأسود. قلت له، يا شيخ، جدعون، وهذا هو اسم الرجل اليهودي، وهو متقدم في السن، يقول إنه مكتوب في كتابهم بأننا سنخرج من أرضنا، وإن الأرض ستصير لهم، وإنهم هم ورثتها، وقد خصّهم الله بها. كما يقول إن عودة السيد المسيح رهينة في اجتماعهم كيهود في أرضنا! وإن سيطرتهم على العالم رهينة بتحقق علامات منها احتلالهم للقدس، وهدم المسجد الأقصى، وإقامة الهيكل مكانه! فقال لي:

- «أي كتاب هذا الذي يريدوننا أن نصدقه»؟!

قلت:

- «يقول كتابنا»!!

فقال:

- «هذه تفسيرات وشروح كتبها أحبارهم غايتها كتابة أحلامهم»!

قلت:

- «وهل ستتحقق هذه الأحلام»؟!

قال:

- «لا ندري! ما ندريه هو أن لهذه الأرض أهلاً سيدافعون عنها بأرواحهم»!

في طريقي إلى الدير كان يدور في ذهني سؤال يؤرقني، وهو لماذا يربط اليهود عودة السيد المسيح باجتماعهم في بلادنا، وهل يوجد سند تاريخي، أو وعد إلهي بهذا الأمر؟! ولم أصل إلى نتيجة!

كانت بوابة الدير مفتوحة، فدخلت بعد أن أوقفت العربة إلى جوارها، وعلقت عليقة العلف للكديش! أحسست، ومنذ الخطوات الأولى، أن سيد الدير، وهو الراهب عيسى الأسعد، غير موجود في الدير، وذلك لأنني لم أر عربة الدير! ومع ذلك واصلت طريقي إلى داخل الدير، رأتني إحدى

الراهبات، فتقدمت نحوي مبتسمة، ورحبت بي، فسألتها عن الراهب عيسى، فقالت إنه ذهب إلى طبريا منذ يوم الأمس. فشكرتها، وعزمت على الرجوع، غير أن أحد الرهبان رآني، فخف إلى لقائي مرحباً بي، كان من الرهبان الجدد، لم أعرفه، ومع ذلك استجبت إليه. أخذني إلى الداخل.. فجلسنا في رواق طويل، قرب بعض الراهبات اللواتي رحن ينسجن البسط، وزرابي الصوف الشبيهة بالسجاد. تبادلت والراهب الجديد، واسمه ميخائيل خوري، الأحاديث حول الأخبار، والأحداث، وسألته عن جولة الراهب عيسى الأسعد، وذهابه إلى طبريا، فأخبرني أن بعض اليهود أشعلوا النار في حي من أحياء طبريا لكي يخوّفوا السكان فيتركوا بيوتهم! وقد كانت خسائر السكان كبيرة. وأن بعض الأطفال والعجزة أصيبوا بالحرق! وقال لي إن اليهود يدّعون أن طبريا لهم، وهم أحق بها من سكانها، فهم ينشرون دعايات بين الناس تقول إنهم كانوا الذراع الأساسي لصلاح الدين الأيوبي في محاربته للفرنجة، وإنه لولاهم لما انتصر على الفرنجة في معركة حطين! وأسأل الراهب ميخائيل، «وهل هذا.. حقيقة«؟! فيقول بانفعال واضح: «أبداً، إنهم يكذبون. لم يكن منهم مع صلاح الدين سوى طبيب! لم يكن معه منهم أي مقاتل. والتاريخ يقول لنا إن اليهود لم يشتركوا في معركة لصالح غيرهم، دائماً كانت معاركهم لصالحهم هم وحدهم«! وطال الحديث بيني وبين الراهب ميخائيل حول طبريا ومكانتها الجغرافية، والتاريخية والدينية، لهذا لم يتسنَ ليَ أن أطرح عليه أقوال اليهودي جدعون حول المسيح، والقدس، والمسجد الأقصى، وبناء الهيكل.. لأن الوقت تأخر، فعدت أدراجي إلى القرية، بعد أن أوصيته أن يبلّغ السلام للراهب عيسى الأسعد! وبينما أنا في طريقي إلى بوابة الدير، صادفتني الراهبة نجّوم، زوجة مثقال، ففرحت لرؤيتها، كانت لا تزال جسيمة، وذات مهابة على الرغم من تقدمها في السن! سألتها عن صحتها، فقالت إنها بخير، وسألتني عن دندي،

والأولاد.. فقلتُ إنهم بخير! وسألتها إن كانت ما تزال تذهب إلى الوادي لتزور قبر مثقال. فتهزّ رأسها بالإيجاب، وأرى دموعها تتلامع في عينيها، فأتأسف لها لأنني أثرت مواجعها! فترفع رأسها، وتقول: «كنت أتمنى لو أنه ظلَّ حيّاً.. ليظلَّ سيداً للوادي، فلا يتجاسر الإنكليز أو اليهود من الاقتراب منه»! وأراها تنسل من أمامي محنية الظهر، لا شيء يعدل قامتها سوى الماضي الذي ذهب!!

الحاشية الأولى

كانت الشماصنة على انتظار قلق للمولود الأربعين، من أجل إتمام حفلة الختان الجماعية! هذه العادة التي توارثتها القرية منذ مئات السنين، فالأهالي ينتظرون حتى يصير عدد الذكور أربعين مولوداً، وعندئذٍ، يقومون بجمعهم جميعاً، وإجراء عملية الختان. فينصبون الخيام على البيادر، ويوقدون النار، ويذبحون الذبائح، والنساء يغنين، ويهزجن، والرجال يستقبلون ضيوفهم القادمين من القرى والمدن القريبة! وأصوات أجران القهوة تتعالى منذ الصباح، وكأنها الغداء الأزلي الذي يدعو الناس لكي يجتمعوا على المحبة، والفرح، والسرور!

كان الأهالي مقتنعين أن مجيء المولود الذكر الأربعين، وإجراء عملية الختان الجماعية للمواليد الأربعين سيحمي القرية من الشرور والأذى مدة أربعين سنة قادمة!

كان الأهالي متلهفين لقدوم المولود الأربعين بعدما كثرت حوادث القتل، والتفجير، والحرائق، والمواجهات الدامية مع اليهود والإنكليز، لكن المولود.. لم يأت!

الحاشية الثانية

لم يحتفل الأهالي بانتهاء موسم البيادر!

انتهى الموسم، بلا أفراح، بلا (جورعة)، بلا أعطيات للأطفال. والنساء لم يصنعن الزلابيا، ولا اللزاقيات.. في موسم كثير الغلال مثل هذا الموسم؛ تُخرج النساء عادةً صاجات الخبز، فتُحمل أغمار القنب إليها، وبقربها تتوازع النساء العمل، تُوقد النيران تحت الصاجات.. وتشرع النساء بعجن الطحين، وتذويب السمن، وغلي السكر الأحمر بالماء، وخبز الأرغفة العريضة. يسيل العجين فوق الصاجات مثل اندفاعات الشمع المذاب، وما إن تنضج الأرغفة.. حتى تقوم النساء بترتيب الأرغفة فوق صواني النحاس الواسعة.. رغيفاً رغيفاً، وفوق كل منها يصبُّ السمن المذاب، والسكر المغلي، ثم تقطع الأرغفة إلى مثلثات، وعندئذٍ تقوم الصبايا بالطواف على الناس، يقدّمن لهم اللزاقيات المشبعة بالسكر، والسمن.. كما يطوف الأطفال على الجميع بصواني الزلابيا.. ومن ثم يقدّم منقوع الخروب الساخن!

في هذا الموسم.. لا يوجد شيء من هذا أبداً، لأن أهالي القرية حزانى.. بسبب موت عبد الله الداهوك حارس البيادر، الذي وجدوه مقتولاً بثلاث رصاصات، واحدة في رأسه، واثنتان في صدره.. كان ملقى على وجهه قرب البيادر، وكأنه نائم.. وشوهدت على مبعدة منه آثار عجلات سيارة، ولم يُعرف قاتله، لكن الشكّ حام حول الكبانيات!

الحاشية الثالثة

قوافل الغجر لم تأت إلى القرية في هذا الصيف أيضاً! ونساء القرية لم ينسلن سيقان سنابل القمح ليصنعن منها الأطباق الملونة، والمغمقانات، والكواير، والطاسات الصغيرة، لكأن الناس في حالة ذهول وترقب لأمور ستأتي هي خارج المألوف والمنتظر!

عادة، تأتي قوافل الغجر، فتمر بالقرى في أيام البيادر، فتقوم النساء الغجريات بوشم الصبايا، والذكور، وبتلبيس الأسنان بالذهب، بينما يقوم الرجال بتبييض أواني النحاس!

يهـبط الغجـر إلــى القريــة، فينزلــون قــرب البيــادر، يـشعلون النــار، ويطوفون ببيوت القرية في قرع الـدفوف، وعـزف علـى الربـاب.. يغنـون أغنيـة المباركـة بالموسـم الجديـد، ويعلنـون أن أهـل الـذهب، والنحـاس، والوشـم.. قـد وصــلوا. يــدورون في القريــة دورة كاملــة ثم يعــودون إلــى البيــادر.. وهنــاك يباشـرون عملهـم، حيـث يحـيط بهـم أطفـال القريـة.. أولاً، ثم تـأتي النـساء، والـصبايا.. وهنـاك تبـدأ طقـوس الوشـم، وتلبـيس الأسـنان بالـذهب، وثقـب الأنـوف والأذن. كمـا تبـدأ طقـوس التنجـيم بـالودع، والرمـل، والمنـدل، وقـراءة الكف!!

وفي الجوار يقوم الرجال بتبييض الأواني النحاسية التي كوّمت أمـامهم متداخلة.. وذلك لأن كل أسـرة لهـا نقشها الخـاص علـى أوانـي النحـاس! كـان رجال الغجر يعملون.. وهم يغنون:

انفخ في الكير وحمِ النار
وخلِ الجار ينادي الجار
اسعد يا خيّي وعز الدار
بضيفك لو إجا.. لو زار

*   *   *

الخروج من الشماصنة..!!

لكأن ما يحدث... يحدث في الحلم!

معارك هنا في مرج بني عامر، وفي منطقة صفد، والناصرة، وجنين، وأخرى هناك في رام الله، واللّد، والقدس، وغزة! جيوش عربية، ومتطوعون، انتصارات، وهزائم، وأوامر بوقف إطلاق النار. قيادات عربية تجتمع في القدس، والشام، وبيروت، والقاهرة، وعمّان، وبغداد، وجدّة، نداءات شعبية مخنوقة بالبكاء.. تطالب بعدم تسليم البلاد لليهود!

الآن لا كتب بيض ولا سود، الآن مشاريع لقسمة الأرض، والحضارة، والتاريخ، والمدن، والمياه ما بين أهل البلاد، واليهود الذين تقاطروا إلى البلاد بمئات الألوف من بولونيا، وهنغاريا، وألمانيا، وأوروبا؛ أمريكا تدخل إلى البلاد بقوة غير عادية، قوة مستمدة من قوتها بعد قطفها لانتصارات الحرب العالمية التي انتهت بانتحار هتلر، وهزيمة ألمانيا، وظفر الحلفاء ومن والاهم.. برأس العالم! بدت أمريكا وكأنها بائعة توابيت لدول العالم التي تحاربت حتى الانطفاء الأخير. اليهود نقلوا مراكز قوتهم من المدن الإنكليزية والأوربية إلى أمريكا! فقامت أمريكا وتقدمت صفوف المدافعين عن اليهود، والمنقذين لهم من شرور الحرب، فساندتهم في البلاد، والأمم المتحدة، وفي أوربا. أسكنتهم في البلاد؛ واستصدرت قرارات الأمم المتحدة لصالحهم؛ ونقلتهم من أوربا إلى هنا! الإنكليز راحوا يسلمون معسكراتهم، وأسلحتهم، والطرق، والمرافئ، والخرائط، والوثائق، والمعلومات.. لليهود. كما راحوا

يغضون الطرف عن أعمال اليهود ضد جنودهم ومواقعهم.. فتبدو أمام الجميع أن القوات الإنكليزية تنهزم أمام قوة اليهود وضرباتهم المتتالية!

أخبار موجعة عن خروج الكثير من أبناء يافا إلى محيطها؛ إلى ريفها؛ إلى القرب من قطاع غزة، وقد تتالت هجمات اليهود المكثفة هناك، وأخبار عن إغلاق مرفأ حيفا، وشل الحركة في مدينة عكا.. فلا أحد فيها يعمل، الجميع يلزمون بيوتهم، بواخر عديدة جاءت إلى عكا وفيها الآلاف من اليهود. أحد المحامين المسيحيين في مدينة عكا وُجد مقتولاً في مكتبه، وقد امتُصَّ دمه مصّاً! كبانيات جديدة لليهود تنتشر في منطقة الجليل، يتخيّر أفرادها الأمكنة العالية. حرائق تلتهم مساجد عدة في مدينة القدس، والأهالي هناك يطفئون النيران بأجسادهم، كثيرون منهم احترقوا، وفي الناصرة حريق هائل يشبّ في الكنيسة يأتي على مفروشات الكنيسة، وهيكلها، وعلى الأيقونات، ويموت فيه ثلاثة من رجال الكنيسة، جامع الجزار في عكا يتعرض للتفجير بالقنابل اليهودية، فلاحون يُقتلون على طرق قرى الجليل الأعلى ما بين الخالصة، والصالحية، والدوارة، والزوق الفوقا، والناعمة، بدو النقب يتعرضون لقصف من الطائرات الإنكليزية. مئات من رؤوس الماشية تنفق، آبار تُردم، وذلك لأن البدو يساعدون الثوار، وينقلون الأسلحة إليهم! بدو الناصرة يُهجّرون إلى الشمال بقوة السلاح.. هجرات، وتحرك للناس أشبه بتحرك كثبان الرمل...، وفرار من النار والقتل.. جميعها تحدث في الكثير من أنحاء البلاد! في رام الله حريق يلتهم مبنى البلدية، وفي القدس عشرات المسارح، والمقاهي، ودور السينما تُحرق بالقنابل اليهودية!

لا حديث للناس الآن.. سوى الموت، والهزائم، والهجرة، وحالات وقف إطلاق النار.. وامتداد اليهود نحو مساحات شاسعة من الأراضي، وسيطرتهم على الكثير من البيوت، والأحياء.. والمناطق.

لا حديث سوى الحديث عن بطولات فردية هنا وهناك! أخبار عن خيانات الجيوش العربية، انسحابها من مناطق، واحتلال اليهود لها، غلوب

باشا الإنكليزي يقود الجيش العربي كما يريد هو لا كما يريد العرب، لا أوامر عند الجيش العراقي، أسلحة مصرية فاسدة، قيادات فلسطينية من ألمانيا، والعراق، والشام، ومصر، والسعودية تناشد العرب بحماية البلاد، وإنقاذ القدس، والمسجد الأقصى.

لا حياة الآن سوى حياة الحرب والخوف، ولا هواء سوى هواء البارود، ولا روائح سوى روائح اللحم البشري المحترق!

الحاشية الأولى

استشهد عبد القادر الحسيني، في القسطل المتاخمة للقدس، فسقط الجزء الغربي من القدس بأيدي اليهود، مات وهو يقاوم! لم ينسحب على الرغم من إلحاح رفاقه عليه لكي ينسحب لأن الموقع صار ساقطاً عسكرياً.. إلا أنه لم يغادره إلا شهيداً. كان عائداً من الشام، من اجتماع مع القيادة العسكرية العليا. طلب أسلحة وإمدادات، فقال له الضابط العراقي الذي هو رئيس اللجنة لا توجد مساعدات ولا قدرة له على الإمدادات، فقال الحسيني إذن لينتظروا سقوط القدس، وعليهم أن يتحملوا المسؤولية أمام التاريخ! وغادرهم الحسيني عائداً إلى القدس عن طريق جسر بنات يعقوب، والتحق بالثوار في منطقة القسطل، واستشهد فيها.. بعد جولان طويل في العراق، والسعودية، وليبيا، والشام، ومصر، وألمانيا.. انخرط في العديد من دورات صنع المتفجرات والألغام، وقد قيل إنه كان يرشي خفر الحدود في البلاد العربية لكي يسمحوا له بإدخال الألغام والمتفجرات إلى البلاد. كان يصنعها في ليبيا، ويهرّبها إلى الصحراء الغربية في مصر، ثم إلى صحراء سيناء، فالعريش،.. فالبلاد!

استشهاد الحسيني، واحتلال الجزء الغربي من القدس كان يعني موت النصف الأول من قلب البلاد! فما عاد غريباً أن ترى الخلق منتشرين في الدروب، والطرق طالبين النجاة بأرواحهم، وأرواح أولادهم.. قرى ومدن

احتضنت قرىً ومدناً أخرى وواستها، أحزان جديدة أضيفت إلى أحزان عتيقة، فشبّت حرائق القلوب.. وعلت!

الحاشية الثانية

بكت دندي، وأبكتني!

قالت لي: «غربة جديدة سنعيشها يا شتيوي»! كانت تبكي الأرض الشاسعة التي اشتريتها، والمحاصيل الوفيرة التي امتلأت بها الحقول، والمعاصر الثلاث والطاحونة التي صارت من أملاكي بعد أن اشتريتها محروقة، فأعدت بناءها وتجديدها!

طلبت مني أن أجمع ديوني! فبكيت.. لأنني كنت أخجل من أن أُطالب الناس بها! فمحاصيلهم لم يحصدوها، وظروفهم الصعبة أعرفها جيداً! أصارحها بذلك، فتقول لي: «استعد إذن، للغربة الجديدة يا شتيوي»!

الحاشية الثالثة

القوات العربية، دخلت إلى الشماصنة، طلب قادتها من الأهالي أن يخرجوا إلى جسر بنات يعقوب، أن يقطعوا النهر باتجاه الأراضي السورية كي لا يكونوا على مرمى النيران اليهودية! فرفض الأهالي. قالوا لهم إن الخروج عيب، وإنهم ليسوا أحسن من الجنود، وأرواحهم ليست أغلى من أرواحهم! فقال القادة، لكن الأطفال والنساء والعجزة!! فقال الأهالي لا يوجد أحد أحسن من أحد. كانت اجتماعاتهم بالناس في المسجد، عند الشيخ عبد الكريم الأسود، الذي أجمل القول لقادة القوة العربية بأن بقاء الناس في القرية هو جزء من صمود هذه القوة وبقائها! فبقي الناس ولكن ليس لوقت طويل، فقد خرجت القوة العربية، وأعادت تمركزها بالقرب من نهر الأردن، إلى الجنوب من قصر عطرة! فتقدمت قوات اليهود باتجاه القرية.. ليلاً! المقاومة الشعبية البسيطة في القرية لم تستمر طويلاً أمام

القـوة المتعاظمـة لليهـود، رشـاش وحيـد كانـت تمتلكـه القريـة وبـضع بنـادق، الرشـاش، وضـعه سـعيد العيـد فـوق بيتـه، وأحاطـه بالحجـارة البازلتيـة، كـان الرشـاش وحـده كفـيلاً بـرد أي قـوة تريـد الـدخول إلـى القريـة، ذلـك لأن بيـت سـعيد العيـد يطـلّ علـى مـدخل القريـة مباشـرة. كـان يقـول مـادام الرشـاش موجـوداً، والـذخيرة موجـودة.. لا خبـز لليهـود في القريـة!! لكـن مـا حـدث أن الرشاش ظلَّ موجوداً، والـذخيرة موجـودة أيضاً.. ومـع ذلـك دخـل اليهـود إلـى القريـة واحتلوهـا.. حـدث ذلـك حـين قامـت إحـدى طـائرات الإنكليـز بقـصف بيت سعيد العيد، والرشاش..فدُمر البيت مـع البيـوت المجـاورة لـه، واستشهد سعيد العيد!

جمـع اليهـود أفـراد القريـة في الـساحة العامـة، أجلسوهم علـى الأرض، وأحـاط بهـم المـسلحون. لـم يكـن يُـسمع سـوى صـريخ الأطفـال، والهمهمـات الحزينـة. وبعـد سـاعة أو أكثـر جـاءت سـيارات عـسكرية كبيـرة، سـيارات إنكليزيـة.. وشـرعت بإرغـام النـاس علـى الركـوب فيهـا، كـان الأهـالي، يعـودون إلـى البيـوت يأخـذون أغراضـهم وحيوانـاتهم ثم يرجعـون إلـى الـسيارات فيركبون فيها.. ولم يمض الليل.. إلا وكان أهالي القرية، في الطرف الشرقي مـن جـسر بنـات يعقـوب! كـانوا أشـبه بالنفايـات، حُمّلـوا وأولادهـم وبنـاتهم وحيوانـاتهم في الـسيارات.. وفـوق الجـسر حطـوا الرحـال.. وهـم في حالـة كابوس، أو غيبوبة، أو كارثة!

تذييل أول وأخير

في الليل لم يكن من رفيق لهم في رحلتهم المعتمة سوى حفيف القصب الذي أحاط بالنهر.. حفيف راح يتعالى ويشتدّ.. كلما اقتربوا من جسر بنات يعقـوب..، وحـين تخطّـوا الجـسر.. وأصـبحوا في الطـرف الـشرقي.. صـار الحفيف أنيناً لقصب يبكي، في ليل طويل حزين، بشراً أحبهم، وأحبوه!

* * *

على الطرف الشرقي.. من النهر!!

أرواح حائرة، تائهة.. تحطُّ في محيط البلاد، لا شيء يصدر عنها سوى البكاء، والتأسي. ولا شيء يفصل بين المكان الذي نحن فيه الآن وأرضنا سوى النهر! لم نتمكن من السكن إلى جوار النهر تماماً، لذلك سكنا في قرية نعران، القريبة من منطقة الكمرك، القريبة من قرية جليبية المحاذية للنهر مباشرة. قرب النهر تقع أرض الغابة، وهي ليست أرضاً مشجرة وإن كان اسمها غابة؛ أرض خصبة جداً، استأجرتُ قسماً كبيراً منها، ورحت أزرعها في موسمين دوارين طوال العام، في الموسم الشتوي أزرع القمح، والشعير، والعدس، والحمص، والكرسنة، وفي الصيف أزرع الكوسا، والبندورة، والخيار، والبازيلاء، والفاصولياء، والبطيخ، والذرة الصفراء، والفستق السوداني، والفجل، والبصل، والباذنجان، والباميا.. كانت الأرض تعطي غلالاً طيبةً جداً، لعلها أرادت أن تعوض خسائري عما فقدته في الشماصنة!

من ضفة النهر الشرقية، ومن فوق المرتفع المطل على الشماصنة! كنتُ أرى جسر بنات يعقوب الذي تحيط به أشجار التوت، وأجمات القصب، وأعواد الحلفا والبربير والسعد، وأشجار البطم الضخمة، الخرافية الشكل.. ومن خلف الجسر كان يظهر لي واضحاً مزار أبو الريش، وقصر عطرة، وتبدو الشماصنة، بيوتها واضحة، والطريق إليها واضحة.. لعلها تنتظر إيابنا الذي طال! هدّني الحزن وأنا أرى الأرض، والشماصنة يومياً، في البداية لم

ألحظ أن أحداً من اليهود يأتي إلى القرية، لكن في هذه الأيام ألحظ العديد من الفلاحين اليهود، يفلحون الأرض؛ أرى من بعيد جراراً يهودياً صغيراً يفلح في أرضي، أراه يدور حول سدرة خديجة، هكذا كنا نسميها! أرى الجرار يدور حول السدرة التي كنت أجلس أنا وأولادي، ودندي تحتها. كانت دندي تأتي إلينا ومعها زوادة النهار.. خبز، وزيتون، وسمن، وبرغل، وبيض، وقربة شنينة! الآن الجرار اليهودي الصغير يدور حول السدرة وكأنه ذئب، أتخوّف من أن تضرب سككه جذورها، لون الجرار أصفر، والشوك المحيط بالأرض أصفر، لذلك أتساءل هل نحن في الزمن الأصفر؟! وأظل أراقب الجرار، لعل السدرة تنجو من مراودته، فلا أفلتهما من بصري إلا عندما يذهب الجرار، ويغيب بين التلال! لحظتئذٍ أعبُّ نفساً طويلاً، وأستنشق كمية من النشوق، فأعطس طالباً الفرج من صاحب الفرج!

الحاشية الأولى

أحسست، ومنذ اليوم الأول لخروجي من الشماصنة، أن خيط الحياة انقطع؛ أو قل إن خيط السعادة انقطع؛ فالروح تدور في حزنها مثل الجاروشة. أموت في النهار ألف ميتة، وأنا أرى أرضي تُفلح، وتزرع، فتسرق غلالها، وأنا أرى أكياس البطاطا، والبصل، والبامياء، والفاصولياء، وسحاحير البندورة، والخيار، والباذنجان.. تملأ الحقول، فأحاورها وأتشبه بها، أزرع الأرض التي استأجرتها من الفلاحين السوريين.. أدعوها أن تنهض، أن تُنعم عليَّ، أن تسعفني بالخير، أن تعوض عليَّ خساراتي الكثيرة، أن تضاهي أرضي في الطرف الغربي من النهر، فتستجيب إليَّ، فتأتي السيارات الشاحنة من القنيطرة، تأخذ غلال المواسم إلى حسبة القنيطرة فأبيعها هناك، وأعود بالربح الوفير. كنت أحسّ بأنني سأموت حين سأنقطع عن رؤية الشماصنة، والأرض؛ كانت دائماً قبالتي في كل صباحاتي وكأنها مرآة أرى فيها نفسي ويومي! ولكم آلمني، حين رأيت بلدوزرات اليهود تهدم

بيوتها بيتاً بيتاً، ثم تسيّجها بشريط شائك لكأنها صندوق يُعدّ من أجل إلقائه في مكب للقمامة!

الآن، تغدو بيوت الشماصنة بلا دفء، بلا إلفة، بلا اجتماع.. إنها الآن أشبه برجم من الحجارة الخربة!

الحاشية الثانية

حوارات طويلة، ويومية.. كانت تدور بيني وبين ضباط وجنود الجيش السوري. كانوا يحسّون بألمي وحزني وأنا أراقب الأرض والقرية، فيواسونني.. وكنت أسألهم أما من حركة، أو هبّة، أو محاولة لاستعادة البلاد، فيقولون.. لا ندري، لكن لابدّ من هذا! ضابط مسيحي تعرفت إليه، اسمه الياس الحاج، كان وديعاً رائعاً على الدوام، كان يسألني عن القدس باستمرار، فيطلب مني أن أصفها له، كما يطلب مني أن أحدثه عن الشماصنة، والعيش المشترك ما بين المسيحيين والمسلمين. كنت أحس أنه يواسيني بالاستماع إليَّ، يريدني أن أتحدث عن أحزاني، عن الماضي.. كي لا أختنق. هذا الضابط هو الذي رفض أن يأكل من لحم الخنزير الذي اصطدته في حقل الذرة. قال لي أنا في وسط مسلم وعليَّ أن أحترم هذا الوسط. قلت ما العمل؟! قال نرمي به في النهر! فرميناه فعلاً. ذلك الخنزير كان قد أقض مضجعي وأنا أحرس حقول الخضار في الصيف، يأتي إلى الذرة، فيأكل العرانيس، ويخربها، ثم يمر بحقل البطيخ.. فينهش من كل بطيخة قطعة فيفسد الحقل.. خلال ساعة أو أقل.

الحاشية الثالثة

بعد حوالي عشر سنوات من خروجنا من الشماصنة قدرتُ على أن أزوج كعدي، فكان عرسه أول فرح لنا على الأراضي السورية. زوّجته من شابة يتيمة اسمها فتنه، أبوها استشهد في حرب فلسطين، وقلت له عليه أن

يشدّ من عزيمته ويأتي لنا بشتيوي الصغير، أو دندي الصغيرة! كعدي هذا لم يأخذ من صفاتي شيئاً، كان شبيهاً بأمه، لم يرث مني سوى لوثة الغياب، كان مفتوناً بالغياب. أردت أن أبقيه لصيقاً بالأرض، إلا أنه ما كان يطيق المواسم الطويلة، والانتظارات الطويلة، كان كثير التردد على القنيطرة ليعمل فيها!

تذييل أول وأخير

قرب قرية نعران، وفي الجهة الشرقية منها تقع ثكنة عسكرية كبيرة، فيها مرابض لمدفعية ميدان ثقيلة! كانت المدافع حين تطلق القذائف نحو الجبهة تهزّ الأرض من تحتنا.. فتدخلنا في أجواء الحرب مباشرة.

في شهر نيسان من منتصف الستينيات، هاجمنا الطيران الإسرائيلي بضراوة بالغة، هاجم ثكنة المدفعية، كما هاجم البيوت. كانت الطائرات الإسرائيلية أشبه بالطيور السود تنقضّ على كل شيء.. على الأرض، والمواقع، والتلال، والبيوت، والحقول العامرة بالمواسم. تنقضّ على الأرض بطريقة مرعبة ثمّ تتصاعد ببطء شديد إلى السماء، وقد رمت قنابلها السود التي تخلف وراءها ألسنة اللهب الطويلة، والدمار، والبكاء، والخراب، والموت. كنا ننظر إليها من شباك الدار، أنا، ودندي، وكعدي، وابنه الصغير شتيوي، وابنته حنين، وزوجته فتنه. فتنه التي كانت تصرخ بي راجية ألا أخرج رأسي من الشباك كي لا تراني الطائرات.. فتقصف البيت. كانت الطائرات تقصف الثكنة، وتقصف البيوت أيضاً وقد رأت أن سقوفها من التوتياء، فتصير أمامها أشبه بالمرايا العاكسة لأشعة الشمس. ربما ظنّ الطيارون الإسرائيليون أن بيوتنا بيوتٌ خاصة بالمستودعات أو الشؤون العسكرية، لذلك كانوا يقصفونها بلا رحمة. مع أن البيوت واضحة، ومرابض المدفعية واضحة أيضاً، غير أن الطائرات الإسرائيلية وقنابلها لا تفرّق بين مربض يلتف حول مدفع وذخيرة، وبين بيت يلتفُّ حول أم وأطفالها.

كان كعدي وأخته حنين يلوذان بي، لعلهما أحسّا بأنني أنا الوحيد الذي لم أخف من الطائرات لأنني كنت أبتسم، بينما دندي وأمهم تبكيان، وكعدي صامت لا نقطة دم واحدة في وجهه. كان الجميع محقين، فقنبلة واحدة وتجعل من الغرفة التي جمعتنا قبراً واحداً يتسع لنا جميعاً! كانت المدفعية المضادة للطيران تطارد الطائرات الإسرائيلية وتفسد عليها تخيرها للأهداف. بدت لي دندي وكأنها في حالة غياب، بينما رأيت فتنه تتمتم وتستجير بالرب والأولياء الصالحين.. لكي تنجو. فجأة انشق باب الدار بقوة هائلة، صار نصفين، حطاماً على الأرض، وهلعنا جميعاً، وندّت عنا صرخات الغريزة، ونظرنا نحو الباب! لم يكن ما حدث بفعل قنبلة أو صاروخ، وإنما بفعل ثور من ثيراني. لقد جاء الثور عائداً إلى البيت بعد أن شرد قطيع البقر من الراعي، ودفع الباب بعنف شديد طلباً للنجاة، ولم يدخل الثور إلى الغرفة التي اجتمعنا فيها جميعاً، وقد التففنا حول بعضنا كعش النحل، لأنه خرَّ مرتمياً فوق الباب الذي حطمه، واقتربنا منه؛ اقتربتُ منه بشكل عفوي، فتقدموا نحوي، ورأينا جرحاً بليغاً أُصيب به الثور في ظهره يكاد يشقه إلى نصفين؛ خرّ الثور أمامنا في استسلام عجيب، وضربت كفّاً بكف.. فالثور يمضي. جثوت أمامه، ورحت أمسح براحة يدي على جرحه، كان ساخناً جداً، لكن ما الفائدة؟! فالثور وخلال لحظات فقط.. نفق! لم أصدق حقيقة أنه مات لأن عينيه الكبيرتين ظلّتا مفتوحتين تنظران إليَّ مباشرة، لكن جسده همد، وهكذا صار عددنا في الغرفة أكثر بعدما صار الثور معنا، وحزننا صار أكبر وقد مات الثور.. أظن أن دندي لاحظت شحوب وجهي، ودمعي الذي راح يجول في عينيَّ، وإلا لما أخذتني إلى صدرها.. لكأنها تعزيني بفقده، فعلاً كان الثور فقداً عظيماً.. لا يعرف معنى الخسارة سوى الفلاحين، ولم أدر كيف انفجر الجميع بالبكاء!

في ذلك اليوم عرفنا، أن الحرب وقعت من جديد، يا إلهي لكأننا على موعد معها كل عشر سنوات، قد تزيد سنة أو تنقص سنة، لكأنها كتابة أزلية

علينا، لكأنها قدر. حين قامت الحرب، كان علينا أن نتدبر متطلبات رجال المدفعية، كانوا بحاجة إلى الرقع، وبعض الثياب القديمة من أجل تنظيف سبطانات المدافع، ومن أجل أن تحمي أيديهم من حرارة حديدها. هبّ أهالي قرية نعران جميعاً لنجدتهم. جمعتُ الرقع، والثياب، وأكياس الخيش، وأخذت إليهم في مشهد يعني تواصل الحياة، الصغار والكبار.. مضوا إلى ثكنة المدفعية، وقامت النساء، أمهات وجدّات وصبايا، إلى كواير الطحين، وشرعن بالعجن، ثم أوقدن النيران تحت الصاجات، وبدأن يخبزن للجنود. كان الصغار يحملون الثياب، والرقع إلى الجنود، والكبار يحملون الماء، واللبن، والزبدة، والخبز، والبيض إليهم أيضاً. بدت البيوت في حالة انشغال تام بتأمين كل ما يحتاج إليه الجنود، وفي لحظة واحدة صارت القرية بصغارها وكبارها داخل ثكنة المدفعية الواسعة الأمداء!

* * *

الأخرس شامان..!!

لعلها الأقدار وحدها،

هي التي ساقت كعدي، وأمه دندي، وزوجته وأولاده للسكن لدى رجل أخرس، في قرية ببيلا، اسمه شامان!

كان الرجل أشبه بالوحش، أخرس، ووحيداً، ولا رفيق له سوى كلب أسود وضخم جداً، له أذنان كأنهما كفان! يعمل طوال النهار في جمع الأحذية العتيقة، والزجاج المكسور، والكاوتشوك، والعظام، وقطع البلاستيك، والألمنيوم، والنحاس، والخشب، والحديد، والخبز اليابس.. كان يعيش في بيت مؤلف من ثلاث غرف، واحدة ينام فيها، وقد أحاطت به أكوام من قطع الألمنيوم والنحاس والبلاستيك.. والخشب، بينما أكوام الزجاج المكسور تتعالى كالبيدر داخل الغرفة الثانية، وبقربها أكوام من الخبز اليابس، في حين كانت أكوام العظام والأحذية العتيقة، وقطع الحديد تتعالى ما بين الغرفتين تحت رواق طويل من التوتياء، لا شيء يتحرك أو يجول هنا، في أثناء غياب الأخرس، سوى الجرذان الشبيهة بالقطط.. حجماً وحذراً! أما الغرفة المقابلة، ويبدو أنها أعدت أصلاً لكي تكون مطبخاً، فكانت من نصيب كعدي، وأمه دندي، وزوجته وأولاده. غرفة ليست بالكبيرة أو الصغيرة، غرفة تتسع لهم فقط. وقد وصلوا إلى ببيلا - وهي قرية من أعمال دمشق - من دون أغراض، من دون فراش أو لحف أو بطانيات. هيئة الإغاثة التي راحت تشرف على شؤون الخارجين من الجولان.. هي التي أعطتهم البطانيات،

والخبـز، وعلـب اللحمـة، والـسردين، وبعـض قنـاني الزيـت، وأكيـاس الحمـص، والفول، والطحين. وكعدي هـو الـذي اشـترى لهـم بعـض الـصحون، والملاعـق.. وأغراض الطبخ! في البداية كانت هيئة الإغاثة توزع عليهم الخبـز، ثم صـارت توزع عليهم الطحين لكي يصنعوا منه الخبز بأنفسهم، كما جاءتهم بأنواع مـن الـسمنة، والجبنــة، والثيـاب، والأحذيــة! داخـل هــذه الغرفــة، عاشــت زوجــة كعدي، وأمه دنـدي، وأولاده، بينمـا عـاش إخـوة كعـدي في مكـان آخـر مـن قريـة ببيلا، سكنوا مع آخرين، في غرف متقابلة كانت معدة لتكون محـلات تجاريـة، يملكها رجل من بيت الناشدي!

لقـد اتفـق كعـدي مـع الأخـرس أن يعطيـه خمـس ليـرات سـورية كـأجر شهري للغرفة، وطلب منه أن ينتبـه لـلأولاد، وزوجتـه، وأمـه. أن يكـون حارسـاً، ورجلاً، وصديقاً.. يحـامي عـنهم، ويـسهر علـى راحتـهم.. لأن كعـدي فـدائي، لا يدري متى يعود! كان الأخرس شامان يشير إليه بمودة ولطـف، ولكـن مـن دون ابتسام، أنه سيضع أولاده في عينيه، وعليه ألا يخاف عليهم، فمادامـوا عنـده.. لا يقلق أبداً!

الجميع، أمه، وزوجته، وأولاده عششوا في الغرفة مثل الطيور؛ عششوا مـع الحـزن، وقـد ذهـب كعـدي، بعـد أن نظَّـم بطاقـة الإعاشـة التـي يأخـذون بموجبها الجعالات الشهرية في مواعيدها، وأعطى زوجته ما جمعه مـن المـال، وطلـب منهـا أن تنتبـه لأمـه، ولـلأولاد لأنـه قلـق علـى والـده، شـتيوي، يريـد أن يستعجل العودة إلى الجولان ليراه، لعله يفلح في إنقاذه والعودة به!

لقـد عـرف كعـدي منهم أن والـده رفض الخـروج مـن قريـة نعـران، وأنـه ظلَّ وحيداً في القرية، فطـار عقلـه! لـم يحتمـل فكـرة أن يظـل والـده وحيـداً في القرية فريسة لليهود، والوحوش، والغرباء. لاشـك أن ألـف طـامع سـيطمع بـه، إن لـم يقتلـه اليهـود، سـيقتله الغربـاء، أو ربمـا تقتلـه الوحـوش، وإن نجـا مـن هـؤلاء.. سـتقتله الغربـة، سـيقتله الحـزن، وهـو الـذي أمـضى عمـره غريبـاً.. وحزيناً في آن معاً!

إنه يعود.. ولا شيء يرنّ في أذنيه سوى قول أمه دندي، أن يذهب إلى نعران، بأي طريقة، مع أي كان، لكي يرى شتيوي.. ويعود به. إن كانت الطرق أو الدروب مغلقة، لا توصل إلى نعران، عليه أن يشق طريقاً أو درباً يصل من خلالهما إلى أبيه! لأنها تحس بأن شتيوي سيموت في القرية، بقي فيها لكي يموت هناك.. بعيداً عنها، بعيداً عنهم! لهذا.. لم يكن أمامه سوى هدف واحد.. الوصول إلى نعران، ورؤية شتيوي، والعودة به!!

الحاشية الأولى

كان كعدي قد ترك نعران، وذهب إلى بصرى الشام، وهي من أعمال حوران، ليعمل في أحد المشاريع العمرانية هناك. ترك القرية قبل احتلال الجولان بحوالي سنة. عمل ثلاثة شهور تقريباً، فما ارتاح للعمل، كان الأجر قليلاً، والحياة صعبة، ورفقة الآخرين لا حنان فيها ولا مودة، ومما زاد الأمر سوءاً أن المشروع الذي عمل فيه كعدي.. كان قريباً من طرق المهربين الذين يجعلون من الليل خطراً حقيقياً لاسيما حين يشتبكون بالسلاح مع قوات الدرك.. لهذا كله.. ترك كعدي المشروع والتحق بالعمل الفدائي. فاتحه بالأمر صديق له من قرية العوينات القريبة من قرية نعران، اسمه عطية المرشود، حدثه عن معسكرات الفدائيين، وحياة العز التي يعيشونها، وأن الفدائية هي الطريق الوحيدة التي تجعله يعود إلى نعران.. فيرى والده! حين أدرك كعدي ما يعنيه عطية المرشود، وأن ترْك العمل في المشروع، والالتحاق بالفدائية يعنيان رؤية والده، سأله إن كان يود مرافقته! فردّ بالإيجاب! إنها أمنيته ليتخلص من قرف الباطون، والرمل، والغبار! فمضى الاثنان إلى معكسر للفدائيين، يقع في منطقة القابون، والتحقا بالدورة، ثلاثة شهور أخرى مرّت عليهما لم تكن أقل مشقة وتعباً وشكوى من الشهور الثلاثة التي عرفاها في مشروع بصرى الشام، لكن ما إن انتهت الدورات حتى راقت الحياة لهما. فالتحقا بالقواعد الفدائية؛ وقد كانت قاعدتهما موجودة داخل

غوطة دمشق! ولم تمض سوى خمسة شهور أو ستة، حتى حدث احتلال الجولان! فطُرد الناس قسراً باتجاه الشام! كعدي، وعطية المرشود، أخذا إجازة ونزلا إلى مدينة دمشق، وذهبا مباشرة إلى مدينة المعرض حيث حطّ معظم الناس القادمين من الجولان رحالهم فيها. بحثوا عن أهلهما، فلم يجدا أحداً،وعلما أن قسماً من الناس الذين خرجوا.. سكنوا في المدارس، فمضى الاثنان في رحلة بحث استمرت يومين.. إلى أن وجدا أهليهما في إحدى مدارس مخيم اليرموك التابعة لوكالة الغوث الدولية. عطية المرشود أخذ أهله إلى عند أناس يعرفهم في منطقة المزة، وكعدي أخذ أسرته إلى عند أناس يعرفهم أيضاً في قرية ببيلا. وكأن القدر ساق كعْدي، وعطية المرشود إلى الشام، ليكونا العين التي يرى بها أهلاهما الحياة الجديدة!

الحاشية الثانية

كان الأخرس شامان،

أشبه بالوحش في قرية ببيلا. لا أحد يجرؤ على الحديث معه، أو الاقتراب منه. رجل طويل، عريض، عبوس، له شعر رأس طويل، ولحية طويلة، وحاجبان طويلان جداً يحجبان عينيه الصغيرتين. ما من أحد يراه إلا ويظن أنه مجرم، أو سجين هارب، أو مجنون أُفلت من مشفاه في التو والحال. ثيابه ممزقة. يحرك يداه، ويتمطق بشفتيه على الدوام! إن مشى.. يقف دون مسوّغ للوقوف، وفي أمكنة خطرة، كأن يقف في منتصف شارع تسير فيه السيارات. ويمشي ويقف دونما توازن أو سبب! يمشي ولا رفيق له سوى كلبه الأسود الضخم يقف إن وقف ويمشي إن مشى! عيناه تجولان في جانبي الطريق، ويداه تلتقطان كل ما يصادفه ساقطاً في الشارع.. زجاج مُكسّر، أحذية مقطّعة، خبز يابس، عظام، كاوتشوك، بلاستيك، قطع حديد، ألمنيوم، نحاس.. خشب، علب تنك فارغة، جميعها يرفعها، ويضعها في

حقائب عدة يحملها متداخلة على كتفيه، حقائب بلاستيكية، وقماشية، وجلدية.. لعله التقطها جميعاً من أكوام الزبالة في يوم من الأيام. منظره وقد انتفخت الحقائب، أو امتلأت يثير الانتباه، يبدو مثل القطار المتعب.. يمشي ببطء شديد، يمشي وكأنه يدور في مكانه! هذا الرجل المخيف، هو الرجل الذي قَبِلَ أن يؤجر أسرة كعدي إحدى غرف بيته بخمس ليرات سورية شهرياً!

أما منظر البيت، بغرفه الثلاث، ورواقه الممتلئ بالعظام العجيبة والأحذية العتيقة.. فكان منظراً خرافياً لرجل يعيش خارج المجتمع؛ بل يصير المنظر أكثر غرابة حين يجلس الأخرس شامان مقابلة مع كلبه ليتناولا الطعام معاً؛ الأخرس يأكل لقمة من صحنه، ويرمي لكلبه لقمة! كلاهما يتقاسمان الطرق، والشتائم، والنظرات الباردة، والطعام، والغربة، والحياة!

اثنان، كانا يعيشان وحيدين في هذا البيت، قبل وصول أسرة كعدي إليها، هما الأخرس شامان، وكلبه الأسود.. الضخم!

الحاشية الثالثة

كعدي، شرح لقائد قاعدته ما يعانيه من قلق تجاه والده الذي بقي في القرية وحيداً. رجاه أن يسمح له أن يكون أحد أفراد المجموعات التي يودون إرسالها إلى الجولان.. لكي يرى والده؛ لعله يقنعه بالعودة معه كي لا يقتله اليهود، أو تأكله الوحوش هناك، فوافق قائد قاعدته، ووعده بأن اسمه سيكون أول اسم في تنسيق المجموعات الذاهبة إلى الجولان!

* * *

موت شتيوي..!!

منذ اليوم الأول للاحتلال الجديد.. جاء الخواجات اليهود إلى القرية في عربات مصفحة، ودبابات، وسيارات نقل كبيرة، كثيرون منهم ارتقوا الأسطحة، وراحوا يراقبون. كانت أجهزة الاتصال بين أيديهم، وخلف ظهورهم، كانوا لا ينفكون عن الحديث فيها، رطانتهم تملأ المكان. كان شتيوي يفهم كل كلمة يقولونها، بعض منهم كانوا يتكلمون العربية. لم يقل لهم إنه يعرف العبرية وقد قابلهم بلا مبالاة. إذ لم تكن رؤيتهم في القرية، وأمام بيته مفاجئة له.. بعدما دخلوا إلى أماكن عديدة. كان هادئاً تماماً، غير مكترث بالجلبة التي أحدثوها، حاولوا أن يدفعوه للخروج من القرية فرفض. قال لهم شارحاً، إنه في بيته، ومع حيواناته ولا يريد الخروج! فأفهموه أنه سيموت هنا جوعاً،وبرداً، وغربةً.. ستأكله الوحوش في الليل، فهو وحيد في القرية! فيجيبهم إن هذا ليس مهمّاً، المهم أن يموت فوق الأرض التي عاش فيها، فوق الأرض التي عرفته وعرفها، وأنه لن يصدق خرافة الخروج والرجوع مرة أخرى! لقد غُرر به في المرات السابقة، فأُخرج من بيته، وأرضه، والبلاد التي ربّته هو وآباءه وأجداده. أُوهم بخرافة الخروج والعودة! فصدق، وخرج.. بعد أن فقد كل ما يعينه على البقاء فوق أرضه.. والآن لا يريد أن يصدق مثل هذه الخرافات. لأنه بات مقتنعاً، وقد بلغ خريف العمر، أن من حقه أن يصدق قلبه؛ أن يتبعه؛ أن يظل فوق أرضه، وأن يموت عليها، وأن يدفن فيها!

فيفاجـأ الخواجـات اليهـود.. بـه! يقولـون لـه إن هـذه الأرض أرض سورية.. ليست أرضه، وعليه ألا يتعلق بها، فيجيبهم إنها الأرض التي أحبها؛ الأرض التي احتضنته وأطعمته بعيداً عن أرضه التي اغتصبوها، إنها الأرض الامتـداد لأرضـه، فأشـجارها، وأنهارهـا، وهواؤهـا، وروحهـا، ونباتاتهـا، وأزهارهـا، وشـوكها.. وحيواناتهـا، وحجارتهـا، وسـهولها، وترابهـا.. جميعهـا تذكّره بأرضه، وإنها هـي الأرض المطلة على أرضـه، وقريتـه الشماصنة.. وهـو لا يريد الابتعاد أكثر عن أرضـه، وقريتـه، وأنـه لا يستطيع العيش بعيداً عن رؤيتها يوماً واحداً، فها هو من هنا.. يطلّ عليها، فيراها ويغصّ.. يرى الخواجات وهم يفلحونها، ويزرعونها، ويأكلون خيراتها! فيحزن لأن موسماً آخر من مواسم أرضه يسرقه الخواجات! ويحارون به ويحقدون عليه، ويحاولون طرده مرة أخرى، إلا أنه يرفض،يطلب منهم أن يقتلوه.. قبل أن يطردوه! إنه يفضل الموت على الخروج! لقد ملَّ من الرحيل، ويريد أن يشفى من مرض الاقتلاع، والطرد، فيتركونه، ويمضون! وقد ظلّوا يأتون إليه يومياً، يطلبون منه أن يخرج، فيرفض. أغروه بأنهم سيوصلونه بسيارة خاصة إلى الحدود ليذهب إلى أسرته، أو أنهم سيسلمونه لقوات الأمم المتحدة لكي يوصلوه إلى أهله، ليموت بينهم! فيرفض بشدة. لقد أحسوا بأنه يزداد عناداً وتشبثاً بالمكان.. كلما أغروه أكثر! ولم ينقذه من عذابهم اليومي له، إلا قوات الأمم المتحدة التي دخلت إلى القرية فلم تجد فيها من السكان سواه، فسجلوا اسمه، وراحوا يتفقدونه بين حين وآخر، يأتون إليه بالأطعمة، والألبسة.. ويشرفون على صحته، فيزودونه بالأدوية اللازمة!

لهذا..، وبعد أن صار على قيود هيئة الأمم المتحدة باعتباره الساكن الوحيد في القرية، صارت جولات الخواجات اليهود تمرّ به لرؤيته وسؤاله إن كان مرَّ به أحد من الناس! فينفي! يقول لهم إنه يعيش هنا، ولا مؤنس أو رفيق له سوى حيواناته! كان الخواجات اليهود يعرفون أن بعضاً من أهالي

القرى، راحوا يعودون إلى قراهم خفية عن أعينهم من أجل أخذ بعض أغراضهم، كالفرش، واللحف، والثياب، أو لأخذ أموالهم إن كانوا قد نسوها في لحظة الطرد العجيبة أو استعادة بعض المواشي التي هربت منهم في أثناء الحرب! لهذا يسألون شتيوي إن كان يرى أحداً من أهالي القرية العائدين إليها ليلاً بعيداً عن رقابتهم! فينفي!! ويصدّ عنهم، ويهمهم بأنه ليس حارساً لأمنهم! كان يسمعهم يقولون عنه بالعبرية إنه خنزير! شيطان القرية! والطعم الذي سيصطادون به الآخرين! وكان هو يهمهم بأن قلوبهم ونفوسهم لن تعرف الأمن، ولو احتلوا بقاع الدنيا أجمع. إنهم أشبه بالسارق القوي الذي يحاول أن يسرق مال امرأة عجوز لا قوة لها ولا حول، ومع ذلك يظلّ هذا السارق القوي خائفاً مرعوباً ليس من قوة العجوز، وإنما من شعوره بأنه سارق! فهو يدخل إلى البيت من أجل السرقة.. لا شيء يملأ قلبه سوى العماء! يدخل خائفاً مضطرباً، ويخرج خائفاً مضطرباً. كان شتيوي يحس بأنهم خائفون في أوقات النهار، يأتون إلى القرية بسياراتهم المصفحة، يجولون في شوارعها، وساحتها.. دقيقة أو دقيقتين، ثم ينصرفون، قد يسألونه سؤالاً عابراً أو يرمونه بالكلمات البذيئة.. أمازالت القرود هنا؟! أو الخنزير يصلي، الخنزير يأكل، الخنزير يرعى مع الأغنام..!! يرمون كلامهم البذيء المؤذي في مسامعه، ويخرجون كالمطرودين! أما في الليل فلا أحد منهم يتجرأ على المجيء. لا أحد يدخل القرية، تصير بيوت القرية، وأشجارها، ودروبها، وأسوارها.. وأوديتها.. أعداءً لهم يهابونها، ويخشون الاقتراب منها!

وحيداً، يقضي شتيوي الليل! منتظراً النهار الذي سيعيد أسرته إليه!

الحاشية الأولى

بعد أن خرج الأهالي من القرية.. قسراً!

تاهوا في الطرق والدروب المؤدية إلى الشام،

وظلّت الطائرات تلاحقهم في الأجواء، فتزيدهم رعباً، وهي تنقض عليهم في غارات وهمية، الأمر الذي أطار صواب الأطفال فبكوا، والتصقوا بأمهاتهم وآبائهم، كما أطار صواب الحيوانات فشردت من الأهالي الذين لاحقوها هنا وهناك، ركضوا وراءها ونادوها.. لكنها نفرت منهم، وعادت ركضاً نحو القرى؛ عادت إلى المراعي التي تعرفها؛ وإلى الأماكن التي عاشت فيها بأمان. بعض الشيوخ قالوا إن الأبقار أفهم منهم وأعقل، فهي تتمرد على الخواجات اليهود فتعود إلى القرى، وهم يخافونهم ويمتثلون لأوامرهم، فيتركون القرى وراء ظهورهم، ويمشون نحو المجهول! وبعضهم قال: إنها أيام.. ونعود! وبعضهم علّق: قديماً قيل مثل هذا الكلام ولم يتحقق شيء!

حيوانات كثيرة، أبقار، وماعز، وخيول، وكدش، وحمير.. هربت من أهالي القرية، وعادت إليها.. دخلت إلى البوايك.. ولاذت خوفاً من الأذى الذي لاحقها طوال الأيام الماضية..، عادت إلى أمكنتها، ومهاجع نومها طلباً للأمان!

شتيوي، كان فرحاً بعودة الحيوانات، ووصولها إلى القرية.. وقد استبشر خيراً بعودة الأهالي أيضاً. تمنى لو كان لديه جهاز راديو ليعرف الأخبار. لعلّ الجيوش العربية رممت نفسها، فجمعت قواها، وأعادت الكرة نحو الخواجات اليهود، وراحت تطردهم من القرى والمدن.. قريةً قريةً ومدينةً مدينةً.. أحسّ بالقلق، والوحدة من دون الراديو، وهو لا يعرف أن الأخبار كانت أكثر سوءاً، وأن عدم سماعها، غنيمة للحفاظ على قوة القلب، ورباطة الجأش المتبقيتين!

لقد شعر بوجود من يشاركه في السكن في القرية، والعيش فيها، إنها الحيوانات.. أبقار، وماعز، وحمير، وخيول، وكدش، وأغنام، ودجاج.. وقد ابتهج، وهو يراها في الصباح تخرج إلى الطبيعة بحثاً عن طعام لها.. كانت البيادر أمامها مكدسة كالتلال، بيادر القمح، والعدس، والشعير، والحمص،

كما كان أمامها بعض الحقول التي لا تزال ملأى بمواسمها التي لم تُحصد بعد! بعضها احترق بنيران القنابل، وبعضها الآخر لايزال واقفاً ينتظر حاصديه! يهمهم شتيوي: «حتى الحقول تيتمت برحيل الناس»! ويتمنى بصوت عال، لو أنه، كان قادراً على حصدها!

شتيوي الذي يعمل طوال يومه في (الدراس) على البيادر! لقد شدَّ بعض الخيول والكدش إلى (النوارج) وراح (يدرس) عليها القمح، والشعير، والعدس، والحمص!

كان الخواجات اليهود يمرون به، فيضحكون، ويعجبون من همّته العالية، وهو الرجل العجوز، ومن تعلقه بالحياة! ويهزون رؤوسهم وقد رأوه ينجز خلال أسابيع قليلة (درس) العديد من البيادر، ويقوم بتذريتها، والحصول على قمحها، وشعيرها، وعدسها، وحمصها.. كان يعمل بهمة كبيرة، جعلت الخواجات يحسدونه فيلقبونه بعفريت القرية، ولو رأوه وهو يملأ الغرف العديدة من بيته بأكياس القمح والشعير، والعدس، والحمص.. لقالوا عنه إنه من سلالة العماليق! رجل بمفرده يدرس بيادر القرية كلها، ينتقل من بيدر إلى بيدر، ويذريها، ويجمع غلالها في أكياس، وينقلها إلى غرف بيته.. أمر أشبه بالمعجزة. بدا لهم وكأنه حارس القرية، وراعيها؛ الحارس الذي يرعى الماشية، ويسقيها، ويشرف على مبيتها وحمايتها، والحارس الذي يجمع محاصيل القرية،ويضعها في الغرف.. كأمانات لحين عودة أصحابها.. لقد ذهلوا وهم يرونه يسجل أسماء أصحاب البيادر على الأكياس كيساً كيساً، ويدوّن أرقامها في دفتر خاص بها. وخلال مداهماتهم له، وجدوا لديه أدوية للحيوانات كان قد طلبها من هيئة القوات الدولية، بعدما شكا لهم مرض بعض الخيول، والأبقار، والماعز، والدجاج فجاؤوا إليه بطبيب بيطري، فحص الحيوانات المريضة، وأعطاه الأدوية المناسبة، وأرشده إلى كيفية استعمالها. حين سأله الخواجات عن هذه الأدوية، قال لهم إنها

للحيوانات فضحكوا متندرين به، وقد أصبح في نظرهم ممرضاً للحيوانات.. أيضاً.

وكم كانوا يدهشون وهم يرونه يقلّم أغصان الأشجار في الحاكورة، أو يُطعّم بعضها، أو يزرع بعض الشتول. فيشعرون بالغيظ، وهم يرونه يرسم الحياة في القرية!.

كلاب كثيرة، وقطط كثيرة جاءت إلى شتيوي وعاشت بقربه، ما كانت تريد منه طعاماً، أو شراباً، وإنما كانت تريد المساكنة. كانت بحاجة إلى سماع صوت البشر، وإلى رؤيتهم أيضاً. ذلك لأنها استوحشت، وقد أحست أن البيوت بلا ناس.. لا أصوات تناديها وتتودد إليها، ولا أصوات تنهرها.. فتبعدها!! كانت أشلاء الحيوانات التي قتلتها شظايا القنابل كثيرة ومنتشرة في العديد من الأماكن، وكان الطعام الذي تركه الأهالي في بيوتهم كثيراً أيضاً.. لذلك لم تأت الكلاب والقطط إلى شتيوي إلا من أجل الاستئناس به والمساكنة.. كي لا تصير وحوشاً.. بعضها يخاف بعضها الآخر!

شتيوي، جعل من حاكورة الدار بستاناً دائم الخضرة، فمن بئر البستان راح يسقي النباتات ويرويها.. كان يزرع فيها الخضراوات.. كالبندورة، والخيار، والكوسا، والباذنجان، والفليفلة، والبامياء، والفاصولياء، والبطيخ، والفجل، والبصل.. ويعيش منها. أما الخبز، فكان يشعل التنور مرة واحدة في الأسبوع، يعجن كمية من الطحين الذي يزوده به رجال هيئة الأمم المتحدة، ثم يخبز على التنور، على الرغم من أن رجال هيئة الأمم المتحدة كانوا يأتون إليه بالخبز مرة في الشهر! إلا أنه لم يستسغ خبزهم! كان يود أن يتذكر دندي، وهي واقفة قرب التنور، تخبز في غبشة الفجر.. فيقلدها، يقف وقفتها، ويراقب لهب التنور.. ويبكي! فهو الذي أجبرها على الرحيل. قالت له «دعني قربك. إن قتلك اليهود أمت معك، وإن أبقوك حياً أبق معك» فرفض، قال لها: «اذهبي مع أولادك. كوني بعيدة عن الخطر والأذى

والموت. إن عشت سأتذكرك في كل لحظة، وإن متّ أموت وحيداً»! فتصرخ به: «كفاك غربة يا شتيوي.. تعال». فيقول: «لن أخرج! ولن يضحكوا عليَّ مرة أخرى»!

أما ثيابه، فكان يغسلها.. قرب نبعة الماء البعيدة عن البيت. يذهب يومياً، في موعد اعتاد عليه.. يغسل ثيابه، ويملأ دلوه، وإبريق الوضوء.. ويعود!

كان الخواجات قد اتخذوا من أعلى نقطة في القرية، مقراً لهم، كانت بيتاً لشفيق العوض صاحب طاحونة الحانوت؛ المكان الأثري القديم الذي يسميه أهل القرية بالحانوت، وهو عبارة عن غرف عديدة مبنية من الحجر الأسود متصلة فيما بينها بأروقة، وعنابر، وهي عميقة، وطويلة، وعالية، وفي داخلها مذاود للحيوانات، وقنوات ماء لتشرب منها!

كان الخواجات، ومن هذه النقطة يراقبون شتيوي يومياً، وهو يأتي في وقت الظهيرة ليملأ دلوه، ويغسل ثيابه ويعود، فيهمهمون بالعبرية:

- «البط يأتي إلى البحيرة»!

كان شتيوي يسمعهم، فيظنون أنه لا يعرف العبرية، ويتحاملون عليه بالكلمات الموجعة، وقد سمعهم في مرات عديدة يقولون «متى يسمن البط لنصطاده«!

كان يخافهم، ولا شك، لكنه يتجاهل هذا الخوف بإقباله على الحياة، وإحساسه بأنه أقوى منهم، وأكثر ثباتاً فوق الأرض، وأنه صاحب حق وأمل، وهم كما يسميهم - السراق؛ الذين تتوالد مخاوفهم وتتكاثر يوماً بعد يوم!

الحاشية الثانية

كاد شتيوي أن يلين!

أن يخرج من القرية حينما رأى دموع دندي تغسل وجهها، لكنه تجلّد. وعاند قلبه. كان يعرف أن خروجها وحيدة، وتركها له وحيداً.. يعنيان موت أحدهما، أو موتهما معاً، ومع ذلك تجلّد، ولم يخرج!

وكاد يلين أيضاً وهو يرى حفيده شتيوي الصغير، سميه الذي بلغ سنه السادسة.. يشدّه من طرف ثيابه، ويصرخ به أن يخرج؛ يقول له محذّراً:

- «سيقتلونك يا جدي.. تعال»!

فينهره شتيوي، يدعوه أن يلحق بجدته، وأمه، وأعمامه، أن يذهب معهم ليلاقي أباه في الشام حيث يعمل هناك! إلا أن الحفيد لا يصدق النهر، ولا الوعيد، ولا التهديد، ويظل يشدّ شتيوي من ثيابه، يرجوه قائلاً:

- «منشان اللّه يا جدي، تعالى معنا.. سيقتلك اليهود..» !

فيرفض شتيوي، ويواري وجهه عن حفيده، وقد فاضت عيناه بالدمع. يلتقط دموعه بأطراف أصابعه، ويستدير نحو حفيده، يرفع يده إلى الأعلى مهدداً إياه بالضرب لكي يلحق بأمه، وجدته، وإخوته، وأعمامه.. إلا أن شتيوي الصغير، الذي عرف هذه اليد المرفوعة، وحنان الجد.. لا يخشى جده، ولا يخافه.. فيشده، ويسحبه لكي يمشي معه، غير أن شتيوي يُفلت يد الحفيد، وقد عاد الخواجات إليهما ناهرين، آمرين، فيدفعه باتجاه السيارة دفعاً ثم يراه ينقذف منها، وما إن يصير في مؤخرتها، حتى يقابل جده بوجهه الباكي الصارخ.. «جدي، جدي»! فينهره شتيوي ببحة الصوت المتهدج: «خلص يا ولد.. اعقل»! لكن الولد يظلّ يبكي، ويتعالى بكاؤه أكثر كلما تحركت السيارة قليلاً إلى الأمام!

لقد استطاع شتيوي أن يرد على كلام حفيده حين صرخ به (جدي، جدي) لكنه الآن لم يقوَ على أي كلام، وهو يسمع دندي تصرخ به راجية، وقد أخذت السيارة تمشي:

- «يا شتيوي..» !

ما كان لديه من جواب سوى أن يرفع لها يده مودّعاً، وقد تلامع وجهه بدموعه الفضية! ودندي تبكي وتصرخ، وتضرب غطاء السيارة الكتاني لعلها تتوقف، فيصعد شتيوي إليها.. إلا أن السيارة تمضي، وشتيوي يبقى ثابتاً في مكانه ينتظر السيارة حتى تغيب!

تلك الصورة، دندي وهي تصرخ به باكية، وشتيوي.. وهو يرفع لها يده مودعاً.. باكياً أيضاً.. هي آخر ما نُقش في قلبيهما إلى الأبد!

الحاشية الثالثة

لم تمضِ سوى شهور قليلة، حتى استطاع كعدي ابن شتيوي البكر. النفاذ إلى القرية! ذهب إليها مع اثنين من رفاقه الفدائيين. كان كعدي قد ترك عمله في مشروع بصرى الشام، والتحق بالعمل الفدائي، ليس من أجل طرد اليهود، واستعادة البلاد وحسب.. وإنما من أجل رؤية والده شتيوي الذي ظلّ في قرية نعران المطلة على جسر بنات يعقوب، وقرية الشماصنة.. أيضاً!

وصل إليه ليلاً؛ في وقت متأخر. فكمن قرب البيت الذي يعرفه كما يعرف أصابع يديه. ما أراد أن يفزع والده العجوز في نومته. انتظر لكي يبزغ الفجر، فيراه بطوله الفارع، وطلته التي اشتاق لرؤيتها كثيراً.. وهو يخرج من أجل صلاة الفجر. كانت القرية هادئة جداً، وقد أصابتها أول أمطار الخريف. فالأرض مبلولة من غير طين! كان أكثر ما يخيف كعدي ألا يجد والده شتيوي. أن يكون قد تأخر في المجيء إليه! لهذا كانت لحظات الانتظار من أصعب ما مرّ عليه من أوقات. كان يقول لرفيقيه: ماذا لو لم نجد العجوز هنا؟! هل من المعقول أن يكون قد شرد في الأمكنة؟! هل عاد إلى الشماصنة مشياً.. فانحدر من القرية نحو الكمرك، إلى قرية جليبينة، إلى

جسر بنات يعقوب.. ودخل إلى القرية؟! هل وافق الخواجات اليهود على عودته إليها؟! وإذا ما حدث هذا فعلاً فكيف له أن يعرف؟! أسئلة موجعة، ظلت في الهزيع الأخير من الليل.. من دون إجابات!! لكن وما إن بدأت غبشة الفجر الفضية تنتشر، حتى سمع كعدي صوت باب دارهم يفتح فرقص قلبه، وابتهج إذ لابدّ من أن أباه.. وراء الباب، سيخرج بعد لحظات.. لعله، كعادته، يباكر النهار من أوله!.. فعلاً ها هو صوته يتعالى (يا حي.. يا قيوم) فيقفز كعدي في مكانه، ويهمس أنه حيّ! ها هو بقامته العالية، وثوبه الأبيض، يتقدم نحو برميل الماء الذي يعرفه كعدي جيداً، فيملأ شتيوي إبريق الوضوء، وينتحي جانباً، ليتوضأ، وصوته يصل إليهم مهمهماً بالدعاء!

لم يستمهله كعدي وقتاً طويلاً، أراد أن يخبره بأنه قربه، جاء إليه ليراه، ليعرف أخباره، ليأخذه معه، ليعود به إلى أمه المريضة؛ دندي التي لا كلام في فمها هذه الأيام سوى النداء على شتيوي! تركه لكي يصلي فقط، وما إن رآه يخرج ثانية.. وهو يدعو، ويهمهم، حتى ناداه من مكمنه.. «أبي، أبي.. أنا كعدي»! فالتفت شتيوي نحو الصوت، وقال:

- «كعدي!! أين أنت يا ولد.. اقترب»!

فهبّ كعدي وانطلق نحوه بينما بقي رفيقاه في مكمنهما! ارتمى في صدره وراح يقبّل يديه ووجهه، ويشمه، ويضمه إليه، ويهتف مبحوحاً: «أبي.. أبي»! وشتيوي يضمه إلى صدره، وقد فوجئ به في هذا البكور الصباحي!

أخذه إلى الداخل، وراح يسأله عن أمه، وإخوته، وزوجته، وأولاده؛ سأله عن شتيوي الصغير الذي أبكاه عند الخروج! وعرف منه الأخبار، قال كعدي له إنه يسكن مع أمه، وزوجته وأولاده في قرية ببيلا.. استأجر بيتاً عند رجل أخرس، مؤقتاً بانتظار هيئة الأمم المتحدة التي ستبني مخيمات لهم، وأن إخوته يستأجرون بيتاً آخر، وأخبره أن العجوز دندي تكاد تجن، فلا

حديث لها، ولا سيرة سوى الكلام عنه، عن شتيوي وغربته في القرية وحيداً. تسأل دائماً كيف يأكل، وكيف ينام، وكيف يغسل ثيابه.. وكيف يواجه الخواجات، وكيف يعيش؟ وتبكي!! تقول عنه إنه رجل منذور للغربة، في الشماصنة عاش غريباً، وفي نعران كان غريباً، في أمريكا كان غريباً أيضاً، لم يعرف السعادة أبداً، فيضحك شتيوي، ويقول لابنه: قلبها رهيف تخاف عليّ! وهنا ينتهز كعدي الفرصة فيدعوه لكي يستعد للعودة معه، من أجل أن يراها قبل أن تموت! فيرفض شتيوي؛ يقول لكعدي بأنه ليس مجنوناً ليذهب معه. إن كان لابدّ من الذهاب، وترك نعران فإن طريقه ستكون نحو الشماصنة، وليس نحو الشام! ويحاول كعدي معه كثيراً، يرقق قلبه على أمه، يقول له إنها هناك غريبة، وهو هنا أشبه بالوحش، وهذه ليست حياة، وإنهم، هناك في الشام، بحاجة إليه! وإنه لن يعود إلا وهو معه! فيرفض شتيوي. يقول له إن استطاع البقاء معه، فأهلاً وسهلاً، وإلا فليرحل إلى بيته، أن يبقى بقرب أمه في أيامها الأخيرة، وأن يُطمئن قلبها بأن شتيوي بخير، رجل بحق، وليس عجوزاً، يفلح الحاكورة ويزرع فيها، ويأكل منها، وأن لديه عدداً كبيراً من الماشية التي هربت في أيام الحرب! ويقول لكعدي إنه سيريه الحاكورة، والماشية، والزرع.. حالما يطلع النهار! فيهز كعدي رأسه ويسأله إن كان الخواجات يأتون إليه، فيضايقونه، أو يقسون عليه! فيخبره شتيوي إنهم طلبوا منه عشرات المرات أن يخرج، ويترك القرية.. كي لا يموت وحيداً هنا، كي لا تأكله الوحوش، فيرفض، يقول له إنهم يأتون إليه يومياً، يتفقدون وجوده! وأخبر كعدي أن النقطة الأساسية لتمركز اليهود في القرية واقعة في بيت شفيق العوض، قرب نبعة الماء! وطلب منه أن يأتي برفيقيه، ويدخلوا جميعاً إلى التبان، فالمكان دافئ وآمن، وأنه هو من سيسوي آثار أقدامهم في الخارج حين ينشر قطيع الماشية.. في مكان وجودهم، ستضيّع أقدام الماشية آثار خطواتهم! وأنه سيضع لهم كمية من الطعام والشراب داخل التبان لكي

يقضوا نهارهم فيه! وأخبره كعدي أن أمه، دندي، نسجت له كنزة صوف حملها إليه، كنزة ذات لون أسود؛ اللون الذي أحبه طوال حياته، وأنها يبّست له كمية من الملوخية، والباذنجان، والبامياء، وأرسلت له قليلاً من الفريكة، وقطرميزاً من العسل، وعلبة نشوق! فضحك شتيوي من قلبه، وقد فرح كثيراً بعلبة النشوق التي افتقدها كثيراً، دندي وحدها من يعرف أهمية النشوق بالنسبة إليه بعدما ترك الدخان! كان قد أوصى العديد من رجال هيئة الأمم المتحدة على النشوق، فما جاء به أحد منهم، كانوا لا يعرفون ما الذي يقصده بالنشوق، فيقول لهم العطوس، فيزداد عدم فهمهم استغلاقاً! فرح بعلبة النشوق، كما فرح بالكنزة! فها هي دندي المريضة، لا تنساه، فتنسج له كنزة لكي يحمي بها نفسه من البرد، سيمرّر أصابعه على الكنزة.. بشوق، لأن أصابع دندي مرت فوقها؛ هنا على هذه الكنزة ستلتقي أصابعهما مرة أخرى! ودّ لو أن كعدي ظل إلى جواره يحدثه عن أمه، وعن إخوته، وزوجته وأولاده، لكن خوفه عليه هو الذي جعله، يذهب ليأخذ رفيقيه إلى التبان، فيكمنون فيه بانتظار قدوم الليل.. لابدّ أن كعدي سيحدّثه كثيراً عن أمه، كما سيحدثه عن أولاده، ومدارسهم، والشام التي عشقها، وسيسأله عن معارفه في الشام.. عن موضي الخطيب، ومحمد الجبر، وحسين الموسى، وحسين المتعب، وبيت عرسان، وأهالي نعران والسنابر.. سيسأله عن أخته زانة التي تزوجت في قرية سحم الجولان، وعن زوجها (أبو خميس) وأولادهما! ويواعد نفسه بأن لا نوم له في الليلة القادمة، لأنه سيقضيها مع كعدي الذي يأتي إليه فجأة.. فيملأ قلبه بالفرح!

الحاشية الرابعة

مرات عديدة،

جاء كعدي إلى أبيه في القرية!

كان يحمل إليه بعض الأطعمة، وبعض الثياب، وبعض الأدوية، دائماً كانت دندي تفاجئ شتيوي بإرسال شيء خاص له، فبعد الكنزة أرسلت إليه حزاماً صوفياً نسجته بيديها، وزوجاً من الجوارب الطويلة، وفي مرة تالية أرسلت إليه منديلاً أسود، وصدرية من الكتان مبطنة بالصوف، كانت تتمنى لو أنها تراه يلبسها، وقد انتفخت جوانحه مثل جوانح الطيور! كما ترسل إليه، في كل المرات، علب النشوق!

مرة واحدة، جاء كعدي إليه، ومعه حذاء، وشفرات حلاقة، وصابون، ومعطف من المشمع.. ولم يأت بعلبة النشوق. فغص قلب شتيوي! أحس بغياب دندي، فسأله موجساً:

- «ماتت دندي.. يا كعدي»؟!

ففوجئ كعدي تماماً. جفّ ريقه. وحار ماذا يقول. رفع بصره نحو أبيه، فضبط شتيوي حيرته، وذهوله. ولم ينتظر إجابته، فهمهم:

- «اللّه يرحمك يا دندي..» !

وانطفأ.. فأخذه كعدي إلى صدره، وراح يقبّله، ويواسيه، ويحكي له أخبار مرضها، وهذيانها الأخير باسمه طوال الوقت! لقد صارت أشبه بالهيكل العظمي، لم يتبق فيها سوى الأنفاس والروح!! لقد قتلها غيابه عنها! والشوق إليه! لم يغنها الأولاد، ولا الأحفاد، عنه! كانت خائفة عليه، تدعو اللّه في النهار ألف مرة، تقول:

- «يا رب اجعل يومي.. قبل يوم شتيوي»!

فاستجاب اللّه لها! لقد ماتت منذ خروجها من نعران؛ منذ أن ابتعدت عن الشماصنة؛ وعن شتيوي.. أيضاً!! ويظل الحديث أنيناً ما بين شتيوي وكعدي.. فلا يُطلق أحدهما الآخر إلا قبيل الاختناق بقليل! يقول كعدي له:

- «لقد صار لنا قبر. في ببيلا يا أبي»!

فيتمتم الأب:

- «قبر دندي»!

فيغرق الاثنان في بكاء موجع.. لا يخجل الأب من بكائه أمام ابنه، كما لا يخجل الابن من بكائه أمام أبيه.. فكلاهما يبكي دندي.. روح الحياة!

الحاشية الخامسة

لم يدر كعدي ما يفعله!!

فقد جاء إلى القرية، نعران، ليرى والده شتيوي كعادته، بعد غياب طال هذه المرة. مضى إليه في مكان نومه مباشرة بحث عنه في العتمة، فلم يجده. عثر على فراشه ولحافه، والبطانية، وتحسس علبة النشوق، واصطدمت يده بالقنديل، وطاسة الماء النحاسية، وأصابعه اشتبكت بمسبحته المصنوعة من حبات نوى الزيتون،.. إنها أغراضه في مواضعها.. لكن أين هو؟! تحسس مدفأة الحطب، فوجدها باردة، مدّ يده إلى داخلها، فوجدها خالية من الحطب، لم يجد بداخلها سوى الرماد! ذهب إلى غرفة أخرى، بحث عنه بيديه، وصوته الخافت ينادي: «أبي، أبي»! ولكن ما من مجيب!

خرج إلى رفاقه حائراً، قال لهم، إنه لم يعثر على والده. وإنه يتخوف عليه. إنه الآن يحس بأن الخوف يهبط في قلبه تماماً!! يعترف بأنه تأخر عليه في هذه المرة كما يقول، فيتساءل هو ورفاقه عن مصيره، يقولون: لعل شتيوي مضى في أحد الدروب البعيدة ولم يعد منها بعد، أو لعله غامر وعاد إلى الشماصنة، أو لعل الخواجات أخذوه سجيناً، أو لعله مات في البرية، أو في الحاكورة، أو لعلّ الوحوش دهمته ليلاً فأكلته! أفكار كلها مُرّة وموجعة ومؤسية وتعني غياب شتيوي.. تناسلوها وهم طيّ القلق، الخوف، فالرجل الذي يأتون من أجله لن يجدوه! أحس كعدي بالألم الشديد، وأنه يفقد قوته

دفعة واحدة، وأن روحه تكاد تغادره! فانخرط في البكاء؛ لم يحسب حساباً لدوريات اليهود، ولم يخف أو يحذر منها.. بعدما غاب شتيوي! احتضنه رفاقه، وراحوا يواسونه وقد قرروا أن لا فائدة من البكاء، والوقوع في العجز. وأن البحث عنه في غرف البيت، والبوايك، هو الأجدى.. لعل الأبقار، أو الخيول.. استوحشت فقضت عليه، وهو يضع لها العلف، أو وهو يسقيها، لعله وقع في إحدى البوايك فكسرت ساقه، وما عاد قادراً على المشي أو الزحف نحو غرفته التي ينام فيها، أو لعله وقع في بئر الماء في أثناء السقاية فما استطاع الخروج منها! لذا.. توازعوا المكان، ومحيط البيت، وراحوا يبحثون عن شتيوي؛ الوحيد الذي كان يهمهم هو كعدي، يناديه (أبي، أبي) بصوت يخنقه البكاء، وتحتبسه البحّة! وقبل الفجر بقليل عادوا إلى مكمنهم.. دون أن يعثروا عليه. أحسوا بأنهم فقدوه فعلاً، وأنهم ربما فقدوا كعدي أيضاً، فقد أتعبه البكاء، وهدّه الحزن، فما عاد صوته يخرج من لهاته! وبات غير قادر على الوقوف! لهذا حملوه إلى التبان، مددوه، وغطّوه ببطانياتهم لعله ينام فيعرق، فتعود إليه قوته، ويستعيد صوته أيضاً! ليلة من حزن، وأسى، وبكاء، وألم، وهمّ، وأسئلة قضوها في القرية، داخل بيت شتيوي، ولم يعثروا عليه! انتظروا حتى الصباح، لعلهم يستطيعون رؤية ما لم يروه، لعل النهار يكشف عن الخاتمة!

لقد أيقنوا، وقد نام كعدي، أن والده شتيوي مات!! وإلا أين هي الأبقار، والأغنام، والخيول، والحمير، والكدش، والماعز؟! لا شيء هنا في البوايك، إنها مهجورة، لا حيوانات فيها،ولا أثر لوجودها! لا روث فيها ولا بعر! والدجاج ما وجدوه أيضاً! قن الدجاج مفتوح، ولا دجاج فيه، ولا بيض! حتى الكلاب في هذه المرة لم تنبحهم، ترى أين ذهبت الكلاب أيضاً؟! والقطط أين هي؟!

وطلع النهار فأبان وجوههم المتعبة، الحزينة؛ استفاق كعدي، عادت إليه حيويته، وعاد صوته مرة ثانية، حاولوا أن يجبروه على تناول شيء من الطعام إلا أنه رفض. قال لهم إنه لا يقوى على البلع. وقد يستطيع ذلك إذا ما اجتمع بوالده. ومع أول النهار توازعوا المكان، كل منهم أخذ جهة وراح يراقب ويفتش ببصره لعله يلمح طرفاً لشتيوي! كانوا جميعاً يتوقعون مفاجآت عديدة.. فها هي البوايك لا حيوانات تخرج منها أو تدخل إليها، وها هي الحاكورة بقايا خضار، وأوراق مصفرة، لا أحد فيها أبداً، وها هو البيت بغرفه الثلاث.. يبدو أمامهم.. وكأن صاحبه غادره منذ أمد بعيد! لا صوت هنا ولا حركة! قطة واحدة بيضاء اللون، تدخل إلى الغرف.. تبحث فيها، وتخرج منها سريعاً لعلها لم تجد فيها ما يؤكل.. وها هي ساحة الدار لا شيء فيها أيضاً، وذلك هو تنور البيت يقف ببلاهة كالجدران، وهذا هو الدرب الموصل إلى البيت لا أحد فيه أبداً، وتلك هي البيوت تحاذيها الأشجار تقف وحيدة مثلما تبيت وحيدة قرب الدروب! لا شيء هنا إطلاقاً، لا أصوات، ولا حركة، لكأن القرية قرية أشباح!

بعد ساعات من المراقبة والترصد، زحف كعدي نحو رفاقه، وقال لهم إنه يخاف أن يكون والده قد وقع في البئر، داخل الحاكورة، أو في التنور أمام البيت، فأراد منهم أن ينتبهوا لأي حركة، أو لأي مفاجأة من الخواجات، لكي ينبهوه، فهو يريد النزول إلى البئر، ليعرف ما إذا كان شتيوي قد غرق فيه أم لا، وهو الذي يعلم جيداً أن البئر ليست عميقة. فوافقوه. زحف نحو التنور أولاً، وما إن وصل إليه وتطاول نحوه، ونظر فيه.. حتى أصيب بخيبة، إذ يجد شيئاً، وأشار بيده إلى رفاقه أن لا شيء فيه! ثم مضى زحفاً إلى الحاكورة، قصد البئر مباشرة، وهبط إلى داخلها، أخذ معه عصا طويلة، وراح يبحث عن والده. كانت مياه البئر قليلة جداً لم تغط سوى ساقيه.. ولم يجد شيئاً أيضاً! لقد تمنى ألا يجده غارقاً في البئر كي لا تدوسه قدماه!

وزادت حيرة رفاق كعدي وقد عاد إليهم، واختنق هو بدموعه، وقد سقط في مربع الندم. قال لهم ليته، في المرة الأخيرة، أجبره على الخروج معه، ليته جاء بمخدر، فخدّره، ثم حمله على كتفيه، وعاد به! لو أنه فعل هذا.. لما كان هو الآن فريسة هذا الهم، والحزن، والحيرة الموجعة!

تذييل أول

ثلاثة أيام بلياليها ظلّ كعدي ورفاقه يبحثون عن شتيوي، وقد تجاسروا أكثر في البحث عنه، قرب بيوت القرية، وفي دروبها، وحواكيرها.. حين عرفوا أن نقطة المراقبة التي كان يسكنها الخواجات اليهود في بيت شفيق العوض ما عادت موجودة، وأنه لا وجود لليهود في القرية.. إطلاقاً! بحثوا في الأمكنة التي يتوقعون من شتيوي أن يصلها! بحثوا في المراعي القريبة من البيوت أولاً، وقرب الرجوم، وأشجار البطم، والسدر، والطيون، والغار، فما وجدوه، تفحصوا العظام المنتشرة بكثرة في المنطقة لعلها تكون عظامه إلا أنهم لم يجدوا سوى عظام الحيوانات! مضوا إلى طريق نبعة الماء مقصد شتيوي اليومي، بحثوا في الطريق توقفوا طويلاً عند الجدار الطويل الذي يلف بستان شفيق العوض، ولم يجدوا شيئاً، اقتربوا من نبعة الماء، ولم يعثروا عليه، كانت الأشواك اليابسة تكاد تطاول قاماتهم، كما كانت نباتات القصب تشكل غابة صغيرة حول مجرى الماء، وفي المنحدر تقع طاحونة الحانوت القديمة الخربة؛ الطريق إليها مغلقة بالنباتات والأشواك، وأجمات الحلفا والسعد والبربير!!

ولم يدروا كيف سمعوا صرخة كعدي، أو نشيجه، أو بكاءه، صرخة تعالت أشبه بصرخة الوحش. فاقتربوا منه حذرين، خائفين، والهلع حشو عيونهم. وحين رأوه لم يسألوه، لأنه كان جاثياً وبين يديه إبريق الوضوء؛ إبريق شتيوي التنكي، إبريق القصدير، هي ذي العلامة الأقرب لوجود شتيوي في المكان! كانت الأشواك تكاد تخفي الإبريق لأنها زحفت إلى الدرب

حتى كادت تلتهمه،.. ومن دون سؤال نشط الجميع في البحث عن شتيوي بين الأشواك. لقد نسوا الخوف، والحذر، نسوا دوريات خواجات اليهود، نسوا المفاجآت، ونشطوا في البحث، فعثروا على عصا شتيوي، وعلى حذائه، ثم.. عثروا عليه!

يد كعدي هي التي وصلت إليه أولاً! كان ميتاً منذ زمن طويل! إذ لم يجدوا سوى هيكله العظمي محشواً داخل ثيابه! ثيابه هي التي عرّفته. كانت العظام مرتبة داخل ثيابه. حين رأى كعدي الثياب أطلق صرخة الوحش التي ظلت حبيسة في صدره طوال الأيام الثلاثة الماضية! لعل كعدي كان يتمرن خلال الأيام الثلاثة الماضية على مواجهة الموت، أو لقائه! لحظة انطلاق الصرخة.. اقترب رفاقه منه! وأغلقوا فمه، وتعاونوا عليه لكي يهدأ! وسحبوا الثياب من بين الأشواك، سحبوها بهدوء كي لا تقع العظام؛ كي لا تقع عظمة واحدة منها، ورأوا وهم يجمعونها أن ثقوباً لطلقات اخترقت الجمجمة! واحد من بينهم حمل كعدي على ظهره، وقد غاب عن الوعي، والآخرون حملوا الثياب، والعظام، وإبريق الوضوء، والعصا، والحذاء.. ومشوا في رحلة العودة إلى بيت شتيوي ليروا ماذا سيفعلون هناك!

تذييل ثانٍ

رفض كعدي أن يدفن عظام والده في حاكورة الدار. قال لرفاقه إنه سيأخذها معه إلى الشام ليدفنها في قبر أمه! ورأوه وهو يقوم بتكسير عظام والده الكبيرة، كي تدخل في الكيس الكتاني؛ وكي لا تأخذ حجماً كبيراً، رتّبها داخل الكيس، وغطّاها بثياب والده، وأغلق الكيس، ثم جمع حاجيات والده.. علبة النشوق، والمسبحة، والمنديل، والقنديل، وطاسة النحاس، وإبريق الوضوء.. ووضعها في كيس آخر.. وأغلقه أيضاً. واستعد ليعود مع رفاقه.. مع أول حلول الظلام!

آنذاك، كان العيد قد اقترب، وكان كعدي قد أحضر لوالده كعك العيد الذي يحبه؛ كان أولاده قد كتبوا على أقراص الكعك أسماءهم، وكلمات التبريك، والتهنئة بالعيد، ودعواتهم أن يعود جدهم إليهم بالسلامة!

الآن، يخرج كعدي، كعك العيد، وقد وضع أمامه الكيس الكتاني الذي حوى عظام والده وثيابه.. يُري الكيس كعك العيد، ويقرأ باكياً أسماء أولاده، والكلمات التي كتبوها.. وكأن والده شتيوي أمامه يرى ويسمع.. ثم ينخرط هو ورفاقه في بكاء عميم!

تذييل ثالث

لم يدر رفاق كعدي، كيف قوي كعدي على حمل الكيس الذي حوى عظام والده طوال رحلة العودة، وقد أرادوا أن يتعاونوا معه على حمله، فرفض، أرادوا أن يريحوه من العبء الثقيل الذي يهدّ الروح! ولكم ضبطوه وهو يناجي الكيس، ويبكي، ولكم خافوا عليه من أن يفقد عقله!

أبداً، لم تجف دمعة كعدي طوال طريق العودة إلى الشام! فالكيس الذي جاء به مملوءاً بالحاجيات، سيعود به الآن وقد امتلأ بعظام والده!

تذييل رابع

ليلاً، وصل كعدي إلى البيت الذي استأجره عند الأخرس شامان. وجد الصغار نياماً. زوجته هي الوحيدة التي أحست بقدومه. كان منهكاً تماماً، بالكاد وصل إلى البيت. ففرشت له بجوارها، وغطته. كان يرتجف من البرد. حسبت أنه جريح، فطمأنها بأنه بخير، وهو يعود الآن من نعران، فتسأله عن والده. فيصمت! عندئذٍ تشرع زوجته بالبكاء، فقد أدركت أن العجوز مات أخيراً، تبكي، ويبكي هو، فتحلق في سماء الغرفة الهمهمات والنهنهات، فيستيقظ الصغار! يحسون بأن أمراً ما يحدث في غرفتهم، أن رجلاً ما يتمتم مع أمهم؛ رجلاً ما يقتحم خلوتهم، ويدخل إلى الغرفة،

ويحدث أمهم همساً. شتيوي كبير الأولاد كان أول من استيقظ، فأحس بأن أمه تتحرك في فراشها. وأنها تتكلم مع رجل ما! لم يفطن إلى عودة والده! فعودته عادة لا ميعاد لها ولا وقت! شرع بإيقاظ إخوته وأخواته الصغار، أرادهم أن يسندوه في يقظتهم الجماعية، لكي يتجاسر فيسأل أمه عن الذي يحدث! ومن يكلمها في هذه العتمة المطبقة! ورويداً رويداً راحت همهمات الصغار تحتشد لتصير أصواتاً، فسأل شتيوي الصغير أمه، نادهاً، فأمرته أن ينام! لكن كيف له أن ينام، وهي تحدث أحداً ما إلى جوارها! فناداها مرة أخرى، فأمرته أن ينام. أحس ببحة البكاء في صوتها. إنها تبكي ولاشك، تجاسر أكثر، وأعاد يقظة إخوته وأخواته إلى تمامها، فتجاسروا أكثر، وسألوا الأم، ونادوها، وطلبوا منها ماء!! فهممت الأم أن والدهم عاد، وها هو إلى جوارها مهدود من التعب! فيفرح الصغار، وينهضون من فرشهم، يطيرون البطانيات من فوقهم.. فتنتشر روائحهم، ويتدافعون نحو فراش الأب، نحو الفدائي الذي يعود إليهم بعد الغياب! ارتموا عليه، وراحوا يقبّلون يديه، ووجهه، وصدره، وقد أحسوا جميعاً بأن دموع الأب بللت وجوههم.. فراحوا يسألون عن الذي حدث! ولم يكن أمام الأم، وقد استيقظ الجميع، إلا أن تقوم إلى القنديل، وتشعله لأنها تعرف صغارها بأنهم لن يعودوا إلى النوم، وقد رأوا والدهم بينهم. أشعلت القنديل، فبان وجه الفدائي كعدي المتعب، المنهك؛ وجه كأنه خارج من القبر للتو! رأوا وجهه يتلامع بالدموع، فاستغربوا هذا البكاء من الرجل الفدائي الذي يحسبونه خرافة! فمجيئه يستدعي الفرح لا البكاء، لذلك سألوه لماذا يبكي؟! فقال لهم إنه تعبان. كان لا يريد أن يفجع الصغار بالخبر! خصوصاً شتيوي الصغير الذي عاش مع جده وقتاً طويلاً!! شتيوي الذي كان يعرف أن والده يذهب في كل مرة إلى جده ليراه، أما في هذه المرة فالصغار جميعهم يريدون أن يعرفوا أخبار جدهم شتيوي وتعليقاته، وقد أرسلوا إليه أقراص كعك العيد!! أرادوا أن

يعرفوا وقع كلماتهم في نفسه بعد أن قرأها! فسألوا والدهم عن جدهم فصمت! أسكتته عبراتُه، وحالت دون خروج الكلمات! فغطى وجهه براحتيه، وانتحب بارتجافة عظيمة! أخافت الصغار وأمهم.. فشرعوا جميعاً يبكون! وتعالت أصواتهم! ولم ينتبهوا إلى المناحة التي بنوها إلا عندما سمعوا قرعاً على الباب! لقد استيقظ الأخرس شامان على صوت بكائهم وصخبهم، فخاف عليهم. قرع الباب ليعرف ما الذي يحدث داخل الغرفة! خرج كعدي إليه، فعرفه الأخرس، وعانقه! وحين سأله بالإشارة عمّا يبكيه هو وصغاره؟! أجابه كعدي، بالإشارة أيضاً، أن والده مات! فرفع الأخرس يديه إلى السماء، وتمتم بشفتيه، ثم استدار عائداً إلى غرفته، دخل، وأغلق الباب وراءه!

وتحت إلحاح الصغار وسؤالهم عن جدهم.. قال كعدي لهم إنه عاد بجدهم، وأنهم سيرونه في الصباح! فسألوه أين هو؟! فأجابهم إنه قريب.. وسيرونه في الصباح! طبعاً لم يفطن الصغار إلى أن جدهم كان معهم داخل الغرفة، داخل الكيس الكتاني. وهم الذين اعتادوا البحث في هذا الكيس لكي يأخذوا ما أحضره لهم الفدائي بعد أن عاد. في هذه المرة.. لم يقتربوا من الكيس الذي سيّجته نظراتهم! منعهم البكاء والحزن، وتعب الأب، والوقت القصير المتبقي على زمن الليل!

وفي الصباح، عند الفجر تماماً، عاد الصغار، إلى صخبهم، لكأنهم لم يناموا.. واندفعوا وراء شتيوي الصغير نحو الكيس الكتاني الذي كان يتمدد قربهم. اندفعوا نحوه ليروا ما الذي جلبه الأب الفدائي لهم بعد غيبته الطويلة!

وقبل أن يفتحوا الكيس، صرخ بهم كعدي، صرخة أجفلتهم، وأفزعتهم، فعادوا إلى الوراء. نهض، وهو ينظر إليهم بانكسار، وقد عاوده البكاء.. أخذهم إليه، واحتضنهم بذراعيه. ولحقت به زوجته! قال لهم، وهو يسقط بصره فوق الكيس الكتاني. إنه، في هذه المرة، لم يأت براحة من درعا، ولا

بسكويت، وإنه لم يشتر الساعة التي وعد بها شتيوي، ولا أساور الخرز التي طلبتها سعاد! لأنه، في هذه المرة، كان عند جدهم، وقد جاء به! فلم يفهم الصغار شيئاً..! لذلك سألوه، والكيس؟! فقال لهم، وقد ركع على الأرض، قرب الكيس تماماً، جدكم في الكيس!! فطار عقل الصغار.. وهم يسمعون أمهم تنتحب بحرقة وألم؛ أمهم وهي تهجم عليهم فتأخذهم بين ذراعيها، وتبعدهم عن الكيس، كي لا يروا المشهد، وقد راحت يدا كعدي تفك حلقته المعدنية، ورباطه الطويل! نظر كعدي إليهم، وطلب منهم أن يقتربوا.. ليروا جدهم الذي قتله اليهود! لقد وجد جدهم مقتولاً قرب نبعة الماء؛ كان ذاهباً لكي يملأ دلوه وإبريق الوضوء بالماء.. فقتله اليهود بجوار نبعة الماء، أفرغوا الرصاصات في رأسه؟ وشرع يخرج ثياب والده، ليراها الصغار، رتبها فوق بعضها بعضاً.. وراح يخرج العظام، والصغار يلوذون بأمهم.. وهم يطلقون أبصارهم ليروا ما تستخرجه يدا الوالد من داخل الكيس.. أخرج الجمجمة أولاً.. ووضعها على كفه، وراح يدلهم على الثقوب؛ ثقوب الرصاصات التي اخترقت جمجمة جدهم.. فتجاسر الصغار، واقتربوا منه أكثر، وأمهم تنهرهم، لكنهم اقتربوا.. مدّوا أصابعهم نحو الثقوب، وراحوا يلمسونها.. تماماً كما تفعل أصابع والدهم.. لقد تجاسروا.. وأحاطوا بفتحة الكيس، وراحوا يرقبون والدهم، وهو يخرج العظام واحداً واحداً! وسمعوه يقول لهم إنه هو من كسر العظام لكي يستطيع حملها في الكيس، وأنه لم يفقد عظمة واحدة. فجميع العظام موجودة في الكيس! ولم يمر وقت طويل حتى صف الوالد أمامهم على الأرض عظام جدهم بالترتيب.. من الجمجمة إلى القدمين!

وبينما هم كذلك، خرج الأخرس من غرفته، فرأى أمامه المشهد، فسأل كعدي بالإشارة عن العظام، فأجابه بالإشارة أيضاً أن هذه هي عظام والده الذي قتله اليهود! فغطى عينيه براحة يده، وعاد إلى داخل غرفته ليتوارى ثانية!

وما إن ارتفعت الشمس حتى اجتمعت الأسرة كاملة، فخرج كعدي وإخوته وأولاده ، والأخرس إلى المقبرة، ومعهم عظام شتيوي! قصدوا قبر دندي. كعدي وإخوته والأخرس شرعوا بالحفر، والأولاد من حولهم يتناوبون على أدوار البكاء، والكلام، والصمت. كانت أمهم قد اشترت قطعة قماش أبيض، وأخرى خضراء.. لتكون كفناً للعظام! وما إن انكشف القبر، حتى كبّر كعدي طويلاً، وترحّم على والدته، وأطلّ الصغار برؤوسهم إلى القبر، وكعدي وإخوته والأخرس ينهرونهم لكي يبتعدوا.. لكن الصغار لم يبالوا بالنهر، فتجاسروا، وراحوا يطلقون البصر نحو قاع القبر تماماً، فينهرهم كعدي مرة أخرى كي يبتعدوا مخافة أن يروا القبر ليلاً في أحلامهم!! لكن الصغار ظلوا في مكانهم، وكأنهم تحجّروا. رأوا كعدي يهبط إلى داخل القبر فيبعد عظام والدته جانباً، ويشرع بترتيب عظام والده إلى جوارها عظمة عظمة.. وهو يخاطبها بأن شتيوي يعود إليها.. ليسكن معها قبرها! إنه هنا، إلى جوارها، فلترحب به، ها هو يعود إليها، وقد ماتت كمداً وحزناً بسبب غيابه الطويل المُرّ عنها، لقد صار عندها الآن، لتقول له ما تشاء، لتعاتبه كما يحلو لها. هي أدرى به، ولكن ليكن العتاب رقيقاً! وما إن ينتهي كعدي من ترتيب العظام حتى يلفّها بالكفن الأبيض، ويجعل قطعة القماش الخضراء حول الجمجمة المثقبة بالرصاص! وحين يطمئن كعدي إلى تجاور والديه في القبر، يودّ أن ينهض فلا يستطيع، يحاول مرة أخرى إلا أنه لا يستطيع أيضاً. خجل أن يبدو عاجزاً أمام صغاره، لذلك طلب من الأخرس أن يمدّ يده إليه لينتشله! وحين خرج، أغلق على والديه البلاطات، وأهال هو وأخوته والأخرس والصغار التراب فوقهما، وسكبوا الماء.. وقرؤوا الفاتحة، وبينما هم في جلوسهم، التفت كعدي إلى صغاره الدامعة عيونهم، وأوصاهم، أن يدفنوه معهما حين يموت، وأن يأخذوه ووالديه.. معهم.. إن عادوا إلى الشماصنة!

تذييل أخير

منذ ذلك الحين،

وأولاد كعدي يحسّون بأن أجراساً تطوق أعناقهم، تقرع في آذانهم دوماً، تقول لهم: متى سيكسرون بلاطات القبر.. ليعودوا بالعظام.. إلى الشماصنة!!

*   *   *

الفهرس

الصفحة

صدر للمؤلف

أولاً - القصص:

١ - اثنا عشر برجاً لبرج البراجنة - م.ت.ف.

٢ - ممارسات زيد الغاثي المحروم - دمشق.

٣ - زعفران والمداسات المعتمة - دار طلاس.

٤ - دويّ الموتى - وزارة الثقافة.

٥ - طار الحمام - اتحاد الكتاب العرب.

٦ - أحزان شاغال الساخنة - دار المنارة.

٧ - قرنفل أحمر.. لأجلها - اتحاد الكتاب العرب.

٨ - مطر وأحزان وفراش ملوّن - اتحاد الكتاب العرب.

٩ - هناك.. قرب شجر الصفصاف - اتحاد الكتاب العرب.

١٠ - حمّى الكلام - اتحاد الكتاب العرب.

١١ - كائنات الوحشة - اتحاد الكتاب العرب.

١٢ - في شرفتها – وزارة الثقافة – عمان.

١٣ - في البحث عنك – دار نارة – عمان.

١٤ - صباح مساء – مركز أوغاريت.

١٥ - العودة إلى البيت – اتحاد الكتّاب العرب.

ثانياً - الروايات:

١ - السواد أو الخروج من البقارة - دار الأهالي.

٢ - تعالي نطيّر أوراق الخريف - اتحاد الكتاب العرب.

٣ - جسر بنات يعقوب - اتحاد الكتاب العرب.

٤ - الونّاس عطيّة - دار السوسن للطباعة والنشر.

٥ - مدينة الله - المؤسسة العربية للطباعة والنشر - بيروت.

ثالثاً - الدراسات:

١ - ألف ليلة وليلة - شهوة الكلام / شهوة الجسد - دار ماجدة.

٢ - البقع الأرجوانية في الرواية الغربية - اتحاد الكتاب العرب.

٣ - الأدب العبري (المرجعيات - المصطلحات - الرؤى) - دار السوسن للنشر والطباعة والتوزيع.

٤ - كي لا يفسد الملح - مركز الشرق للطباعة.

٥ - ظلٌّ إدغار آلان بو الطويل - اتحاد الكتاب العرب.

٦ - ألف ليلة وليلة الإيطالية - وزارة الثقافة.

الطبعة الأولى / ٢٠١٣م
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة



الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة
www.syrbook.gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٢٣٢١١٦٤
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٣م

سعر النسخة ٤٠٠ ل.س أو ما يعادلها